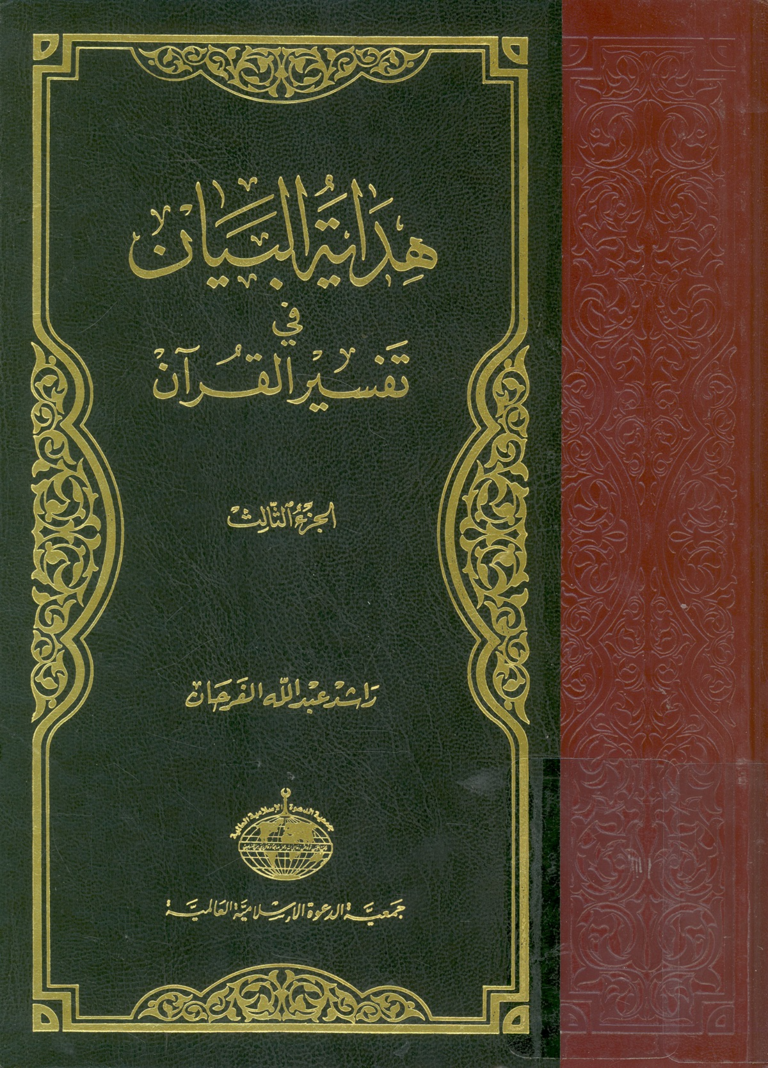
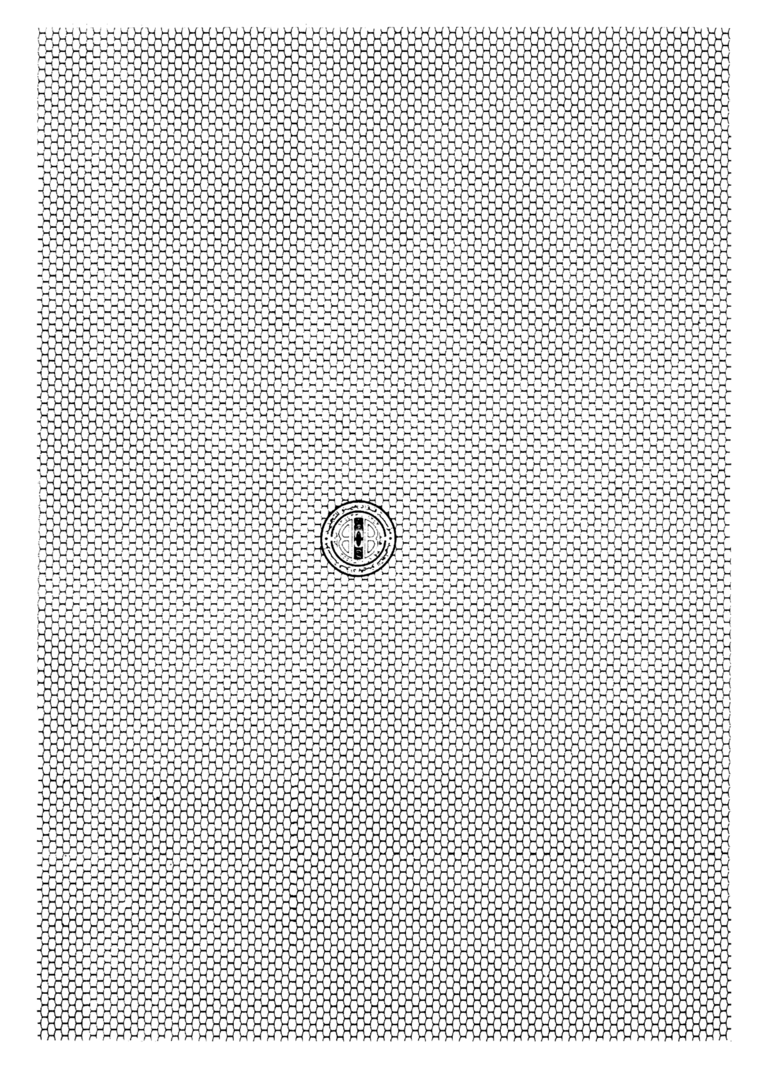

هداية البيان
في
تفسير القرآن
الجزء الثالث
راشد عبد الله الفرحان
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية





إهـــــــــداء٢٠٠٨
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية العربية الليبية

هداية البيان

في

تفسير القرآن

الجزء الثالث



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

1430 من ميلاد الرسول ﷺ

2000 إفرنجي

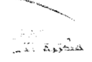
هداية البيان
في
تفسير القرآن

الجزء الثالث

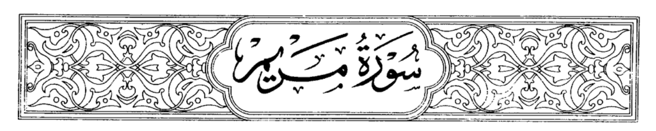
تأليف : راشد عبدالله الفرحان



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية







سورة مريم سميت بها لأنّها تتحدث عن مريم وولدها عيسى عليه السلام.

ختم الله سبحانه سورة الكهف بذكر التوحيد والدعاء إليه، وافتتح هذه السورة بذكر الأنبياء الذين كانوا على تلك الطريقة، بعثاً على الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قصة زكريا

١ ـ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾.

٢ ـ ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾.

﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ قال الأخفش مما يقص عليك ذكر رحمة ربك، فانتصب العبد بالرحمة، وزكريا بيان له، هو أبو سيدنا يحيى من آل داود، كان من الأحبار الذين يقومون بخدمة المسجد الأقصى وكان حريصاً على ألّا يأكل إلّا من كسب يده، فعمل نجّاراً، وهو الذي كفل السيدة مريم كما في سورة آل عمران في قوله تعالى ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾[1] حيث ظهر السهم له فكفلها والأقلام هي السهام.

٣ ـ ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾.

أي دعا ربّه دعاء مستوراً عن الناس لم يسمعه أحد في جوف الليل. ثم شرع في حكاية ندائه قائلاً:

٤ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي ضعف، ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ شبّه الشيب في البياض والإنارة بشواظ النار وانتشاره في الشعر ففيه استعارة بلاغية ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي خائباً فيما مضى.

٥ ـ ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾.

---

(١) الآية: ٤٤.

﴿وإنّي خفت الموالي من ورائي﴾ الموالي هي عصبة الرجل الذين يلونه في النسب، وكانوا شراراً من بني إسرائيل فخاف ألا يحسنوا خلافته في أمته، ﴿من ورائي﴾ أي بعد موتي ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ لا تلد. ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ ابناً صالحاً يتولاّني.

٦ ـ ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾.

﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ العلم والنبوة قال مجاهد كان زكريا من ذرية يعقوب والأنبياء لا يورثون مالاً وإنما يورثون العلم لمن بعدهم وما تركوه من مال صدقة ﴿واجعله رب رضياً﴾ مرضياً عندك...

القــــراءة

﴿يرث﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم، وابن عامر، وحمزة بالرفع.

وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿يرثْني ويرثْ﴾ بالجزم فيهما.

٧ ـ ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾.

مسمى بيحيى.

٨ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾.

﴿قال ربّ أني يكون لي غلام﴾ كيف ﴿وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ وهو اليبس والجساوة في المفاصل.

القــــراءة

﴿عتياً﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿عتياً، وبكياً، وصلياً﴾ بضم أوائلها، وقرأ حمزة والكسائي بكسر أوائلها، ووافقهما حفص عن عاصم، إلاّ في ﴿بكياً﴾ ضم أوله.

٩ ـ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾.

﴿قال كذلك﴾ أي الأمر ﴿قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾.

القــــراءة

﴿خلقتك﴾ قرأ حمزة ﴿خلقناك﴾ بالنون والألف.

١٠ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾[1] أي علامة على حمل امرأتي ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾

---

(١) سبق تفسير الآية في سورة آل عمران، الآية: ٤١.

﴿سوياً﴾ الأكثرون على أنّه صفة زكريا عليه السلام، أي وأنت سليم الحواس مستوي الخلق ما بك خرس ولا عمى.

١١ ـ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾.

﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم﴾ أومأ إليهم برأسه ويديه ﴿أن سبّحوا بكرة وعشياً﴾ والمعنى: إنه كان يخرج إلى قومه فيأمرهم بالصلاة بكرة وعشياً، فلما حملت امرأته أمرهم بالصلاة إشارة.

قصة يحيى عليه السلام

١٢ ـ ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾.

﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ أي خذ التوراة بجد واجتهاد، وفيه إشارة إلى أن الله يعلمه بالقوة الإلهية، ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ العلم والفهم للتوراة وهو ابن سبع سنين.

١٣ ـ ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾.

﴿وحناناً من لدنا﴾ أي وآتيناه حناناً لأهل زمانه والحنان هو توقان النفس، ثم استعمل في الرحمة وهو المراد هنا كقوله في نبينا ﷺ، ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾[1] ﴿وزكاة وكان تقياً﴾ والعمل الصالح هو التقى، وإعطاء الزكاة والصدقات للناس.

١٤ ـ ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾.

١٥ ـ ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

المراد باليوم الحين والوقت.

مريم

لما ذكر خلق الولد من شخصين فانيين شرع في ابتداء خلق عيسى عليه السلام من غير أب فقال:

١٦ ـ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾.

أي تنحّت واعتزلت إلى مكان مما يلي الشرق من الجهات الأربع، من مكان سكناها، قاله ابن عباس.

الكلام على الروح

١٧ ـ ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي ستراً وحاجزاً لقضاء بعض شأنها كسائر النساء ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ هو جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ تاماً كخلقة البشر.

١٨ ـ ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

إن كنت تتقي الله وتخافه فابعد عنّي بتعوّذي ولم تكن تعرف أنّه جبريل.

١٩ ـ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

طاهراً من الذنوب.

٢٠ ـ ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

﴿قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر﴾ بالزواج الحلال ﴿ولم أك بغياً﴾ زانية بالحرام.

٢١ ـ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا﴾ لمن تبعه ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ وكان خلقه أمراً محكوماً به مفروغاً منه سابقاً في علم الله، فلا تجادلي فيه.

٢٢ ـ ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

﴿فحملته﴾ أي صار حملاً في بطنها من نفخة جبريل فيها، فدخلت فرجها وتلك النفخة هي سر الحياة في الإنسان وفي مريم، وهي النفخة التي تعني الروح الذي نفخ الله منه في آدم فإذا هو إنسان فيقول الله تعالى في سورة التحريم بشأن مريم ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾[١] وفي سورة الحجر بشأن آدم ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[٢].

وأما مقدار حمل مريم وكيف حملته وهل كان عادياً كما تحمل النساء أم أنها حملت ووضعت بعد الحمل مباشرة كل ذلك لم يرد به سند صحيح ولا يفهم شيء منه من سياق الآيات، فمهما تكن المدة ساعة أو تسعة أشهر فهو وأمه في هذه الحال آية، والآية لا بد أن تخرق العادة ﴿فانتبذت به﴾ أي بالحمل في بطنها فتنحت واعتزلت ﴿مكاناً قصياً﴾ بعيداً عن أهلها.

٢٣ ـ ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

---

(١) الآية: ١٢.
(٢) الآية: ٢٩.

﴿فأجاءها المخاض﴾ أي ألجأها الطلق وقارب وضع الحمل، فأحسّت بوجع الولادة ﴿إلى جذع النخلة﴾ أي كان ذلك وهي مستندة إلى جذع النخلة ﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ أي ليتني لم أشهد مثل هذا الأمر واليوم الذي لقيت فيه ما لقيت فلا أخطر ببال أحد ولا يتكلم عني أحد بسوء، وقالت ذلك من حيرتها بماذا تجيب أهلها وقومها، وهي المعروفة عندهم بطهارتها.

القـــراءة

﴿نسياً﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم بفتح النون، وقرأ الباقون: بكسر النون.

مريم بعد الولادة

٢٤ ـ ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

﴿فناداها من تحتها﴾ أي ناداها عيسى لما خرج من بطنها وصار بين أرجلها وكأنه تحتها باعتبار أنها تنظر إليه من تحت ﴿ألّا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي جدولاً من الماء.

القـــراءة

﴿تحتها﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم بفتح الميم والتاء.

٢٥ ـ ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

﴿وهزّي إليك بجذع النخلة﴾ أي هزّي الثمرة بهزّ جذع النخلة، ويبدو أن الثمرة كانت متدلية عليها قريبة منها، وربما أن النخلة لم تكن طويلة ﴿تساقط عليك رطباً جنياً﴾ والرطب الجني هو ثمر النخلة الطري.

القـــراءة

﴿تساقط﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿تسّاقط﴾ بالتاء مشددة السين.

وقرأ حمزة وعبد الوارث﴿ تساقط﴾ بالتاء مفتوحة مخففة السين وقرأ حفص عن عاصم بضم التاء.

٢٦ ـ ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

﴿فكلي واشربي﴾ من ذلك الرطب وذلك الجدول السري ﴿وقرّي عيناً﴾ بولادة عيسى عليه السلام ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾ فسألك من أمر ولدك ﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي قولي إشارة إن استنطقك أحد بالسؤال، والمراد بالصوم الإمساك عن الكلام، وكان مشروعاً في عبادتهم ﴿فلن أكلّم اليوم إنسياً﴾ أي بعد

أن أخبرتهم بنذرها وإنما أكلم وأناجي ربي.

٢٧ ـ ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾.

﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ عظيماً، والعرب تقول تركته يفري الفريّ إذا عمل فأجاد، ويستعمل في الخير والشر قولاً أو فعلاً، قال النبي ﷺ «فما رأيت عبقرياً يفري فري عمر» رواه البخاري ومسلم ومعناه: لم أر سيداً يعمل عمله ويقطع قطعه.

٢٨ ـ ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

﴿يا أخت هارون﴾ ليست أختاً لهارون أخ موسى، ولكنها من ذريته أي من بني هارون فنسبت إليه كما يقال أخا العرب ﴿وما كان أبوك﴾ أي عمران ﴿امرأ سوء﴾ أي زانياً ﴿وما كانت أمك﴾ حنة ﴿بغياً﴾ أي زانية حتى تكتسبي مثل هذا العمل، وتتخلقي بمثل هذا الخلق السيء، فتأتين بهذا الولد من غير زواج بالحلال.

٢٩ ـ ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾.

﴿فأشارت إليه﴾ أي أومأت أن كلموه، فتعجبوا من ذلك ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي من يكون في المهد وهذا قولهم «كيف أعظ من كان لا يقبل موعظتي» والماضي يكون بمعنى المستقبل في الجزاء فلما سمع عيسى كلامهم.

٣٠ ـ ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾.

﴿قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب﴾ أي آتاني علم التوراة والإنجيل ﴿وجعلني نبياً﴾ ورسولاً.

٣١ ـ ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.

٣٢ ـ ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾.

ولم يقل بوالديّ مثل يحيى، علم أنّه ولد من غير أب.

٣٣ ـ ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

٣٤ ـ ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.

﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق﴾ أي ذلك الذي فصلت نعوته عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى قول الحق أي كلمة الله التي أطلقها على خلق عيسى بقول كن من غير أب، والحق هو الله تعالى ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي يشكون، فزعم اليهود أنه ساحر وبغضوه وكرهوه، وزعم فيه النصارى غلواً أنه ابن الله وثالث ثلاثة.

٣٥ ـ ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ من، فيها دلالة على نفي الواحد والجمع ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهّم أن يكون له ولد، وهو من أمارات الاحتجاج والنقض.

٣٦ ـ ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

٣٧ ـ ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ اليهود والنصارى أي اختلفوا فيه لبعدهم عن الحق ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ فالمراد بهم الأحزاب المختلفون في عيسى.

٣٨ ـ ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي أسمع الناس بحديثهم اليوم، وأبصر الناس ليعتبروا كيف يصنع الله بهم يوم القيامة ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ يعني المشركين والكفار الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم وكثيراً ما يطلق القرآن لفظ الظالمين على المشركين والكفار.

٣٩ ـ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ يعني يوم القيامة يتحسر المسيء إذ لم يحسن، والمقصر إذ لم يزد من الخير. ﴿وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾.

٤٠ ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾.

أي نميت سكانها ونرثها بعد الموت.

نبي الله إبراهيم عليه السلام

وحين بيّن ضلال الفريق الأول شرع في بيان ضلال الفريق الثاني تدرّجاً من الأسهل إلى الأصعب، وإنما بدأ بقصة إبراهيم عليه السلام لأنّه كان أبا العرب، وكانوا مقرين بعلو شأنه وكمال دينه فكأنّه قال لهم إن كنتم مقلّدين فقلّدوه في ترك عبدة الأوثان وعبادتها فقال:

٤١ ـ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾.

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾ أي اذكر يا نبي الله محمداً لقومك قصته، ﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾

٤٢ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾.

٤٣ ـ ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾.

﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم﴾ بالله والمعرفة عن طريق الوحي ﴿ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾.

٤٤ ـ ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾.

﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه فيما يأمر به من الكفر والمعاصي ﴿إنّه كان للرحمن عصياً﴾ عاصياً.

٤٥ ـ ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾.

ولياً: أي قريناً في العذاب.

أبو إبراهيم يتكلّم

ثم إنّ أباه قابل ملاطفات إبراهيم بالفظاظة والغلظة قائلاً:

٤٦ ـ ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾.

﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ أي تارك عبادتها أنت ﴿لئن لم تنته﴾ عن عيبها وشتمها ﴿لأرجمنّك واهجرني ملياً﴾ أي طويلاً وفي هذا تهديد له. إنَّ إبراهيم بعد أن جهد في سبيل هداية قومه بكل وسائل الإقناع، لم يحفل من قومه بطائل وجفاه قومه وألقوه في النار فجعلها الله برداً وسلاماً عليه، وهدّده أبوه بأن يرجمه إذا استمر على جحد الأصنام، ولم يؤمن له من قومه سوى زوجته سارة ولوط بن هاران بن تارح.

٤٧ ـ ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾.

﴿قال سلام عليك﴾ متاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، وهو نظير قوله تعالى: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[1] ﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً﴾ الحفي البر يقال حفي به إذا اعتنى بإكرامه، ومن ذلك الحفاوة، وكان إبراهيم قد ظفر من أبيه بموعدة: هي أنه سيؤمن به فاستغفر الله له، ولكنه علم بعد ذلك أنه يقيم على دين قومه، فتبرأ منه قال الله في سورة التوبة ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾.

رحلته إلى أور الكلدانيين ثم حرّان

ثم صرّح بما تضمّنه السلام من التوديع والهجران فقال:

---

(١) قد مرّ تفسيره في سورة آل عمران بالتفصيل.

٤٨ ـ ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾.

ذهب إلى أور الكلدانيين مدينة كانت قرب الشاطىء الغربي للفرات ومنها سافر إلى حرّان شمال سوريا.

٤٩ ـ ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾.

﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله﴾ ثم رحل إبراهيم بعد ذلك من الشام إلى فلسطين ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط ومع لوط زوجه وسكنا أرض الكنعانيين، وأقام في ﴿شكيم﴾ وهي مدينة نابلس، ولكنّه لم يطل به المقام بل كان ينتقل نحو الجنوب في رحلتيه إلى مصر ثم إلى أرض أبي مالك ﴿ووهبنا له إسحاق﴾ من زوجته سارة وكانت ولادته بعد إسماعيل من هاجر قيل: بعد أربع عشرة سنة ﴿ويعقوب وكلًّا جعلنا نبياً﴾ يعقوب هو ابن إسحاق ونسبته إلى إبراهيم كجد فقط.

٥٠ ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾.

النبوة والذكر الحسن، فجميع أهل الأديان يتولّون إبراهيم وذريته ويثنون عليهم، فوضع اللسان مكان القول.

موسى عليه السلام

ثم قفى قصة إبراهيم عليه السلام بقصة موسى عليه السلام لأنّه يليه في الشرف فقال:

٥١ ـ ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾.

﴿واذكر في الكتاب موسى إنّه كان مخلصاً﴾ الذي وحّد الله وجعله الله مختاراً خالصاً من الدنس ﴿وكان رسولاً نبياً﴾.

٥٢ ـ ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾.

﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ أي من ناحية جبل الطور في سيناء بين مصر ومدين ﴿وقرّبناه نجياً﴾ مناجياً.

٥٣ ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾.

أي أجبنا له دعوته حين سأل أن يجعل معه أخاه وزيراً له.

إسماعيل عليه السلام

٥٤ ـ ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾.

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل﴾ بن إبراهيم من هاجر ﴿إنّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ وكان

رسولاً بنفس شريعة أبيه إبراهيم إلى قومه وهم «جرهم».

٥٥ ـ ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾.

لاستقامة أقواله وأفعاله.

إدريس عليه السلام

٥٦ ـ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾.

هو نبي قبل نوح عليه السلام، وأول مرسل بعد آدم عليه السلام.

٥٧ ـ ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.

هو شرف النبوة والزلفى عند الله ذكره الألوسي.

٥٨ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾.

﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا﴾ أي اخترناهم فأطاعوا ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ جمع ساجد وجمع باك قال أبو مسلم: والمراد بالآيات هنا الآيات التي فيها ذكر العذاب، وفيها سجدة.

ولما مدح هؤلاء الأنبياء ترغيباً لغيرهم في سيرتهم، وصف أضدادهم لتنفير الناس عن طريقتهم قائلاً:

٥٩ ـ ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾.

﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ هم الكفار والعصاة ﴿أضاعوا الصلاة﴾ تركوها ﴿واتبعوا الشهوات﴾ من شرب الخمر والزنا واللهو وما شاكل ذلك، مما يقطع عن أداء فرائض الله، والمراد بالغيّ السوء وهو الجزاء وسوء العاقبة.

٦٠ ـ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾.

٦١ ـ ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾.

﴿مأتياً﴾ بمعنى يؤتيه أولياؤه، وسبق تفسير جنات عدن في سورة التوبة الآية: (٧٢)

٦٢ ـ ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ ما يلغى من الكلام ويؤثم فيه من الفاسد المطّرح ﴿إلّا سلاماً﴾. السلام ليس من اللغو فالمعنى: إلّا أنهم يسمعون فيها سلاماً ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ بدون تعب ولا عناء فالرزق من الطعام وغيره يأتي بدون السعي إليه.

٦٣ ـ ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾.

﴿نورث﴾ بمعنى نعطي كالميراث لهم.

٦٤ ـ ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾.

﴿وما نتنزل إلّا بأمر ربك﴾ هذا قول جبريل للنبي ﷺ، حينما احتبس عنه ﷺ أياماً بعد سؤال الكفار عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فقال عنه المشركون إنّ ربَّه ودّعه وقلاه، فأنزل الله هذه الآية وسورة الضحى، والمعنى: أن الملائكة الذين ينزلون على الأنبياء والرسل مأمورون منقادون لا ينزلون إلّا بأمر الله ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي ما قدامنا من الزمان المستقبل وما خلفنا من الزمان الماضي، وما بين ذلك المذكور من الزمان الحال، فلا نتنزل في زمان دون زمان إلّا بأمره سبحانه ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي تاركاً أنبياءه، والتأخير لحكمة.

٦٥ ـ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾.

لما أمر نبيه ﷺ وأمته بالتبعية أن يعبدوا الله ويصطبروا لعبادته، كان لمنكر أن يعترض بأنّ هذه العبادات لا منفعة فيها في الدنيا، لأنها مشقة، ولا في الآخرة لاستبعاد حشر الأجساد إلى حالها، فلا جرم حكى قول المنكر ليجيب عن ذلك فقال:

٦٦ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾.

﴿ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً﴾ أي يقول الإنسان الكافر ذلك، أي أفبعد ما أموت سوف أبعث وأعيش مرة أخرى حياً، وظاهر الكلام استفهام ومعناه الجحد والإنكار، ومعناه لست مبعوثاً بعد الموت.

ولما كان الإنسان لا يصدر عنه هذا الإنكار إلّا إذا لم يتذكر أو لم يذكر النشأة الأولى قال سبحانه منبّهاً على ذلك:

٦٧ ـ ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾.

﴿أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ أي نعم وأنت مبعوث.

وجواب ذلك مذكور في سورة يسٓ عند قوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم﴾[1].

---

(١) الآية: ٧٨.

القـــراءة

﴿يذكر﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وحمزة والكسائي: بفتح الذال مشددة الكاف ﴿يذكّر﴾.

وحين نبّه على النكتة الضرورية أكّدها بالإقسام قائلاً:

٦٨ ـ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾.

﴿فوربّك لنحشرنّهم والشياطين﴾ أي مع الشياطين ﴿ثم لنحضرنّهم حول جهنم جثياً﴾ جمع جاث أي قعوداً.

٦٩ ـ ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾.

أي لنأخذنّ من كل فرقة وأمة وأهل دين أعظمهم له معصية، والمعنى: أنّه يبدأ بتعذيب الأعتى وبالأكابر جرماً والرؤساء والقادة في الشر ثم بيّن بقوله:

٧٠ ـ ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾.

أولى بها: أي جهنّم، وصلياً يصلاها إذا دخلها وقاسى حرّها.

ورود النار

٧١ ـ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾.

٧٢ ـ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾.

أي ما منكم أحد أيّها الناس إلاّ واقف على هول النار ومشاهدها، حسب قضاء الله المحتوم في سننه، ثم يفترق الخلق فيذهب أهل الجنة للجنة، وهم الذين اتقوا ربّهم في الدنيا، وأهل النار للنار، ومعنى اتقوا ربّهم: أي من النار ومن باب أولى دخولها، ويذهب أهل النار للنار، فبعد مفارقة أهل الجنة لهم يترك الله الظالمين فيها أي النار جثياً قعوداً على ركبهم، والذي يؤكّد هذا التفسير عدة أمور:

إنّ الله حرّم دخول النار على عباده الصالحين ﴿أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها﴾[1] قال الزجاج: العرب تقول: وردت بلد كذا، ووردت ماء كذا، إذا أشرفوا عليه وإن لم يدخلوا، ومنه قوله تعالى: ﴿ولما ورد، ماء مدين﴾[2] ولم يدخل موسى البئر.

إنّ الآيات التي وردت بها كلمة ورود النار ـ بعد الوقوف عليها ـ لم تكن مطلقة مثل هذه الآية، وإنما قيدت بقرائن تدل على الدخول في النار، ومن ذلك قوله تعالى في سورة هود عن فرعون[3]﴿يقدم قومه يوم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٣.

(٣) الآية: ٩٨.

القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ وقوله تعالى ﴿أنتم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم أنتم لها واردون﴾[١] فحصب جهنّم داخلها وقودها، وقوله تعالى: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنّم ورداً﴾[٢] وهذه الآية تبيّن اختلاف الورود وإن كان كلّ واردها.

ومن ذلك نخلص إلى أن لفظ الورود، إذا لم يقترن بما يفيد الدخول والخلود أو الذم يكون معناه على حقيقته، وهو الإشراف والمشاهدة، والوقوف على مقربة من الشيء، كما تأتي الماشية لموردها تقف عنده بانتظار دورها لتشرب الماء.

وجاء في كتاب فوائد في مشكل القرآن: [٣]ويطلق على الملابسة من غير دخول كقوله: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ ولم يدخل البئر، لأنّه مأخوذ من الوريدين؛ لأنهما يمتدان عند شرب الماشية من الماء، وإذا كان كذلك، فالمراد بالورود هاهنا العبور على الصراط؛ لأنّه على متن جهنّم، والناس يمرون عليه.

لما ردّ على منكري البعث وقرّر كيفية الحشر قال:

٧٣ ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي على المشركين، والآيات هي القرآن ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾ للفقراء من المؤمنين ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ المقام اسم المثوى والندي النادي مجلس القوم ومجتمعهم، والمعنى: أنحن خير أم أنتم، فافتخروا عليهم بالمساكن والمجالس فأجابهم الله بقوله.

٧٤ ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾.

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ من أهل الزمان من الأمم الماضية ﴿هم أحسن أثاثاً﴾ مالاً ومتاعاً ﴿ورءياً﴾ منظراً من الرؤية فكما أهلكناهم لكفرهم نهلك هؤلاء.

القــــراءة

﴿مقاماً﴾ قرأ ابن كثير بضم الميم مُقاماً. ﴿رئياً﴾: قرأ نافع، وابن عامر ﴿ريّاً﴾ بياء مشددة من غير همز.

ثم بيّن أنّ مآل الضال إلى الخزي والنكال وإن طالت مدته وكثرت عدته فقال:

٧٥ ـ ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾.

﴿قل من كان في الضلالة﴾ في الكفر والعمى عن التوحيد ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ هذا لفظ الأمر

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ٨٦.

(٣) لعز الدين بن عبد السلام ص ١٧٨.

ومعناه الخبر والمعنى: إنّ الله تعالى جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها، قال ابن الأنباري خاطب الله العرب بلسانها، وهي تقصد التوكيد للخبر بذكر الأمر ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ في القرآن ﴿إما العذاب﴾ يعني القتل أو الأسر، وهو العقاب الذي تفرضه الدولة على مرتكب ما يخالف نظامها وقوانينها ﴿وإما الساعة﴾ يعني يوم القيامة ﴿فسيعلمون من هو شرّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ في الآخرة أهم، أم المؤمنون؟

أجندهم أم جند الله؟ وفي هذا ردّ على ما قالوا: ﴿أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾.

وحين بيّن حال أهل الضلال أراد أن يبيّن حال أهل الكمال فقال:

٧٦ ـ ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾.

﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ قال الزجاج: المعنى: إن الله تعالى يجعل جزاءهم أن يزيدهم يقيناً كما جعل جزاء الكافر أن يمدّه في ضلالته.

﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردّاً﴾ سبق تفسيرها في الكهف آية (٤٦).

ثم أردف مقالتهم الحمقاء بأخرى مثلها قائلاً على سبيل التعجّب:

٧٧ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾.

والمعنى: أرأيته مصيباً فيما يقول ويزعم.

القـــراءة

﴿ولداً﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿مالاً ووُلْداً﴾ بضم الواو وسكون اللام، جميع ما في هذه السورة وفي الزخرف.

٧٨ ـ ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾.

﴿أطلع الغيب﴾ بقوله هذا ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم عهد إليه أنّه يدخل الجنّة.

٧٩ ـ ﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾.

ثمّ عكس استهزاءه بقوله:

٨٠ ـ ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾.

﴿ونرثه ما يقول﴾ أنّه له في الجنّة، فنجعله لغيره من المسلمين، أو نرث ما عنده في الدنيا من المال، والولد، بإهلاكنا إيّاه وإبطال ملكه ﴿ويأتينا﴾ يوم القيامة ﴿فرداً﴾ بلا مال ولا ولد.

٨١ ـ ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾.

وحين فرغ من الردّ على منكري البعث، شرع في الردّ على عبدة الأصنام، فبيّن أولاً غرضهم، وذلك أن

يتعزّزوا بآلهتهم وينتفعوا بشفاعتهم، ثم أنكر عليهم وردعهم بقوله ﴿كلا﴾ ثم أخبر عن مآل حالهم بقوله:

٨٢ ـ ﴿ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾.

﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾ لهم ﴿ويكونون﴾ أي الأصنام والمعبودون ﴿عليهم ضداً﴾.

لما بيّن مذاهب الفرق الضالة أراد أن يبيّن منشأها فقال:

٨٣ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾.

أي أخلينا بين الشياطين والكافرين والعصاة فلم نعصمهم من القبول منهم، وسلطناهم عليهم، ومعنى تؤزّهم تزعجهم إزعاجاً وتغريهم بها.

٨٤ ـ ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾.

﴿فلا تعجل عليهم﴾ لا تعجل بطلب عذابهم ﴿إنما نعدّ لهم عدّاً﴾ الأيام والليالي إلى وقت عذابهم.

ثم لما قرّر أمر الحشر وأجاب عن شبه منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين وقتئذ فقال:

٨٥ ـ ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴾.

﴿وفداً﴾ جمع وافد.

٨٦ ـ ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾.

قال ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن: عطاشاً، قال أبو عبيدة: الورد مصدر الورود، وقال ابن قتيبة الورد جماعة يردون الماء يعني أنهم عطاش، لأنّه لا يرد الماء إلّا العطشان وقال ابن الأنباري[١] واردين.

٨٧ ـ ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾.

﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي لا يشفعون ولا يشفع لهم[٢] ﴿إلّا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ والعهد هو توحيد الله والإيمان به.

٨٨ ـ ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴾.

يعني اليهود والنصارى ومن زعم من المشركين أن الملائكة بنات الله.

---

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم بن بشّار الأنباري النحوي، كان من أعلم الناس وأفضلهم في نحو الكوفيين، وأكثرهم حفظاً للغة.

(٢) مرّ تفصيل الشفاعة في سورة البقرة، الآية: ٤٨.

٨٩ ـ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾.

أي عظيماً، الإدّ والنكر: الأمر المتناهي العظم قاله أبو عبيدة.

٩٠ ـ ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾.

أي سقوطاً.

القــــراءة

﴿تكاد﴾ قرأ نافع والكسائي: ﴿يكاد﴾ بالياء.

٩١ ـ ﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾.

٩٢ ـ ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾.

٩٣ ـ ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾.

يوم القيامة ذليلاً.

٩٤ ـ ﴿ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾.

٩٥ ـ ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾.

بلا مال ولا نصير.

٩٦ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾.

في قلوب المؤمنين.

٩٧ ـ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾.

﴿فإنّما يسّرناه﴾ أي القرآن ﴿بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً﴾.

٩٨ ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

الركز الصوت الخفي.



سورة طه سميت بها لورود كلمة ﴿طه﴾ في أول السورة.

ختم الله سبحانه سورة مريم بذكر إنزال القرآن، وأنّه بشارة للمتقين، وإنذار للكافرين، وافتتح هذه السورة بالقرآن وأنّه أنزل لسعادة البشرية لا لشقاوتها فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ طه﴾.

﴿طِهِ﴾ ومعناها يا رجل بلغة عكّ قال تميم بن نويرة:

هتفت بطه في القتال فلم يجب   فخفت لعمري أن يكون موائلاً

وهي موجودة في عدة لغات منها النبطية، والسريانية، والحبشية، ولا دليل على أنها من أسماء الله تعالى، أو أنها اسم للنبي محمد ﷺ.

القـــراءة

﴿طه﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿طَهِ﴾ بفتح الطاء وكسر الهاء. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿طِهِ﴾ بكسر الطاء والهاء.

٢ ـ ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾.

﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ أي ما أنزل عليك الوحي لتتعب بفرط تأسفك عليهم، وتحسرك على أن يؤمنوا. ولا أن تبالغ في العبادة، وإنما أنزلناه رحمة وسعادة في الدنيا والآخرة، وهذا للرسول ولأمته من بعده، ولا حاجة لنا فيما نقل من أحاديث ضعيفة في أسباب النزول.

٣ ـ ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

﴿إلّا تذكرة لمن يخشى﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخاف الله.

٤ ـ ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾.

﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾ أي أنزلناه تنزيلاً، والعلى جمع العليا.

٥ ـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ العرش في اللغة سرير الملك الذي يجلس عليه الحاكم، وفي الآية استواء يليق بجلاله من غير تجسيم، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

ثم أكّد كمال ملكه بقوله:

٦ - ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾.

﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما﴾ أي له ملك كل ما لا يعقل ويعيش في الأجرام السماوية أو في أجوائها العليا بين السماء والأرض ﴿وما تحت الثرى﴾ الثرى هو التراب تحت طبقات الأرض، وتحت طبقات تراب الأجرام الأخرى من معادن ومخلوقات.

ثم بيّن كمال علمه بقوله:

٧ - ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾.

﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي لا تجهد نفسك برفع الصوت بالدعاء. فإنّ الله يعلم السرّ أي ما أسررته لنفسك أو مع غيرك، ويعلم ما هو أخفى من ذلك كالأمور التي تعزم عليها بعد، ومن كان هذا شأنه، فليطمئن كل داع بأن الله يسمعه.

ثم ذكر أن الموصوف بالقدرة والعلم على الوجه المذكور لا شريك له وهو الذي يستحق العبادة دون غيره فقال:

٨ - ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

هي التسعة والتسعون، والحسنى مؤنث الأحسن.(١)

قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل

وحين عظم شأن القرآن وبيّن حال الرسول ﷺ فيما كلّف من أعباء الرسالة قفّاه بقصة موسى تثبيتاً له وتقوية وتسلية فقال:

٩ - ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾.

﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ خاطب الله سبحانه نبيه تسلية له مما ناله، وتثبيتاً له بالصبر على أمر ربه كما صبر موسى، وهو ابتداء إخبار من الله تعالى على وجه التحقيق، هل سمعت بخبر فلان، أو هو استفهام تقرير بمعنى الخبر، ومعناه قد أتاك.

(١) سبق شرح الآية في سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

١٠ ـ ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾.

﴿إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا﴾ بعد زواج موسى من بنت شعيب في مدين، استأذن في السفر إلى مصر، خرج هو وامرأته وغنمه، فلما وافى وادي طوى، وهو بالجانب الغربي من الطور، ولد له ولد في ليلة باردة مظلمة، فأراد ناراً ليدفىء بها امرأته، فبينما هو في أشد الحاجة إلى النار، أبصر من جانب الطور ناراً فقال لأهله الزموا أماكنكم ﴿إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾ أي أبصرت ناراً عن بعد لعلّي أحصل شعلة أقتبسها لتصطلوا بها، أو أجد عند النار من يدلّني على الطريق الموصل إلى مصر وأو هنا ليست للتخيير.

القــــراءة

﴿لأهله امكثوا﴾ قرأ حمزة: ﴿لأهلهُ امكثوا﴾ بضم الهاء.

١١ ـ ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾.

١٢ ـ ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾.

﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إنّك بالوادي المقدس طوى﴾ طلب منه خلع نعليه لطهارة المكان، واستعداده لكلام رب العالمين، والمقدس أي المبارك، وطوى اسم مكان.

إنه افتتح الخطاب بقوله: ﴿وأنا اخترتك﴾ وهو غاية اللطف.

١٣ ـ ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾.

القــــراءة

﴿إني أنا ربك﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿نودي يا موسى أنّي أنا ربك﴾ بفتح الألف، المعنى: ﴿نودي بأني أنا ربك﴾

﴿طوىً﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿طوى﴾ بغير تنوين.

﴿وأنا اخترتك﴾ قرأ حمزة: ﴿ وأنّا اخترناك﴾ على معنى ﴿نودي أنا اخترناك﴾ من خطاب الملوك والعظماء.

إخفاء الساعة

١٤ ـ ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾.

ثم لما أمر موسى عليه السلام بالعبادة عامة وبالصلاة التي هي أفضلها خاصة علّل ذلك بقوله:

١٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾.

﴿إنَّ الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ الساعة هي يوم القيامة، وهو يوم قادم لا محالة، وأريد أن أخفي وقت قيامها، وفائدة الإخفاء للتحذير والتخويف ومن لم يعرف متى يهجم عليه عدوه يكون أشدّ حذراً، والمعنى: يوشك أن أقيمها ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ بما تعمل من خير وشر.

وختم الكلام بقوله:

١٦ ـ ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾.

﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ فلا يمنعنك عن الإيمان بها والعمل الصالح من اتبع مراده، وخالف أمر الله، والردى الهلاك، وهو خطاب للأمة.

بعثة موسى عليه السلام ـ وما طلبه من الله عز وجل

١٧ ـ ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾.

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ هذا بدء بيان ما أعطى موسى من المعجزات حيث سأله عما في يده، سؤال استفهام للتقرير ليرتب عليه المعجزة فيها، والله سبحانه عالم بما في يده، وبكل شيء، ليلفت نظره إلى العصا وحقيقتها، وليدرك عظمة الله وقوته، قال الزجاج: تلك اسم مبهم يجري مجرى ﴿التي﴾، والمعنى ما التي بيمينك.

١٨ ـ ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾.

يكفي أن يقول موسى هي عصاي، ولكنه اغتنم الفرصة لقربه من الله ومخاطبته، قال الإمام ابن كثير: وقد تكلّف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت فقيل كانت تضيء الليل وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظلله، وقول بعضهم إنّها كانت لآدم عليه السلام، وأنها هي الدابّة التي تخرج قبل يوم القيامة، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً بادىء الأمر وما كان يفر منها هارباً، كل ذلك لم يصحّ فيه شيء عن النبي ﷺ وهو من الأخبار الموضوعة، لما قال موسى عليه السلام: ولي فيها مآرب أخرى، أراد الله سبحانه أن يعرّفه أنّ فيها مأربة أخرى لا يفطن لها:

١٩ ـ ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾.

﴿قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ تمشي وتهتز كأكبر ثعبان بسرعة الثعبان الصغير المسمى بالجان.

٢١ ـ ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾.

﴿قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ وسيرتها أي حالتها الطبيعية وهو منصوب بنزع الخافض والمعنى: سنعيدها إلى سيرتها.

العصا واحدة وقد جاء في الأعراف ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾[1] وفي النمل ﴿كأنها جان﴾[2] وفي هذه الآية ﴿حية تسعى﴾ وذلك أنَّ صفتها بالجان عبارة عن ابتداء حالها، وبالثعبان إخبار عن انتهاء حالها، والحية اسم يقع على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، منها.

ثم قوّى أمره بمعجزة ثانية فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾.

﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ الجناح هو الجنب تحت العضد إلى الإبط ﴿تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى﴾ أي من غير مرض كالبرص ونحوه، دلالة على صدقك، ونصب كلمة آية على معنى آتيناك آية.

٢٣ ـ ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾.

أي الآية الكبرى من آياتنا وهي الكلام.

ثم صرّح بالمقصود من المعجزات فقال:

٢٤ ـ ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾.

أي جاوز الحد في طغيانه وكفره حيث ادعى الألوهية.

٢٥ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴾.

أي وسع لي صدري حتى لا أضجر ولا أخاف ولا أغتم.

٢٦ ـ ﴿ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾.

سهّل عليّ ما بعثتني له.

٢٧ ـ ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾.

قال ابن قتيبة: فيه عجلة في الكلام من أثر جمرة أكلها وهو صغير.

٢٨ ـ ﴿ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾.

وقد استجاب الله له دعاءه فأحل العقدة عن لسانه.

---

(١) الآية: ١٠٧.
(٢) الآية: ١٠.

٢٩ ـ ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴾.

يؤازرني على فرعون، ثم بين الوزير وفسره فقال:

٣٠ ـ ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ﴾.

شقيقه وكان أفصح منه لساناً، وأكبر سناً، وألين جانباً.

٣١ ـ ﴿ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴾.

أي قو به ظهري وهو دعاء من موسى، والمعنى: اشدد به يا رب أزري.

٣٢ ـ ﴿ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴾.

أي في النبوة والرسالة وليس الوزارة فقط.

القـــراءة

﴿اشدد به.... أشركه...﴾ قرأ ابن عامر: ﴿.. أخي ● أشدد به﴾ بفتح الألف، ﴿وأشركه في أمري﴾ بضم الألف على الإخبار.

ثم ذكر غاية الأدعية فإن المقصد الأسنى هو الاستغراق في بحر التوحيد ونفي الإشراك فإنّ التعاون مهيج الرغبات ومسهّل سلوك سبل الخيرات فقال:

٣٣ ـ ﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴾.

أي نصلي لك، وننزّهك عما لا يليق بك.

٣٤ ـ ﴿ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴾.

أي نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من نعمك.

ثم ختم الأدعية بقوله:

٣٥ ـ ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾.

أي بأحوالنا وأمورنا إذ خصصتنا بهذه النعم.

وحين راعى من دقائق الأدب وأنواع حسن الطلب ما يجب رعايته فلا جرم أجاب الله تعالى مطالبه وأنجح مآربه قائلاً:

٣٦ ـ ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

أي أعطيت ما سألت.

٣٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾.

أي قبل هذه المرة من صغرك إلى كبرك، ثم فسر سبحانه تلك النعمة فقال:

٣٨ ـ ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾.

أي ألهمناها ما يلهم مما كان سبباً لنجاتك ثم فسر ذلك بقوله تعالى:

٣٩ ـ ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾.

﴿أن اقذفيه في التابوت﴾ الصندوق الخشبي ﴿فاقذفيه في اليم﴾ يريد النيل ﴿فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له﴾ عبر بالقذف بدل الوضع وكأنها انتزعته من جوفها والساحل شط البحر أو النهر، والمعنى: حتى يلقيه البحر بالشط، وعدوه هو فرعون ﴿وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني﴾ أي جعل الله له محبة في الناس، حتى أحبه فرعون لما دخل التابوت في قصره، والصنع في الآية، معناه التغذية والتربية أي يجري أمرك على ما أريد.

٤٠ ـ ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلّكم على من يكفله﴾ أي يرضعه. كانت أخته مريم تمشي متنكرة بمحاذاة الساحل، ولما طلبوا مرضعة له قالت ذلك وقد أحضروا مراضع عدة، فلم يقبل منهن إلّا ثدي أمه ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم﴾ كان موسى قبل خروجه من مصر قد قتل خطأ لأن موسى لم يرد قتله حين وكزه بيده، وقد نجّاه الله من الغم الذي أصابه، والأسف الذي حلّ به بعد أن وجد الرجل الذي ضربه قد مات، حيث نجاه الله من الفتك به، فهرب إلى مدين ﴿وفتناك فتوناً﴾ اختبرناك وخلصناك من المحن تخليصاً، ﴿فلبثت سنين في أهل مدين﴾ عشراً ترعى الغنم لشعيب، وربما كان ذلك والله أعلم بقتل القبطي من باب الجزاء والتطهير بدليل أن لُبثَ السنين قد دخل في جملة الأمور التي امتن الله على موسى فيها وخلصه منها، وهيّأه لأمر مهم ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ على ميقات قدرته لمجيئك وكان ذلك على رأس أربعين سنة، وهو الوقت الذي يوحىٰ فيه إلى الأنبياء.

٤١ ـ ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾.

أي اصطفيتك واختصصتك لرسالتي ووحيي.

٤٢ ـ ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴾.

اذهب أنت وأخوك هارون نبيين ورسولين بدلائلي ومعجزاتي التي لديكم إلى فرعون وقومه، ولا تضعفا ولا تفترا عن رسالتي.

٤٣ ـ ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾.

طغى جاوز الحد، والتكرار هنا للتأكيد.

٤٤ ـ ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾.

﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ نحو قوله تعالى ﴿هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى﴾[1] ﴿لعله يتذكّر أو يخشى﴾ لعل: في اللغة: ترج وطمع، تقول: لعلي أصير إلى خير، فخاطب الله عز وجل العباد بما يعقلون، ونسب إلى سيبويه قوله: والعلم من الله تعالى من وراء ما يكون، وإنما يبعث الرسل وهم يرجون ويطمعون أن يقبل منهم وقد علم الله سبحانه أنه لا يتذكر ولا يخشى، إلّا أن الحجة إنما تجب عليه بالآية والبرهان وروي عن معاذ أنه قال: «والله ما كان فرعون ليخرج من الدنيا حتى يتذكر أو يخشى، لهذه الآية وإنه تذكر وخشي لما أدركه الغرق».

٤٥ ـ ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴾.

﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ يبادر بالإساءة إلينا ﴿أو أن يطغى﴾ يجاوز الحد.

٤٦ ـ ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

معكما بالنصرة، أسمع ما يقول وأرى ما يفعل.

٤٧ ـ ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾.

﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي خل عنهم ﴿ولا تعذبهم﴾ في أشغالك الشاقة كالحفر والبناء ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ عبّر عن الجمع بالمفرد ليدل على أنها قدمت لفرعون آية بعد آية ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ لم يرد بالسلام هنا التحية، وإنما معناه إن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله؛ لأنه ليس ابتداء في أول الكلام، ويدل عليه قوله تعالى:

٤٨ ـ ﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾.

---

(١) سورة النازعات، الآيتان: ١٨ ـ ١٩.

٤٩ ـ ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾.

﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ قال فرعون هذا بعد ما أتياه وقالا له ما قالا.

٥٠ ـ ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾.

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ خلق كل جنس من الحيوان على غير صورة جنسه، فصورة ابن آدم لا كصورة البهائم، وصورة البعير لا كصورة الخيل، فأودع في كل شيء خلقه صفاته الخاصة التي تؤهّله لأداء وظيفته التي خلق لها، ومن أجلها، بصورة مدهشة، تجعل الإنسان نفسه يقر بعظمة الصانع واحتياج الإنسان إليه، وهذه من الهداية العامة التي هدى الله كل مخلوق إليها كيف يأكل، كيف يشرب، كيف ينام.

٥١ ـ ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

﴿قال فما بال القرون الأولى﴾ أي ما حال، وما شأن القرون الماضية من الناس قبلنا، وما مصير أمرهم، هل سيحاسبون ويعاقبون، أم لا شيء عليهم حتى جئتنا بهذه الدعوة تدعونا إليها، وهل شأننا مثل شأنهم، وفي ذلك من التهكم على موسى والتكبر على ما جاء به، حتى أجابه بالآية التالية.

٥٢ ـ ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾.

﴿قال علمها عند ربي في كتاب﴾ أي قد سجل عليها وأحصى أعمالها في كتاب مرقوم سيجازى كل واحد منهم بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر وذلك ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾ أي لا يفوته أحد.

٥٣ ـ ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾.

﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي ممهدة كالفراش ﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ طرقاً ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ يعني المطر، وهذا آخر كلام موسى لفرعون، ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ أصنافاً مختلفة في الألوان والطعوم.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهاداً﴾ بكسر الميم وفتح الهاء.

٥٤ ـ ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾.

﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ كلوا مما أخرجنا لكم من الثمار، وأطعموا أنعامكم وهي الإبل والبقر والغنم، والأمر هنا للإباحة، وتذكير النعمة، ﴿إنَّ في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ أي دلائل لأصحاب العقول، جمع نهية

كغرفة، سمي به العقل لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح.

٥٥ ـ ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.

﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ أي الأرض، خلقنا بخلق أبينا آدم من التراب، وإليها نعود مقبورين. ﴿ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ أي وكما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم نخرجكم مرة أخرى عند البعث.

٥٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾.

أي الآيات التسع، وهي التي سبق ذكرها في الأعراف والإسراء[1]، لم تأت الآيات التسع دفعة واحدة، فأولها العصا واليد، وآخرها الطوفان والغرق.

٥٧ ـ ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾.

﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا﴾ مصر ويكون لك الملك فيها ﴿بسحرك يا موسى﴾

٥٨ ـ ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾.

﴿أي اضرب بيننا وبينك موعداً لنقابلك فيه تستوي مسافته على الفريقين، ومكاناً، نصب على أنّه بدل من موعد.

القـــراءة

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر: ﴿مكاناً سوى﴾ بضم السين، وقرأ الباقون: بالكسر وهما لغتان.

٥٩ ـ ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾.

﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾ أي يوم عيدهم الذي يتزينون ويجتمعون فيه، وارتفع يوم بالضمة على التقدير، أي وقت موعدكم يوم الزينة ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ وقت اجتماع الناس بالضحوة.

٦٠ ـ ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾.

﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ بعد أن انصرف فرعون عمل كل حيلته فأرسل في طلب السحرة، وأحضرهم معه حسب الموعد، في المكان والزمان، ليشهد ما يجري فرحاً مسروراً.

٦١ ـ ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾.

﴿قال لهم موسى﴾ أي قال موسى للسحرة وهم كثيرون مع كل واحد حبل وعصا ﴿ويلكم لا تفتروا على

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٠ والإسراء: ١٠١.

الله كذباً﴾ لا تشركوا مع الله أحداً، ولا تكذبوا عليه بأن تدعوا آياته سحراً ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ أي يستأصلكم بالعذاب فيهلككم ﴿وقد خاب من افترى﴾.

القــــراءة

﴿فيسحتكم﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بضم الياء.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم، بفتح الياء.

٦٢ ـ ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾.

يعني السحرة تناظروا فيما بينهم في أمر موسى عليه السلام وتشاوروا وأخفوا كلامهم عن فرعون وقومه.

نفي اللحن في القرآن

٦٣ ـ ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾.

والأمثل هو ذو الفضل، يقال هذا أمثل قومه، يريدان، أي موسى وهارون، إزالة سنتكم ودينكم وما أنتم عليه، والمثلى تأنيث الأمثل.

والمعنى: ﴿إنْ هذان﴾ وهي لغة ابن الحارث بن كعب وقال ابن الأنباري هي لغة لبني الحارث بن كعب، وافقتها لغة قريش، وحكى أبو عبيدة أنها لغة لكنانة، يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد يقولون أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ونظرت إلى الزيدان.

وأما ما افتري على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعثمان بن عفان قولهما «إن في القرآن لحناً ستقومه العرب بألسنتها» فقد رده العلماء وقال عنه الإمام أحمد وابن تيمية خبر باطل لا يصحّ وكذلك السخاوي والطبري وغيرهم، وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الصابئين. وما دامت الآية بلغة العرب والقرآن نزل بها فلا لحن.

القــــراءة

﴿إن هذان﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿إنّ﴾ بالتشديد هاذان بألف ونون خفيفة، وقرأ أبو عمرو: ﴿إنّ هذين﴾ بالياء، وقرأ ابن كثير: ﴿إنْ﴾ بالتخفيف، ﴿هذانّ﴾ بالتشديد.

٦٤ ـ ﴿ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾.

﴿فأجمعوا كيدكم﴾ أي ليكن عزمكم مجمع عليه ولا تختلفوا ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ أي مصطفين ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾فاز من غلب.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو: ﴿فاجمعوا كيدكم﴾ بوصل الألف وفتح الميم.

٦٥ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾.

خيّروه في الابتداء.

٦٦ ـ ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾.

﴿قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه﴾ أي ليس بحقيقة ﴿أنها تسعى﴾ مما وضعوا في تلك العصي وسلوخ الحيَّات ومن الزئبق الذي يلمع بالشمس فصارت كأنّها حيات تسعى وما هي بحيات حقيقة.

السحر

وأما السحر من حيث هو حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وهو علم يتلقّى بالتعلّم، وأمر الله بالاستعاذة منه في سورة الفلق: بقوله ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾ وهي السواحر اللاتي يسحرن وينفثن في العقد، وقد سحر الرسول ﷺ، فمرض وذلك ليعلم الله الناس أنه حقيقة، كما أخبر بذلك النبي نفسه عما حدث له، والسحر أنواع فمنه الحيل التي تحصل بخفة اليد، والتمويه على الناس باستعمال أشياء خفية على الناظر لها لأول وهلة، كالحيات التي استعملها سحرة فرعون مع موسى، ومنها التجمير على العيون كمن يصيد سمكاً في الشارع ويمشي على حبل ويقتل إنساناً وما هو بحقيقة ولكن الناظر يخيّل إليه ذلك، ومنه استخدام الأرواح والشياطين، وما يقوم به بعض شواذ الصوفية وأتباعهم، ومنـه التنويم المغناطيسي إذا استخدم في الشر، كل ذلك يعتبر سحراً.

القـــراءة

قرأ ابن عامر: ﴿تخيّل إليه﴾ بالتاء.

٦٧ ـ ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾.

﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ أي خاف من جهة سحرهم أن يلتبس أمره على الناس فلا يفرقوا بين المعجزة والسحر فلا يؤمنوا به، فأجابه الله في الآية التالية مطمئناً فقال:

٦٨ ـ ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.

٦٩ ـ ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾.

﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾ أي العصا، ومعنى تلقف تبتلع ﴿إنما صنعوا كيد ساحر﴾ أي حيلة

لا حقيقة ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ معناه لا يسعد الساحر حيث كان ولا يفوز، ولذلك تجد السحرة هم أخس الناس مكانة وأفقرهم وأرذلهم في المجتمع.

القـــراءة

﴿تلقف﴾ قرأ ابن عامر ﴿تلقّف﴾ برفع الفاء وتشديد القاف.

﴿كيد ساحر﴾ قرأ حمزة والكسائي، وخلف، ﴿كيد سحر﴾

٧٠ ـ ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾.

﴿فألقي السحرة سجداً﴾ خروا ساجدين لله تعالى لما رأوا آية الله تلقف ما صنعوا ﴿قالوا آمنا برب هارون وموسى﴾ سبحان الله ما أعجب أمرهم، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر في السجود، فما أعظم الفرق بين الإلقائين.

ثم يبين الله سبحانه هول المفاجأة لفرعون مما حدث فيقول:

٧١ ـ ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾.

﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنّه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلأقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلّبنكم في جذوع النخل ولتعلمنّ أينا﴾ يعني نفسه ورب موسى ﴿أشدّ عذاباً وأبقى﴾ أدوم.

القـــراءة

﴿آمنتم له﴾ قرأ نافع رواية قالون وأبو عمرو، وابن عامر، بهمزة ممدودة ﴿آمنتم﴾ وقرأ حمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿أآمنتم له﴾ بهمزتين الثانية ممدودة.

٧٢ ـ ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾.

﴿قالوا لن نؤثرك﴾ أي لن نختارك ﴿على ما جاءنا من البينات﴾ يعني الآيات التي رأوها من موسى ﴿والذي فطرنا﴾ أي ولن نؤثرك كذلك على الذي فطرنا ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ والمعنى: إنما سلطانك وملكك في هذه الدنيا لا في الآخرة.

٧٣ ـ ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

ومعنى قولهم: وما أكرهتنا عليه من السحر، إيهام فرعون لهم أن موسى ساحر، فجعلهم يستعدون له ويتجشّمون المتاعب وجمع الآلآت والعصي الخاصة والحبال من جلود الحيّات وإحضار الزئبق والعمل على

إحكام الصنعة، وما صوّره لهم من ضعف موسى وغلبتهم عليه، وأنهم على حق وأن موسى وهارون ليسا بشيء.

٧٤ ـ ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾.

﴿إنه من يأت ربّه مجرماً﴾ يعني مشركاً كافراً عاصياً مرتكباً الذنوب، ﴿فإنّ له جهنّم لا يموت فيها ولا يحيى﴾.

٧٥ ـ ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾.

﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ درجات الجنة، وبعضها أعلى من بعض، والعلى جمع العليا، وهو تأنيث الأعلى.

٧٦ ـ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾.

أي تطهر من الكفر والمعاصي.

٧٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾.

﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي﴾ أي سر بهم ليلاً من أرض مصر ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ أي اجعل لهم طريقاً، واليبس هو اليابس الذي لا ماء فيه ﴿لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ غرقاً في البحر.

٧٨ ـ ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾.

أي أغرقهم.

٧٩ ـ ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾.

أي دعاهم إلى عبادته، وما أنقذهم ولا أرشدهم حين أوردهم موارد الهلكة، وهذا تكذيب له في قوله لهم ﴿ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد﴾[١].

ثم عدّد ما أنعم به على بني إسرائيل فقال:

٨٠ ـ ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾.

﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم﴾ فرعون بإغراقه في البحر الأحمر ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ الجبل الواقع في الطريق في سيناء من مصر إلى فلسطين ﴿ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾.

سبق تفسيرها في البقرة بالآية: (٥٧) وهي حلوى تؤكل باللحم وهو لحم الطير السماني.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٩.

القـــــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿قد أنجيتكم من عدوكم﴾ ﴿وواعدتكم﴾ بالتاء على الإفراد من غير ألف.

٨١ ـ ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ من المنعم به عليكم ﴿ولا تطغوا فيه﴾ بأن تكفروا بالنعم ﴿فيحلّ عليكم غضبي، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ أي فقد هلك.

القـــــراءة

قرأ الكسائي: ﴿فيحُلّ عليكم غضبي ومن يحلل﴾ بضم الحاء في الكلمة الأولى وبضم اللام في الكلمة الثانية.

٨٢ ـ ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

﴿وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ الغفار الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة، فكلما تكررت ذنوبهم تكررت مغفرته، وأصل الغفر الستر، ومعنى اهتدى، استقام على الحق والعمل الصالح.

٨٣ ـ ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

لمجيء أخذ التوراة.

٨٤ ـ ﴿ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾.

﴿قال هم أولاء على أثري﴾ أي بالقرب مني يأتون بعدي ﴿وعجلت إليك ربّ لترضى﴾ أي لتزداد رضىً.

٨٥ ـ ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴾.

﴿قال فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك﴾ أي ألقيناهم في فتنة ومحنة، واختبرناهم.

﴿من بعدك﴾ من بعد انطلاقك من بينهم ﴿وأضلّهم السامري﴾ أي كان سبباً لإضلالهم لاختيارهم ما اقترحه عليهم، وأما السامري فسيأتي الكلام عليه لاحقاً.

والمعنى: لما نجى الله تعالى بني إسرائيل وأغرق فرعون، قالوا يا موسى لو أتيتنا بكتاب من عند الله، فيه الحلال والحرام والفرائض، فأوحى الله إليه بعده أنه ينزل ذلك في الموضع الذي كلّمه فيه، فعجل موسى شوقاً إلى ربه، وأمر من معه بلحاقه فقال الله تعالى له ما الذي حملك على العجلة عن قومك قال هم أولاء.

٨٦ ـ ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾.

﴿فرجع موسى﴾ رجع بعد أن استوفى الأربعين وأوتي التوراة ﴿إلى قومه غضبان أسفاً﴾ شديد الحزن ثم عاتب موسى عليه السلام قومه بأمور منها: قال ﴿ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ أي صدقاً وهو عام يشمل إعطاء التوراة وتكفير السيئات بعد التوبة ﴿وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ والنصر والظفر على أعداء الدين من الكفار ﴿أفطال عليكم العهد﴾ أي مدة مفارقتي إياكم، وما تركهم عليه من الإيمان، فأخلفوا موعده بعبادة العجل، ويشمل العهد كذلك نعم الله عليهم من الإنجاء وغيره، والمفسرون على أنّه وعدهم ثلاثين لما أمر الله تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ فرجع بعد الأربعين لقوله تعالى ﴿وأتممناها بعشر﴾ ﴿أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم﴾ بعبادتكم العجل الصنم ﴿فأخلفتم موعدي﴾ وموعد موسى هو أنهم وعدوه الإقامة على دينه إلى أن يرجع إليهم من جبل الطور.

٨٧ ـ ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

﴿قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾ أي زيّن لنا السامري وصور لنا سهولة الأمر، حتى غلبنا على أمرنا، فلم يكن بمقدورنا ولا طاقة لنا ﴿ولكنا حمّلنا أوزاراً من زينة القوم﴾ الأوزار الأثقال والمراد بها حلي آل فرعون، الذي كانوا استعاروه منهم قبل خروجهم من مصر، والتي غنموها منهم بعد غرقهم في البحر ﴿فقذفناها﴾ لما قال لهم هارون لا تحل لكم الغنيمة، انتهز السامري الفرصة فأوقد لهم النار ليصنع لهم الصنم كالعجل ليعبدوه وقال لهم اقذفوا ما عندكم من الذهب ﴿فكذلك ألقى السامري﴾ في قلوبهم وعقولهم ما صوّره لهم من غياب موسى وعبادة العجل على أنه إله، أو أنّه ألقى ما لديه من الذهب ليستدرجهم في إلقاء ما لديهم.

القــــراءة

﴿ملكنا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بكسر الميم وقرأ الكسائي وحمزة بضم الميم.

وهي ثلاث لغات الضم: السلطان والقدرة، والكسر: ما حوته اليد، والفتح: المصدر ملكت الشيء أملكه ملكاً.

قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر والكسائي: ﴿ولكنّا حَمَلنا﴾ بالتخفيف.

٨٨ ـ ﴿ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً﴾ صنع لهم عجلا تمثالاً بدليل قوله جسداً والجسد لا روح فيه ﴿له خوار﴾ أي أنه من حسن الصنعة له صوت عندما تهبّ الريح فتدخل من مؤخرته وتخرج من فمه تشبه صوت البقر ﴿فقالوا هذا إلٰهكم وإله موسى﴾ فاعبدوه ﴿فنسي﴾ أي أن موسى نسي الطريق وضل عنه ولذلك تأخر في المجيء عنكم، والقول هو قول السامري ومن آمن معه بالفتنة من أعوانه.

٨٩ ـ ﴿ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾.

﴿أفلا يرون ألّا يرجع إليهم قولاً﴾ أي أفلا يرون أنّ العجل الجسد التمثال لا يرد لهم جواباً ﴿ولا يملك

لهم ضرّاً ولا نفعاً﴾ وأن مخففة من الثقيلة.

ثم إنّه سبحانه أخبر أنّ هارون لم يأل نصحاً وإشفاقاً في شأن نفسه وفي شأن القوم.

٩٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾.

﴿ولقد قال لهم هارون من قبل﴾ رجوع موسى لهم ﴿يا قوم إنّما فتنتم به وإنّ ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾.

ثم إنّ القوم قابلوا حسن موعظة هارون بالتقليد والجحود قائلين:

٩١ ـ ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾.

ثم حكى ما جرى بين موسى وهارون بعد الرجوع بقوله:

٩٢ ـ ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴾.

بعبادة العجل، هذا قول موسى بعد رجوعه من ميقات ربه.

٩٣ ـ ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾.

﴿ألّا تتبعن أفعصيت أمري﴾ والمعنى: أن موسى يستفسر من أخيه هارون عن سبب تركه لهم يعبدون العجل هل كان ذلك عصياناً منه لتنفيذ أوامره له، ووصيته، وهو قوله له ﴿اخلفني في قومي وأصلح﴾ أو أنّه يعتب عليه ويستفسر عن سبب عدم لحوقه والمؤمنين معه بموسى بعد ما رأى منهم ما رأى.

القــــراءة

﴿ألّا تتبعن﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿ألّا تتبعني﴾ بياء في الوصل ساكنة وروى قالون عن نافع مثل أبي عمرو.

٩٤ ـ ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

﴿قال﴾ هارون لموسى ﴿يا ابن أم﴾ أراد أمي ﴿لا تأخذ بلحيتي﴾ وكان أخذها بشماله ﴿ولا برأسي﴾ وكان أخذ شعره بيمينه غضباً ﴿إنّي خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل﴾ في مفارقتهم لمن لم يعبد العجل واتبعتك ﴿ولم ترقب قولي﴾ في قولك لي اخلفني في قومي وأصلح.

العجل والسامريّ

ولما فرغ موسى من عتاب هارون أقبل على السامري بعد أن أحضر إليه.

٩٥ ـ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾.

﴿قال فما خطبك يا سامري﴾ من قبيلة السامرة من بني إسرائيل، وهم قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، ويرى بعض المفسرين أنه كان منافقاً من عبدة البقر اندس في بني إسرائيل.

والمعنى: ما شأنك الذي دعاك إلى ما صنعت.

٩٦ ـ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾.

﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ أي علمت ما لم يعلموا، وهو من العلم بالشيء، فقال له موسى وما ذلك قال ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها﴾ أي أنّه أوهم بني إسرائيل بأن ما قذفه في جوف العجل الجسد، المصنوع مما قبضه من أثر مشي موسى أو من آثاره مما ترك، أوهمهم أنّ ذلك يجعل الحياة في العجل بدليل قوله ﴿وكذلك سوّلت لي نفسي﴾ أي أن ذلك من عند نفسه ومن صنعه وحده بما زينته له وصورته له.

القـــراءة

﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿بما لم تبصروا به﴾ بالتاء.

٩٧ ـ ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾.

﴿قال فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي اذهب من بيننا فإن لك ما دمت حياً، ألا تمس ولا تلمس أحداً، عاقبه الله بذلك، فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع لا يمس أحداً، ولا يمسه أحد، وكان إذا لقي أحداً يقول لا مساس، أي لا تقربني، ولا تمسني، والمراد بذلك منع الناس من مخالطته.

﴿وأن لك موعداً لن تخلفه﴾ أي لعذابك يوم القيامة لن يتأخر عنك ﴿وانظر إلى إلٰهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ الذي أقمت عليه، وعاكفاً: مقيماً ﴿لنحرقنه﴾ بالنار ﴿ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾ أي ذراه في البحر، والنسف التذرية، وفي الآية دلالة على أن العجل إنما صنع من شيء يحرق ويبرد فيذرى، فكلمة نحرّقنّه تحتمل المعنيين، مما يدل على أنه صنع الجسد من جلد عجل جوّفه ووضع فيه من الذهب ما يجعله يصوت كالخوار، عندما يدخله الهواء من إحكام الصنعة، وقول الله عجلاً جسداً يدلّ على أنّه ليس له روح، وله خوار يدلّ على أنّه له صوتاً، ثم ختم الكلام ببيان الدين الحق فقال:

٩٨ ـ ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾.

وحين فرغ من قصة موسى عليه السلام شرع في تثبيت رسولنا ﷺ فقال:

٩٩ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾.

﴿كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق﴾ من أخبار من مضى ثم عظم شأن القرآن بقوله: ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾ والذكر ها هنا القرآن الكريم.

١٠٠ ـ ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴾.

﴿ومن أعرض عنه﴾ أي القرآن، فلم يؤمن به ولم يعمل بما فيه ﴿فإنّه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي إثماً.

١٠١ ـ ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾.

﴿خالدين فيه﴾ أي في عذاب ذلك الوزر ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ وساء الوزر لهم يوم القيامة، والحمل منصوب على التمييز.

١٠٢ ـ ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾.

أي عيونهم مع سواد وجوههم.

القــــراءة

قرأ أبو عمرو: ﴿ننفخ في الصور﴾ بالنون.

١٠٣ ـ ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾.

﴿يتخافتون بينهم﴾ أي يتسارّون بعضهم بعضاً ﴿إن لبثتم إلّا عشراً﴾ ليال، وهذا على طريق التقليل لا على وجه التحديد، وعنوا بذلك لبثهم في الدنيا.

١٠٤ ـ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾.

﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي أعقلهم وأعدلهم قولاً:

﴿إن لبثتم إلّا يوماً﴾ فنسي القوم مقدار لبثهم لهول ما عاينوا في الموقف.

كأنّ سائلاً سأل كيف يصحّ التخافت بين المجرمين والجبال حائلة مانعة فلذلك قال:

١٠٥ ـ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾.

﴿ويسألونك عن الجبال﴾ كيف تكون يوم القيامة ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ والمعنى: يصيّرها رمالاً تسيل سيلاً، وهناك تفصيل أكثر للموضوع في الكهف وسورة النبأ.

١٠٦ ـ ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾.

أي يدع أماكنها من الأرض إذا نسفها قاعاً، والقاع: من الأرض المستوي الذي يعلوه الماء، والصفصف: المستوي أيضاً، يريد أنّه لا نبت فيها.

١٠٧ ـ ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾.

فلا تجد فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً، ولا أودية بينها ولا فوقها آكاماً.

١٠٨ ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾.

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ أي يتبعون صوت الداعي للحشر، ﴿لا عوج له﴾ لا عوج لهم عن دعائه، لا يقدرون أن لا يتبعوه ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلّا همساً﴾ أي سكنت وخفيت فلا تسمع الأصوات وطء الأقدام في نقلها إلى المحشر، كصوت أخفاف الإبل في مشيها.

١٠٩ ـ ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾.

﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة﴾ أحداً ﴿إلّا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ ورضي للمشفوع فيه قولاً، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلّا الله.

١١٠ ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾.

ثم ذكر غاية قدرته فقال:

١١١ ـ ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾.

﴿وعنت الوجوه للحيّ القيوم﴾ أي خضعت، ومنه أخذت البلاد عنوة إذا أخذت غلبة، وأخذت بخضوع من أهلها ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ خسر من أشرك بالله.

١١٢ ـ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾.

من حسناته، الهضم النقص تقول: هضمت لك من حقي أي حططت.

القــــراءة

قرأ ابن كثير: ﴿فلا يخف ظلماً﴾ جزماً على النهي.

١١٣ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ وكما بينا في هذه السورة، أنزلنا هذا الكتاب عربياً ﴿وصرّفنا فيه من الوعيد﴾ يعني بذلك وقائعه في الأمم المكذبة ﴿لعلهم يتقون﴾ ليكون سبباً لاتقائهم الشرك والمعاصي والاتعاظ بمن قبلهم ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾ أي اعتباراً فيتذكروا عقاب الأمم.

ثم عظم شأن القرآن من وجه آخر، وهو عظمة شأن منزّله قائلاً:

١١٤ ـ ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾.

﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ عما يقول المشركون ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ هذا خطاب للنبي وهو كلام مستأنف لأنّه ﷺ كان يخاف أن يفوته، فيقرأ مع ملك الوحي، فإنه تعالى حين شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين، وبين أنّه سبحانه متعال عن الانتفاع والتضرر بالطاعات والمعاصي، وأنه موصوف بالملك الدائم والعز الباقي، ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن النسيان في أمر الوحي وما يتعلق بصلاح العباد، في المعاش والمعاد ومعنى من قبل أن يقضى إليك وحيه أي من قبل أن تتم قراءة جبريل ومثله ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾[1] ﴿وقل رب زدني علماً﴾.

آدم عليه السلام

إنّه لما قال كذلك نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق، ثم عظّم شأن القرآن وبالغ فيه، ذكر هذه القصة إنجازاً للوعد فقال:

١١٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾.

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾ أي أمرناه وأوصيناه أن لا يأكل من الشجرة من قبل الذين نقضوا عهدي وتركوا الإيمان بي، وهم الذين ذكرهم الله في قوله لعلّهم يتقون، فنسي عهدنا إليه، وهذا النسيان ليس على حقيقته وإنما معناه التساهل في الأمر والتهاون، ولذلك قال الله: ﴿ولم نجد له عزماً﴾ أي لم يكن له صبر وحزم أمام إغراء الشيطان له وتزيينه هذا التساهل له بأن يكون من الخالدين ويحصل على الملك الذي لا يبلى، فوسوس له وهو كاذب، لأن ذلك لا يكون إلاّ في جنة النعيم في دار الآخرة.

١١٦ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾.

عن السجود لآدم وقال أنا خير منه.

١١٧ ـ ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾.

من التعب في البحث عن الرزق والكد والزرع والسقي، وعبّر بالمفرد وهما اثنان، لأن الرجل هو الذي يكد ويزرع ويشقى بذلك من أجل أسرته للحصول على الرزق؛ لأنّه هو الكاسب فكان التعب في حقه أكبر.

١١٨ ـ ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾.

أي ما دمت في تلك الجنة المشار إليها تأكل منها وتستتر من ورقها.

١١٩ ـ ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾.

﴿وأنك لا تظمأ فيها﴾ كذلك لا تعطش ما دمت تشرب من أنهارها وعيونها، التي لم تشغل نفسك في

---

(١) سورة القيامة، الآية: ١٦.

الكد من أجل إيجادها، وإنما أوجدها الله عز وجلّ امتحاناً لك ولزوجك ﴿ولا تضحى﴾ لا يصيبك حر الشمس من أجل العمل؛ لأن هذه الجنة مظللة بالأشجار والأغصان فأينما سرت ظللتك سقوفها.

القـــراءة

قرأ نافع وأبو بكر: ﴿وإنك لا تظمأ﴾ بكسر الألف على الاستئناف.

١٢٠ - ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم﴾ مغرياً ومزيناً وكاذباً ﴿هل أدلّك على شجرة الخلد﴾ أي على شجرة من أكل منها لم يمت ﴿وملك لا يبلى﴾ لا يفنى فصدّقا إبليس في زعمه.

١٢١ - ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾.

﴿فأكلا منها فبدت لهم سوآتهما﴾ أي ظهر لكل منهما قبله وقبل الآخر ودبره وسمى لكل منهم سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي أخذا يلزقان عليهما من ورق الجنة ليسترا به عورتهما التي بدت ﴿وعصى آدم ربه﴾ بارتكاب ذلك الذنب ﴿فغوى﴾ قال أبو مسلم الأصفهاني: (بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف، ولهذا قال سبحانه فغوى، أي خاب من نعيم الجنة، لأن الرشد هو أن يتصل بشيء إلى شيء فيصل المقصود والغيّ ضده، وأنه سعى في طلب الخلود فنال ضد المقصود) أقول والأحوط أن يكون ذلك قبل النبوة بدليل قوله:

١٢٢ - ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾.

أي قربه وهداه إلى المداومة على التوبة.

١٢٣ - ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾.

﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾ آدم وحواء وإبليس، والمراد بالهبوط من المكانة التي كانوا عليها إلى مرتبة أقل، وقد شرحنا معنى الجنة والمراد منها في سورة البقرة ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ آدم وذريته وإبليس وذريته ثم عمّ الخطاب لهما ولذريتهما في قوله ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾ أي فمن اتبع رسولي وكتابي، فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

١٢٤ - ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾.

﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ عن موعظتي التي جاءت في كتابي أو على لسان رسولي ﴿فإن له معيشة

ضنكاً﴾ معيشة ضيقة، وكل مكان أو منزل ضيق فهو ضنك، ومحل المعيشة الضنكة هو في الدنيا بانتزاع البركة وعدم القناعة، كالذين يكسبون أموالهم ومعيشتهم من الحرام، لا يعيشون في طول بال ولا سعة صدر، كما وصف الله سبحانه أكلة الربا.

وأقرب الناس إلى المعيشة الضيقة الضنك هو المنافق الذي يعيش عيشة مزدوجة في المجتمع، وذلك لأن الهدى الذي أنزله الله على نبيه فيه نور للقلوب وانشراح لما في الصدور، ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ البصيرة والبصر فلا يعرف كيف يهتدي إلى الطريق إلى الله لطلب التوبة والمغفرة؛ لأنّه ضل في الدنيا طريق الهدى إلى الله، وأعمى البصيرة فلا حجة عنده يدفع بها عن نفسه فليس له إلّا الاعتراف.

١٢٥ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾.

﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ في الدنيا أي قد أعطيتني في الدنيا عقلاً أختار به وإرادة حرة، أمّا اليوم فلا تملك نفس ما كسبت، وردوا إلى الله مولاهم الحق.

١٢٦ ـ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾.

﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ أي من تركك لها صارت لديك كالمنسية فتناسيتها وتجاهلتها، كما حدث لآدم حين أغراه الشيطان بالأكل من الشجرة تناسى أمر الله له بالاجتناب منها ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ في النار مثل نسيانك آياتنا في الدنيا.

١٢٧ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾ في الكفر والشرك والمعصية والظلم فنعاقبه، لأن الجزاء هو العقاب ومنه سمي قانون الجزاء وقانون العقوبات ﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ لما جاءته في الدنيا وأعرض عنها ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ مما ينالهم في الدنيا من العقاب على ما ارتكبوه.

١٢٨ ـ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾.

﴿أفلم يهد لهم﴾ أي أفلم يتبين لهم أي الكفار إذا نظروا آثار غيرهم ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ وكانت قريش تتجر، وترى مساكن عاد وثمود إذا مرّوا بها في ذهابهم وعودتهم للتجارة، وفيها علامات وآثار تدل على هلاكهم ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ لذوي العقول المتدبرة المعتبرة.

١٢٩ ـ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ في تأخير عذاب الاستئصال عن هؤلاء الكفار إلى يوم القيامة ﴿لكان لزاماً﴾ أي لكان الإهلاك لازماً لهم ﴿وأجل مسمى﴾ أي لكن الله أخّرهم إلى أجل مسمى عنده.

وحين بيّن أنّه لا يهلكهم بعذاب الاستئصال أمره بالصبر على ما يقولون من التكذيب وسائر الأذيّات:

١٣٠ - ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾.

﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾ يريد الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ يعني الصلاة الوسطى الظهر والعصر ﴿ومن آناء الليل فسبح﴾ أي صل صلاة العشاء والتهجد ﴿وأطراف النهار لعلّك ترضى﴾ صلاة المغرب وصلاة الفجر، وقال أبو مسلم: الأقرب حمل التسبيح على التنزيه والإجلال، كأنّه أمره بالصبر على أذية القوم، وبعثه على الاشتغال بالتقديس والمواظبة عليه في كل الأوقات.

القــــراءة

قرأ الكسائي وأبو بكر: ﴿لعلّك تُرضى﴾ بضم التاء.

ولما حثّ رسوله على الأمور الدينية نهاه عن الميل إلى الزخارف الدنيوية فقال:

١٣١ - ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

﴿ولا تمدن عينيك﴾ أي نظر عينيك، ومدّ النظرة الطويلة استحساناً للمنظور إليه، وقال أبو مسلم: المنهي عنه في الآية ليس هو التطويل في النظر وإنما هو الأسف، أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوا من حظ الدنيا ﴿إلى ما متّعنا به﴾ غيرك ﴿أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ أي أصنافاً مختلفة من زينتها وبهجتها ﴿لنفتنهم فيه ورزق ربك خير﴾ مما أوتوه في الدنيا ﴿وأبقى﴾ أدوم، وقال أبي بن كعب: من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات على الدنيا ﴿لنفتنهم﴾ فيه أي لنختبرهم ونجعل ذلك فتنة لهم.

١٣٢ - ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

أي وحسن العاقبة لأهل التقوى.

١٣٣ - ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه﴾ أي وقال المشركون هلا يأتينا محمد بآية كونية من ربه كآيات الأنبياء الذين يذكرهم ﴿أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ أولم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب من أخبار الأمم الغيبية التي قصصناها عليهم وكانوا يسألون عنها فتجيبهم أليس ذلك أكبر آية لهم.

القــــراءة

قرأ نافع وأبو عمرو وحفص: ﴿أو لم تأتهم بينة﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: ﴿أو لم يأتهم بينة﴾ بالياء.

١٣٤ - ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾.

﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله﴾ أي من قبل أن يبيّن لهم الرسول الآيات، ويقصّ عليهم نبأ الذين من قبلهم ﴿لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى﴾ في العذاب.

١٣٥ ـ ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

﴿قل كل متربص﴾ أي كل منا ومنكم منتظر ما يؤول إليه الأمر ﴿فتربّصوا فستعلمون﴾ آخراً ﴿من أصحاب الصراط السوي﴾ أي الدين المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ من الضلالة ورجع وتاب ومن بقي سادراً في أهوائه.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سميت سورة الأنبياء لورود ذكر أسماء عدد كبير من الأنبياء فيها.

لما هدّد الله في خاتمة السورة المتقدمة بقوله: ﴿فستعلمون﴾ بيّن في أول هذه السورة أنّ وقت ذلك العلم قريب فقال:

١ ـ ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾.

أي اقترب حساب كل واحد منهم بموته، وانقضاء أجله، فليس له بعد الموت إلّا الحساب وهم في غفلة عما يفعل الله بهم بعد انقضاء الأجل، معرضون عن التأهب له بالإيمان والاستعداد له بالعمل الصالح.

٢ ـ ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

المراد بالذكر هنا هو القرآن الذي أنزل شيئاً بعد شيء فهو محدث، وكان الكفار يستمعون إلى آيات القرآن التي أنزلت على النبي محمد ﷺ، حالة كونهم مستهزئين، وهو من اللهو واللعب عن الجِّد.

٣ ـ ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾.

هذا بيان لغفلتهم عما يراد بهم، ويتناجى الذين ظلموا أنفسهم من المشركين بالله فيقولون: (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون).

يقول المشركون بعضهم لبعض مشيرين إلى النبي ﷺ، وقد بالغوا في نجواهم حتى لا يفطن أحد إلى أنهم يتناجون، ما هذا إلّا بشر مثلكم فكيف تصدقونه في دعوى الرسالة، والرسول لا يكون إلّا ملكاً، أفتقبلون السحر وأنتم تعاينون سحره، وقد قالوا ذلك لزعمهم أن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق فهو من قبيل السِّحر.

٤ ـ ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

القــــراءة

﴿قال ربي﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم ﴿قل ربي﴾.

٥ ـ ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

قد تحير المشركون في أمر الرسول ﷺ، فاختلفت أقوالهم فيه، فمرة قالوا: الذي يأتي به سحر، ومرة يقولون عنه شاعر، ومرة يقولون إن الذي يأتي به أضغاث أحلام، وهي الأشياء التي تأتي مختلطة تُرى في المنام، ثم لما أعياهم الأمر مما تخبطوا فيه، رجعوا إلى قولهم الأول، فقالوا فليأتنا بآية كالناقة، والعصا واليد وغيرها، فاقترحوا الآيات التي لا إمهال بعدها.

الآيات الكونية لا تكون سبباً للإيمان

٦ ـ ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وصف القرية، والمراد أهلها، والمعنى: أن الأمم التي أهلكت بتكذيب الآيات، لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم، فكيف يؤمن هؤلاء؟ وهذه إشارة إلى أن الآيات الكونية غالباً لا تكون سبباً للإيمان بالله، وأكثر الذين طلبوها حاربوها، والاستفهام هنا إنكاري معناه: لا يؤمنون.

٧ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

هذا جواب قولهم ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي أن الرسل بشر وليسوا ملائكة، وأهل الذكر هم العلماء.

القـــراءة

﴿نوحي﴾ قرأ الأكثرون ﴿يوحي﴾ بالياء، وروى حفص عن عاصم ﴿نوحي﴾ بالنون.

ثم أكّد كون الرسل من جنس البشر بقوله:

٨ ـ ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾.

هذه الآية ردّ لقولهم «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق» والمعنى: وما جعلنا الأنبياء قبلك أجساداً لا يأكلون الطعام ولا يموتون، حتى يكون أكلك الطعام، وشربك، وموتك علة في ترك الإيمان بك، قال مجاهد: الجسد ما لا يأكل ولا يشرب.

٩ ـ ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

أي صدقنا الأنبياء بأن أنجزنا وعدهم الذي وعدناهم بإنجائهم، وإهلاك مكذبيهم، وأن العاقبة الحميدة تكون لهم، والمسرفون هم المشركون، وهذا تخويف لكفار مكة، وسمّوا مسرفين لتجاوزهم الحد في العناد، ثم ذكر نعمته عليهم بإنزال القرآن فقال:

١٠ ـ ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

من نعم الله أن أنزل القرآن على العرب بلغتهم وهذا شرف لهم، ﴿فيه ذكركم﴾ أي فيه موعظة لكم إذ جعل الله النبي محمداً ﷺ شهيداً عليكم، لتكونوا شهداء على الناس، وذلك في تبليغ الدعوة.

أفلا تفهمون ما فضلتم به على غيركم، ومن كان هذا شأنه جدير به أن يتدبر ويفهم ثم يعمل.

ثم أوعدهم وحذّرهم ما جرى على الأمم المكذّبة فقال:

١١ - ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾.

معنى قصمنا: أهلكنا، وأصل القصم، الكسر، والمراد بالقرية أهلها الكافرون الأوائل قبل بعثة النبي

١٢ - ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾.

أي فلما أدركوا بحواسهم عذابنا، إذا هم من القرية يهربون سراعاً هرب المنهزم من عدوه، حيث يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً لا تهربوا.

١٣ - ﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾.

أي لا يفيدكم الركض والندم، وارجعوا إن استطعتم إلى نعمكم ومساكنكم لعلّكم تسألون شيئاً من دنياكم، وهذا قول الحق، وهيهات لهذا الأمان الذي يطلبونه، وقد فات الوقت وحلّ العقاب بهم، وذهب عنهم عزهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسّرهم ولهذا قالوا:

١٤ - ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

أي ظالمين لأنفسنا حيث كذبنا رسل ربنا، والمعنى: أنهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب.

١٥ - ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾.

أي لم يزالوا يدعون على أنفسهم بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسهم، حتى جعلهم الله محصودين بالعذاب، خامدين ميتين، كخمود النار إذا أطفئت، والمعنى: استأصلناهم بالعذاب.

لما بين إهلاك كثير من القرى لأجل ظلمهم وتكذيبهم أتبعه ما يدلّ على أنّه فعل ذلك عدلاً ومجازاة لا عبثاً ولا مجازفة فقال:

١٦ - ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾.

أي لم نخلق السماء والأرض وما بينهما من أجرام أخرى عبثاً ولا باطلاً من غير فائدة، بل خلقها الله بالحق وليبلوهم بالاختبار أيهم أحسن عملاً، والله سبحانه وتعالى ما يريد منهم من رزق، ولكن ليعبدوه ويشكروه.

١٧ - ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾.

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية أنّ الكفار قالوا عليه، أنه اتخذ ولداً وبعضهم قال زوجة، واللهو ما يتلهى به من زوجة وولد، وقيل اللهو الذي هو داعي الهوى ونازع الشهوة، والمعنى: لو اتخذنا نساءً أو ولداً للعب

لاتخذناه من أهل السماء ولم نتخذه من أهل الأرض، ولم نطلعكم عليه، وذلك على سبيل الفرض والتقدير، ومعنى ﴿إن كنّا فاعلين﴾ أي لو أردنا ذلك لفعلناه، وهو في مقدورنا لكنّا لم نفعله فلم نرده.

ثم أضرب عن اتخاذ اللهو واللعب فوصف نفسه بما يضادّ فعل العبث قائلاً:

١٨ ـ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾.

أي أن ما قالوا كذب وباطل، ودعه عنك، فإن الله سبحانه وتعالى ينزل من العلم والبيان ما يدمغه أي يقهره، وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ، وهي ضربة قاتلة، وأراد بالحق الحجة وبالباطل كذبهم، ومعنى زاهق: زائل، ذاهب، ثم قال ويلكم أيها الواصفون الله بما لا يليق به من اتخاذ الولد والصاحبة ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك الذي تدركون به الويل والندامة والخسران.

ثم بين كمال قدرته ونهاية حلمه وحكمته فقال:

١٩ ـ ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾.

يخبر سبحانه أن له ملك السماوات والأرض، ومن يسكن فيهما من خلق والكل عبيده، ومماليكه، فكيف يتخذ منها ولداً تعالى الله المالك الذي خضعت له الرقاب، وذلّت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون الذين يفعلون ما يؤمرون لا يملّون ولا يسأمون.

ثم أكّد ذلك بقوله:

٢٠ ـ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾.

أي هم مواظبون على التسبيح دائماً، لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون.

مناقشة المشركين في عقائدهم

٢١ ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾.

لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دونه آلهة من الأرض سواء أكانت من ذهب أو من فضة أو من خشب أو حجارة ﴿هم﴾ يعني الآلهة ﴿ينشرون﴾ أي: يحيون الموتى، وهذا استفهام بمعنى الجحد، والمعنى: ما اتخذوا آلهة تنشر ميتاً أي تحييه.

ولما قدّم الإنكار شرع في دليل التوحيد فقال:

٢٢ ـ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

لو كان في السموات والأرض آلهة معبودون بحق غير الله لفسدتا، أي لبطلتا ووجه الفساد أن ذلك يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف، فيقع عند ذلك التنازع، والاختلاف، ويحدث بسببه الفساد.

ثم أكّد تفرده بالألوهية بقوله:

٢٣ ـ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾.

لقوة سلطانه وعظيم جلاله، لا يسأله أحد من خلقه عن أيِّ شيء من قضائه وقدره.

ولكن العباد يسألون عما يفعلون، من اختيارهم للخير أو الشر في الدائرة التي يسيطرون عليها، ولهم فيها إرادة.

٢٤ ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

ولما أبطل عز وجل أن يكون إله سواه من حيث العقل بقوله ﴿لفسدتا﴾، أبطل ذلك من حيث الأمر فقال أم اتخذوا، وهذا استفهام إنكار وتوبيخ، وطلب منهم إثبات دعواهم، لمعبوداتهم أنّها آلهة ولا سبيل لهم إلى شيء من ذلك، لا من عقل ولا من نقل، لأن دليل العقل قد مرّ بيانه، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ هذا القرآن، وهذه الكتب التي أنزلت قبله، فانظروا هل في واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه؟ لكنهم جاهلون للحق، لا يميزون بينه وبين الباطل، فهم معرضون عن التفكير والتأمل، وما يجب عليهم.

ثم قرّر آي التوحيد.

٢٥ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

القــراءة

﴿نوحي﴾ بالنون هذه قراءة حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وقرأ نافع والباقون ﴿يوحي﴾ بالياء.

ثم ردّ خزاعة وأمثالهم القائلين بأن الملائكة بنات الله بقوله:

٢٦ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾.

القائلون هم الكفار سواء أكانوا خزاعة، أم قريش، أو اليهود، والمراد بالولد: الملائكة، وكذلك المراد بقوله ﴿بل عباد مكرمون﴾ والمعنى: بل عباد أكرمهم الله واصطفاهم.

٢٧ ـ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾.

لا يقولون شيئاً حتى يقوله، أو يأمرهم به.

٢٨ ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾.

يعلم ما عملوا، وما سوف يعملون، ولا يشفعون يوم القيامة، إلا لمن رضي الله عنه وأذن في شفاعته،

الخشية: الخوف مع التعظيم، والإشفاق: الخوف مع التوقع والحذر، أي أن الملائكة لمعرفتهم بالله تعالى يخشونه حق خشيته ولا يزالون منه خائفين.

ثم نبّه على غاية عظمته ونهاية جبروته بقوله:

٢٩ ـ ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي من يقل من الملائكة إنّي إله من دون الله، فذلك القائل على سبيل الفرض والتقدير نجزيه جهنم.

الأدلة الكونية على وجود الله

ثم عدل في أدلة التوحيد إلى منهج آخر من البيان وهو الاستدلال بالآفاق والأنفس قائلاً:

٣٠ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي أو لم ينظر هؤلاء الكفار الذين جحدوا عبادة ربهم، والإخلاص له، فيعتبروا من آياته الكونية، فالسموات والأرض كانتا في البداية ملتصقتين داخل السديم الذي يحتويهما، تقول رتقت الشيء فارتتق، أي التأم، ومنه امرأة رتقاء، والفتقاء ضدها، ولكون ما بين السماء والأرض مسدوداً، فلا هذه تمطر ولا هذه تنبت، إذ لا نبات إلاّ بالمطر ولا مطر بالسد والالتصاق ﴿ففتقناهما﴾ أي فصلناهما عن بعض، فنزل المطر وأنبتت الأرض. لقد أثبت العلم أن الشمس والكواكب والأرض كلها كانت قطعة واحدة، ثم انفصلت بكثرة الدوران، ونتيجة لانفجارات شديدة حدثت داخل السديم، وبقدرة الحكيم الخبير، صارت إلى ما نرى بفعل الجاذبية، والنظام الذي خلقه الله في الكون، وهذه هي نظرية السديم التي يقول بها العلماء اليوم، وقد سبقهم بها القرآن وأخبر بها، وتكلم بها المفسرون والعلماء المسلمون منذ زمن طويل ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ أي أحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء حي، فيشمل الحيوان والنبات، ويقرر العلم أن الماء يدخل في بناء أي جسم حي إذ هو قوام حياته، وهو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية، والخلية: هي وحدة البناء في كل شيء حي نباتاً كان أم حيواناً، وقد أثبت علم الكيمياء أن الماء عنصر لازم لكل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الأجسام، ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي أفلا يؤمن أولئك الكفار بالله الذي فتق الأرض عن السماء وأنزل المطر من السماء على الأرض لتحيا به، أفلا يؤمنون بهذه الآيات الكونية الربانية.

القـــراءة

قرأ ابن كثير: ﴿أو لم ير الذين كفروا﴾ بغير واو، وقرأ الباقون بالواو.

ثم بيّن سبحانه كمال قدرته وشمول نعمته بأن قال:

٣١ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

أي جبالاً ثوابت لكي لا تتحرك بهم فتميل، وجعل في الجبال التي هي الرواسي فجاجاً، مسالك جمع فج، وهو كل منخرق بين جبلين وهي الطرق بلغة كندة، والسبل، الطرق النافذة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار، وهو تفسير للفجاج، وبيان أن تلك الفجاج نافذة واسعة.

٣٢ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

لما بين سبحانه في الآية السابقة، أنّ الأرض لا تستقر إلا بالجبال التي أرساها بها، وجعلها أوتاداً لها، بيّن في هذه الآية أن السماء التي هي عبارة عن الكرة الكونية الجامعة، لكل الأفلاك والنجوم في مجراتنا، أي في حدود عالمنا المادي، وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب، تجري في مسالكها، وتتحرك في مداراتها، وقد بناه الله ورفعه، يتبين للناظر أنها سقف قد علا وارتفع فوق الرأس، وهذه الأجرام التي تمثل السماء قد حفظها الله سبحانه من السقوط بقدرته متماسكة فيما بينها، ولا خلل يعتورها، محفوظة من أن تقع على الأرض، والتي تبدأ بالغلاف الهوائي، الذي يحمي أهل الأرض من كثير من أهوال الفضاء، والتي لا تستقيم معها الحياة بأيّ حال، وكذلك جعل السقف محفوظاً بالنجوم من الشياطين وغيرهم، بالنسبة لأهل الأرض، فكل كوكب فوقه سماء بها نجوم، وكل نجوم لها وظائف، حسبما يسيرها الله الذي خلقها، لكن الكفار عن آيات الله ودلائل ربوبيته معرضون.

٣٣ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

أي خلق الليل والنهار بفضل دوران الأرض حول نفسها، وخلق الشمس لتكون سراجاً للنهار حين تواجهها الأرض، وخلق القمر ليعكس الضوء على الوجه الآخر من الأرض بالليل، وكل من هذه الأجرام السماوية يدور في فلك له، وجميعهم يسبحون في الفضاء كالسابح في الماء، قال ابن قتيبة: الفلك: مدار النجوم الذي يضمها، وسماه فلكاً لاستدارته، ومنه قيل: فلكة المغزل.

وحين فرغ من بيان طرف من هيئة الأجرام السماوية ومنافعها الدنيوية نبّه بقوله:

٣٤ ـ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾.

أي ما خلدنا قبلك أحداً من بني آدم، والخلد، البقاء الدائم في الدنيا، ثم يرد الله سبحانه وتعالى عليهم في قولهم في سورة الطور ﴿نتربص به ريب المنون﴾ وهو استفهام إنكاري لتمني الكفار موت النبي ﷺ.

القضاء والقدر في الدائرة التي تسيطر على الإنسان

٣٥ ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

في الآيات السابقة كان الكفار يمنّون أنفسهم بموت النبي محمد ﷺ، وقد نفى الله عنه الشماتة بالآية السابقة حيث قضى قضاءه العادل، بأنه لا يخلد في الدنيا أحد فلا أنت ولا هم بباقين فيها، واستنكر عليهم

ذلك، ثم بين في هذه الآية أن كل شيء هالك إلّا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.

وفي هذه الآية يبين الله كذلك حكماً من أحكام العقيدة، والإيمان بقضاء الله وقدره والصبر عليه، فما ينزل على الناس ويحلّ عليهم من الابتلاء من خير أو شر، هو فتنة أي اختبار وامتحان من الله ليقوى إيمان الإنسان بربه ويصبر على قضائه فيفوز بمرضاته، أو يجزع فيكون من الخاسرين، والمعنى: نختبركم بما تحبون لننظر كيف شكركم، وبما تكرهون، لننظر كيف صبركم، والخير والشر إذا أتى على الإنسان أو إليه، بغير كسب أو إرادة منه كما لو مات عزيز له فهو شرٌ له، أو عمّ بلده الرخاء، ونزل المطر واعتدل الجو، فذلك خير له، وهو ما لا كسب له، ولا اختيار له فيه، وقد وقع في الدائرة التي تسيطر عليه، فعليه أن يؤمن بأن ذلك من الله امتحانٌ واختبار وليس له إلّا الصبر والشكر، والله المالك فهو فعال لما يريد.

القـــراءة

﴿ترجعون﴾ قرأ ابن عامر ﴿تَرجعون﴾ بتاء مفتوحة.

ثم خاطب نبيّه ﷺ وقال:

٣٦ ـ ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

ما زالت الآيات تبين مواقف المشركين مع النبي ﷺ، ففي هذه الآية يبين الله تعالى أن المشركين يستهزؤون بالنبي، فإذا مرّوا به ضحكوا، و﴿إن﴾ بمعنى ما، أي ما يتخذونك إلّا سخرية لأنك تذم آلهتهم، وتعيب أصنامهم، وتذكر الرحمن، وذلك أنّهم قالوا ما نعرف الرحمن.

٣٧ ـ ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾.

استعجل الكفار طلب عذاب الله، وآياته الملجئة إلى الإيمان استهزاءاً، حيث كانوا يقولون ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[1] سورة الأنفال، والمعنى: أن جنس الإنسان الذي خلقت فيه غريزة العجل، والمقصود هنا الكفار، كما أن التأني من غرائزه أيضاً، ولكنّه لما كثر فيه التعجل، وغلب عليه في كل شيء باختياره حتى ولو كان في ذلك حتف أنفه واستئصاله، كما يخبر بذلك القرآن في سورة الإسراء ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾[2] قال الزجاج: خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر منه اللعب، إنما خلقت من لعب، يريدون المبالغة.

وحيث أن الله سبحانه قد أخّر عذاب الاستئصال عن أمة محمد ﷺ بفضل دعوته، إلى يوم القيامة، ردّ عليهم لا تستعجلوا العذاب فإنّكم سترون آيات الله وآثاره بما أصاب الأقوام السابقة، والمعنى: أنكم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٧.

تسافرون فترون آثار الهلاك في الماضين، وسترون آيات الله كذلك بالجهاد يوم بدر وغيرها، ﴿وسأوريكم آياتي﴾ الدالّة على القدرة وعلى صدق رسالة محمد ﷺ، في نصرة الدين وإتمام نور الله ولو كره الكافرون، وآيات الله قد تكون كونية، وقد تكون معنوية.

٣٨ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

توجه الكفار للمؤمنين بالسؤال وهو إنكاري، أي إن كنتم صادقين في قولكم ووعدكم الذي تتلونه في القرآن؟

٣٩ ـ ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

والمعنى: لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: ﴿متى هذا الوعد؟﴾ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام، فلا يقدرون على منعها ودفعها عن أنفسهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ويعلم هنا: بمعنى يعرف، تتعدى إلى مفعول واحد هو قوله: ﴿حين﴾ أي لا يعرفون حين وقوع العذاب بهم وما فيه من الأهوال لما استخفوا به واستعجلوه.

ثم بيّن أن وقت مجيء العذاب غير معلوم لهم، فإنّ مجيء الساعة مخفي عن المكلفين ليكونوا أقرب إلى تلافي الذنوب فقال:

٤٠ ـ ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

إنّ وعد الله وساعته المحددة ليوم القيامة، تأتي بغتة أي فجأة، فتحيّرهم، ولا يستطيعون ردّها، أو صرفها عنهم، ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة، ثم عزى نبيه فقال:

٤١ ـ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿حاق﴾ أي نزل والمعنى: إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعلت الأمم ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم، وخطر شأنهم، فنزل بالكفار الذين سخروا جزاء استهزائهم، فلم يجدوا مهرباً.

لا رادّ لقضاء الله

ولما بيّن أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار ذكر أنّهم في الدنيا أيضاً مفتقرون إلى حراسة الله وكلاءته فقال:

٤٢ ـ ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب استهزاء، من يحفظكم، ويحرسكم بالليل

في حال نومكم، وبالنهار في حال تصرفكم في أموركم، والكلاءة، بالكسر: الحفظ والحراسة، يقال: اذهب في كلاءة الله أي في حفظه، واكتلأت منهم: احترست، وقوله ﴿من الرحمن﴾ من عذابه وبأسه، والاستفهام في الآية للإنكار والتقرير والتعبير بالرحمن في الآية فيه إشارة إلى إعطاء الفرصة بالإمهال للتوبة، ثم الرحمة من الله.

٤٣ ـ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

أم هنا المنقطعة، بمعنى بل فقد اشتملت على معنى الإضراب والإنكار، والمعنى: ألهم آلهة غير الله تجعلهم في منعة وعز، حتى لا ينالهم عذابنا، ثم بيّن أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسها، فكيف تنفع غيرها، ﴿ولا هم منا يصحبون﴾ أي يجارون، أي ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا، لأن الله يجير ولا يجار عليه، والعرب تقول: أنا جار لك وصاحب من فلان، أي مجير لك منه.

ولما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلاً إلى بيان أن ما هم فيه من الحفظ والكلاءة والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله لا من مانع يمنعهم من الإهلاك ولا من ناصر يعينهم على أسباب التمتع سوى الله فقال:

٤٤ ـ ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

والمعنى تركنا هؤلاء الكفار المستهزئين دون أخذهم بالعذاب وأمهلناهم طيلة عمرهم فاغتروا، وما دروا أن الله سبحانه يمهل ولا يهمل.

﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾

نقص الأرض من أطرافها

وردت في القرآن الكريم آيتان تتحدثان عن نقص الأرض، الأولى في سورة الرعد قوله تعالى ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾ (٤١) والثانية هذه الآية. وكلمة الأرض في القرآن الكريم وردت بعدة معان: منها الأرض الكروية بمجموعها، ووردت بمعنى الجزء منها وهي البلد والمدن والأرياف والصحارىٰ، والجبال والوديان، وأطراف الأرض: هي الأماكن البعيدة عن مركزها أو عن وسطها، وأطراف كل بلد: هي الأماكن النائية فيه عن المدن الرئيسية، وهي القرى والأرياف والصحارىٰ والوديان والحدود، وغالباً ما تكون هذه الأماكن هي الغنية بالمعادن والمواد الأولية، والزراعة والثروة الحيوانية، بل قل إنّها مصدر رزق المدن الكبيرة وعواصم العالم.

والنقص هو، البخس وعدم الكفاية وبخاصة إذا كان النقص في الرزق اللازم للعيش فإنّه يولّد الخوف والجزع، والتهالك والنزوح من مكان إلى مكان آخر، طلباً لأحسن منه، وقد بيّن القرآن الكريم أن النقص

يكون في الأموال والأنفس والثمرات[١] وهي تعني المعادن الخام والزراعة، والزراعة تشمل كل ما له ثمر يقتات عليه البشر، وهذا يعني أنّه عندما تقل الموارد الطبيعية كنضوب البترول ـ وقد حصل في بعض البلدان بعد أن كانت مصدرة صارت مستوردة ـ جفاف الأنهار ـ وقد حصل أن جفّت العديد من أنهار العالم وبحيراته، وجداوله، وانحباس المطر، وهو ما يسمى بسنين الجفاف وقد حصل ذلك في العديد من بلدان العالم، ومنها دول أفريقية، ومن نتيجة ذلك أن تدافع الكثير من سكان الأرياف والقرى إلى العواصم والمدن الرئيسية، تاركين أرضهم ومسقط رأسهم، طلباً للقمة العيش والرزق، بل إنّ الكثير منهم هاجر إلى بلدان أخرى، فكان من نتيجة ذلك أن زاد عدد السكان في العواصم، وقلّ في الأرياف والقرى أو نقص، وقد دلت الإحصاءات العالمية الأخيرة، على تأكيد ذلك بالأرقام، وهذا هو نقص أطراف الأرض في الآيتين، والتعبير بنقص أطراف الأرض، المراد منه أهل الأرض الساكنين في أطرافها، وهو مثل قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ إذ المراد أهل القرية، وهو استعارة مكنية عند أهل البلاغة.

والخلاصة في ذلك أن النقص ليس في الأرض ولا في أطرافها، وإنما هو نقص في مواردها الطبيعية جعل السكان يتنقلون من مناطقهم وأماكن تجمعهم، زاحفين إلى المدن والعواصم التي ضاقت وازدحمت بمن فيها، ولذلك قال الله عز وجل: من أطرافها، وفي ذلك بداية الأزمات في العالم، أعاذنا الله منها.

ثم بيّن أن هذه الإنذارات ليست من قبل الرسول ﷺ ولكنّها بالوحي فقال:

٤٥ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾.

أي أخوفكم بالقرآن، والمعنى: ما جئت به من تلقاء نفسي، والصّم، الذين لا سمع لهم، شبه الله سبحانه وتعالى الكفار بالصم الذين لا يسمعون نداء مناديهم، وكأن الصّمم خلقة فيهم، ووجه الشّبه أن هؤلاء لم ينتفعوا بما سمعوا كالصم لا يفيدهم صوت مناديهم، مثل البهائم لا يفهمون ما يقال لهم لعدم سمعهم.

القـــراءة

﴿ولا يسمع﴾ قرأ ابن عامر: ﴿ولا تسمع﴾ بالتاء مضمومة، ﴿الصمّ﴾ نصب.

ثم ذكر أنّهم لا يعترفون بالتقصير والظلم إلاّ عند معاينة العذاب فقال:

٤٦ ـ ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

النفحة: أدنى شيء من العذاب، مما يصيب الإنسان من الدائرة التي تسيطر عليه.

---

(١) قال الله تعالى في سورة البقرة، الآية: (١٥٥) ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾.

عدل الخالق

٤٧ ـ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾.

والمعنى: نضع الموازين ذوات العدل، فلا يظلم إنسان بنقص حسناته أو بزيادة سيئاته، حتى لو كان النقص والزيادة يعادل حبة خردل، وهي شرى شعيرة، والمعنى: أن شيئاً من الأعمال صغيراً أو كبيراً غيرُ ضائع من علم الله، وإنه يجازى عليه.

القـــراءة

﴿وإن كان مثقال﴾ قرأ نافع: ﴿وإن كان مثقال﴾ بالرفع.

وذكر موسى وهارون عليهما السلام

وحين فرغ من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء تسلية لنبيه وتثبيتاً وعظة لأمته فقال:

٤٨ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

الفرقان: صفة لكتب الله التي تفرق بين الحلال والحرام، والحق والباطل كما هو صفة للقرآن.

٤٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾.

مشفقون أي خائفون.

ثم عظم شأن القرآن بقوله:

٥٠ ـ ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

الإشارة للقرآن، والاستفهام للتوبيخ.

قصة إبراهيم عليه السلام

٥١ ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾.

أي آتيناه هذه من قبل موسى وهارون، وقد علمنا أنه موضع لإيتاء الرشد، ثم بين متى أتاه فقال:

٥٢ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾.

٥٣ ـ ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾.

ثم زيّف طريقتهم بالتنبيه على خطئهم وخطأ أسلافهم فقال:

٥٤ ـ ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

ثم إنّ القوم تعجبوا من تضليلهم مع كثرتهم ووحدته ومنعهم عما ألفوه فقالوا:

٥٥ ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾.

يعنون: أجادّ أنت أم لاعب.

٥٦ ـ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

فطرهن: خلقهن على غير مثال سابق.

ثم أخبر أنّه سيجاهدهم جهاداً بالفعل من غير تقية وخوف فقال:

٥٧ ـ ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾.

الكيد: احتيال الكائد في ضرّ المكيد، وكان لهم عيد في كل سنة يخرجون إليه، لا يخلفون بالمدينة أحداً فقالوا لإبراهيم، لو خرجت معنا إلى عيدنا، أعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان بعض الطريق، قال إنّي سقيم، قال: ﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم﴾ فرجع إلى الأصنام فكسرها، ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير، فذلك قوله.

٥٨ ـ ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾.

الجذاذ: معناه الفتات، ليروا ما فعل بغيره.

القــــراءة

﴿جذاذاً﴾ قرأ الكسائي من القراء السبعة، والأعمش من غير العشرة، بكسر الجيم، وقرأ الأكثرون بالضم.

٥٩ ـ ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قالوا ذلك بعد رجوعهم من عيدهم، ومعاينتهم لأصنامهم.

٦٠ ـ ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾.

قال بعضهم لبعض سمعنا فتى يذكرهم أي الأصنام، بمعنى يعيبهم.

٦١ ـ ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾.

لعلّهم يشهدون: عقابه وما يصنع به.

٦٢ ـ ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾.

٦٣ ـ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾.

﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ غضب أن تعبد معه الصغار فكسرها، ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ من فعله بهم، وهذا إلزام للحجة عليهم، بأنهم جماد لا يقدرون على النطق ولا ردّ الضر عنهم.

٦٤ ـ ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

بعد التفكير قالوا لبعض كيف تعبدون من لا ينطق.

٦٥ ـ ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾.

٦٥ ـ ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ ردوا إلى كفرهم، وانقلبوا إلى إبراهيم يحتجون عليه، بعد أن أقروا له ولاموا أنفسهم في تهمته، فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾.

وفي هذا إقرار منهم بعجز ما يعبدونه عن النطق فقال موبخاً لهم:

٦٦ ـ ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

لا يرزقكم ولا يعطيكم.

٦٧ ـ ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أف معناه: النتن لكم.

٦٨ ـ ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

فألقوه في نار كبيرة.

٦٩ ـ ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

٧٠ ـ ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾.

في مرادهم حيث أخذهم عذاب الاستئصال.

٧١ ـ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وهي الشام حيث نزل إبراهيم بفلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وبينهما يوم، وبركتها أن الله عز وجل بعث أكثر الأنبياء منها.

٧٢ ـ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾.

﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ النافلة العطية أي زيادة على المسؤول فإسحاق ابنه ويعقوب ولد ابنه ﴿وكلاً جعلنا صالحين﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وصالحين معناه أنبياء هنا.

٧٣ ـ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾.

﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ أي رؤساء يقتدى بهم في الخير، يدعون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بذلك ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾.

لوط

٧٤ ـ ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾.

﴿ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾ انتصب لوط بفعل مضمر، فالمعنى وأوحينا إليهم وآتيناه لوطاً، وذكر بعض النحويين أنّ الفعل المضمر هو اذكر لوطاً.

التفسير: لما هاجر لوط مع إبراهيم نزل إبراهيم أرض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم من إبراهيم فبعثه الله نبياً، فأما الحكم فمعناه الفهم والعقل والنبوة، وأما القرية: فهي سدوم على ما فصلناه في هود وسورة الحجر. ﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾.

٧٥ ـ ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ بإنجائه من بينهم ﴿إنّه من الصالحين﴾.

نوح

٧٦ ـ ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿ونوحاً إذ نادى من قبل﴾ المذكورين إبراهيم ولوط ﴿فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ من الغرق وتكذيب قومه.

ثم زاده بياناً بقوله:

٧٧ ـ ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

حكم داود وسليمان

٧٨ ـ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾.

﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث﴾ الزرع ويدخل فيه الكروم ﴿إذ نفشت فيه غنم القوم﴾ أي رعته ليلاً بلا راع بأن انفلتت، والنفش أن تنتشر الغنم بالليل ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ أنّه لم يغب عنا من أمرهم شيء.

٧٩ ـ ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

﴿ففهّمناها سليمان﴾ يعني القضية والحكومة وحكمهما ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾.

التفسير: ذكر أهل التفسير أن رجلين كانا على عهد داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم فتفلتت الغنم فوقعت في الزرع فلم تبق منه شيئاً، فاختصما إلى داود، فكان حكمه فيما سمعه من الخصمين على ما سمعه وفهمه فحكم بأن لصاحب الحرث رقاب الغنم، أما سليمان فما فهمه من واقعة القضية على خلاف ما فهم والده، لقوله تعالى: ففهمناها سليمان أي فهمناه أصل الواقعة ومتى فهم واقعة القضية سهل عليه الحكم، فحكم سليمان حيث قال ينطلق أصحاب الحرث بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها، ويقبل أصحاب الغنم على الحرث حتى إذا عاد إلى ما كان عليه قبل أن تدوسه الغنم، دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء زرعهم فقال داود قد أصبت القضاء ثم حكم بذلك فذلك قوله تعالى: ﴿وكنّا لحكمهم شاهدين﴾ والاختلاف واقع في فهم واقعة القضية لترتّب الحكم على الأسباب والوقائع وذكر ما يختص بكل منهما فبدأ بداود قائلاً: ﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ بالطريقة التي يفهمها داود لا كل الناس ﴿وكنا فاعلين﴾.

٨٠ ـ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾.

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ وهما الدروع لأنها تلبس، وهو أول من لبسها ﴿لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾

القـــراءة

﴿لتحصنكم﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة والكسائي بالياء ﴿ليحصنكم﴾.

ثم ذكر ما أنعم به على سليمان فقال:

٨١ ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ أي المكان الذي فيه الخير له ﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾.

٨٢ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَـٰفِظِينَ ﴾ .

﴿ومن الشياطين من يغوصون له﴾ في البحر لما يطلب منهم ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ في الأرض من البناء والهدم والردم وغيره ﴿وكنا لهم حافظين﴾ في عملهم.

أيوب

٨٣ ـ ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر﴾ دعا ربه لما ابتلي بفقد جميع ماله وولده وما أصيب به من مرض وألم في جسده، وهَجَره جميع الناس إلا زوجته سنين عديدة، وضاق عَيْشه، والضر هو الشدة ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾.

٨٤ ـ ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَـٰبِدِينَ ﴾ .

﴿فاستجبنا له﴾ نداءه ﴿فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله﴾ يعني أولاده ﴿ومثلهم معهم﴾ أي رزقه الله بأعداد كبيرة من الولد ضعف ما كان قد أخذ منه، ثم بيّن الحكمة في ذلك الابتلاء ﴿ورحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾.

أنبياء آخرون عرفوا بالصبر

٨٥ ـ ﴿ وَإِسۡمَـٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ .

﴿وإسماعيل﴾ حين ذكر أيوب وجِدّه وانقطاعه إليه، ذكر غيره من الأنبياء المشهورين بالصبر، منهم إسماعيل عليه السلام صبر على الانقياد للذبح، وعلى الإقامة بواد لا زرع ولا ضرع فيه، وصبر على بناء البيت ورفع قواعده، فلا جرم أن أخرج الله ببركة ذلك من صلبه خاتم الأنبياء، ﴿وإدريس﴾ وقد مر ذكره في سورة مريم، صبر على قومه داعياً لهم فأبوا فأهلكهم الله ﴿وذا الكفل﴾ قال ابن كثير: فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، عاش في بني إسرائيل ﴿كل من الصابرين﴾ على طاعة الله وعلى ما ابتلوا به من قومهم.

٨٦ ـ ﴿ وَأَدۡخَلۡنَـٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ .

يونس بن متىٰ

٨٧ ـ ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿وذا النون﴾ أي اذكر صاحب الحوت ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ لقومه أي غضبان عليهم مما قاسى منهم، ولم يؤذن له في ذلك، ﴿فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات﴾ ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿أن لا إلٰه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ في ذهابي من بين قومي بلا إذن وركوب السفينة لزيادة العدد فيها، والقصة مفسرة في سورة يونس.

٨٨ ـ ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ بالدعاء ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾.

القـــراءة

﴿ننجي المؤمنين﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿وكذلك نجي المؤمنين﴾ بنون واحدة والجيم مشددة.

زكريا

٨٩ ـ ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾. الباقي بعد الفناء.

٩٠ ـ ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾.

﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيىٰ وأصلحنا له زوجه﴾ فأتت بالولد بعد عقمها ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً﴾ فيما عندنا ﴿ورهباً﴾ منا ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾.

مريم

٩١ ـ ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي أمرنا جبريل فنفخ في درعها الروح فأجرينا فيها روح عيسى كما تجري الريح بالنفخ، وإضافة الروح إليه إضافة الملك للتشريف.

الأمة الواحدة

ولما فرغ من قصص الأنبياء أراد أن يذكر ما استقر عليه أمر الشرائع في آخر الزمان فقال:

٩٢ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

وفي سورة المؤمنون ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[1] والآيتان تشيران إلى ملة الإسلام أي سيرتكم وطريقتكم التي يجب أن تكونوا عليها حال كونها طريقة واحدة غير مختلفة والخطاب للناس كافة.

٩٣ ـ ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾. أي اختلفوا في الدين.

٩٤ ـ ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾.

أي لا نجحد ما عمل، قال ابن قتيبة والمعنى: إنّه يقبل منه، ويثاب عليه.

٩٥ ـ ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾. حتم من الله إهلاك أهل قرية من القرى المعذبة بالاستئصال ممن لم يرجع أهلها عما هم فيه من الكفر والعصيان.

القـــراءة

﴿وحرام﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿وحرم على قرية﴾ بغير ألف.

يأجوج ومأجوج

٩٦ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴾.

﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ القبيلتان المعروفتان بشرق آسيا التتر والمغول، والمقصود فتح السّد الذي بناه ذو القرنين، كما مرّ في سورة الكهف ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾ أي من كل حدب مرتفع من الأرض ينحدرون مسرعين، وينسلون من النسلان، وهو مقاربة الخطر من الإسراع وقال الزجاج الحدب: كل أكمة، وينسلون يسرعون.

وعبور يأجوج ومأجوج السد متحقق بوعد الله سبحانه كما في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً﴾.

القـــراءة

﴿فتحت﴾ قرأ ابن عامر: ﴿فتّحت﴾ بالتشديد.

٩٧ ـ ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

﴿واقترب الوعد الحق﴾ يوم القيامة ﴿فإذا هي﴾ أي الحال والأمر ﴿شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ يقولون

﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا﴾ اليوم ﴿بل كنا ظالمين﴾ ثم خاطب أهل مكة فقال:

٩٨ ـ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾.

﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ من الأوثان ﴿حصب جهنم﴾ أي وقودها ﴿أنتم لها واردون﴾.

٩٩ ـ ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿لو كان هؤلاء﴾ الذين تعبدونهم وتدعونهم من دون الله ﴿آلهة ما وردوها﴾ أي النار ولما دخلوها، فالمعنى: لو كانت الأصنام آلهة منعت عابديها دخول النار.

١٠٠ ـ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾. شيئاً، لشدة غليانها.

١٠١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾.

﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ السعادة في الدنيا والجنة في الآخرة ﴿أولئك عنها مبعدون﴾.

ثم بين أنهم مع البعد عن المنافي منتفعون بالقرب من الملائم، ملتذون على سبيل التأبيد فقال:

١٠٢ ـ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿لا يسمعون حسيسها﴾ صوتها ﴿وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ من النعيم.

١٠٣ ـ ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ يوم الحساب ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾ عند خروجهم من القبور يقولون لهم ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ في الدنيا.

١٠٤ ـ ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾.

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ صحيفة ابن آدم عند موته، والكتاب بمعنى المكتوب ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾.

القــــراءة

﴿للكتب﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿كطي السجل للكتب﴾ بضم الكاف والتاء، وقرأ الباقون ﴿للكتاب﴾.

١٠٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾.

﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ زبور داود ﴿من بعد الذكر﴾ أي من بعد التوراة ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ عام في كل أرض وكل مصلح لها.

القـــراءة

قرأ حمزة ﴿ولقد كتبنا في الزُّبور﴾ بضم الزاي.

١٠٦ ـ ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾.

﴿إن في هذا﴾ يعني القرآن ﴿لبلاغاً لقوم عابدين﴾ هم أمة محمد الذين يصلون الصلوات الخمس ويحجون ويصومون ويزكون ويشهدون أن لا إله إلّا الله.

١٠٧ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾. عام في البر والفاجر.

١٠٨ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. أيها الناس استفهام بمعنى الأمر.

١٠٩ ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾.

﴿فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء﴾ أعلمتكم بالوحي إلي لتستووا في الإيمان.

١١٠ ـ ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾.

١١١ ـ ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

﴿وإن أدري لعله فتنة لكم﴾ أي ما أعلمتكم به ولم يعلم وقته لعلّه اختبار لكم ﴿ومتاع إلى حين﴾ الموت.

١١٢ ـ ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾. من كذبكم على الله في قولكم.

القـــراءة

﴿قال رب﴾ قرأ حفص ﴿قال رب احكم﴾ هو إخبار الله جلّ وعزّ عن نبيه ﷺ، وقرأ الباقون ﴿قل﴾ على الأمر.



سورة الحج سميت لورود أحكام الحج فيها.

إنه انجر الكلام من خاتمة السورة المتقدمة إلى حديث الإعادة وما قبلها أو بعدها كوراثة المؤمنين الأرض وما معها، كطي السماء فلا جرم، فقد بدأ الله سبحانه في هذه السورة بذكر القيامة وأهوالها حثاً على التقوى التي هي خير زاد إلى المعاد فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ احذروا عقابه ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ الزلزلة الحركة القوية الهائلة والساعة يوم القيامة.

٢ ـ ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾.

﴿يوم ترونها تذهل﴾ أي يوم ترون الزلزلة من عظمها في الهول تذهل ﴿كل مرضعة عما أرضعت﴾ تشغلها عنه، ﴿وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى﴾ أي كأنّهم سكارى ﴿وما هم بسكارى﴾ من الشراب ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾.

القــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿وترى الناس سكرى وما هم بسكرى﴾

ثم أراد أن يحتج على منكري البعث فقدم لذلك مقدمة تشمل أهل الجدال كلّهم فقال:

٣ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾.

﴿ومن الناس من يجادل في الله﴾ في قدرة الله ووحدانيته وتكذيب آياته ﴿بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ متمرد، وهؤلاء المقلدون يجادلون تعصباً وتصويباً لتقليدهم لنصرة أوليائهم.

٤ ـ ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿كتب عليه أنه من تولّاه فأنه يضلّه﴾ الشيطان بأن اختار ما يسول له، فقد قضى بأنه يضله إذا اتبعه ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ أي يقوده بما يزيّن له إلى النار، ومعنى عذاب السعير أي العذاب الشديد، والتسعر الاضطرام، والتوقد الشديد.

البعث ومراحل خلق الإنسان

وحين نبّه عموماً على فساد طريقة المجادلين بغير علم خصص المقصود من ذلك فقال.

٥ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾.

﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب﴾ أي في شك ﴿من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ أي أصلكم آدم خلق من التراب ﴿ثم من نطفة﴾ المني ﴿ثم من علقة﴾ خلايا جامدة ﴿ثم من مضغة مخلقة﴾ والمضغة لحمة صغيرة، سميت بذلك لأنها بقدر ما يمضغ، كما يقال: غرفة بقدر ما يغرف، والمخلقة: المصورة تامة الخلقة ﴿وغير مخلقة﴾ غير تامة الخلقة، مما ألقته الأرحام من النطف ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ وقت خروجه ﴿ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم﴾ أي الكمال والقوة وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين سنة.

﴿ومنكم من يتوفّى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر﴾ أخسه من الهرم والخرف ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ ومن المأثور ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح» والمعنى: إن شككتم في بعثكم فتدبّروا أمر خلقكم وابتدائكم، فإنّكم لا تجدون في القدرة فرقاً بين الابتداء والإعادة.

ويرى العلم الحديث أن العلق ليس بدم جامد، وإنما هو مجموعة من الخلايا نشأت بطريق الانقسام عن البويضة التي تمثل الخلية الإنسانية الأولى، وأنّ الخلايا الدموية لا تتكون طلائعها إلّا حوالي اليوم الثامن عشر من حياة الجنين، ثم يأتي بعد ذلك دور المضغة التي تأخذ في التخلق والتشكل ويستمر هذا التطور حتى اليوم الستين من عمر الجنين، حيث تظهر الملامح الإنسانية مخلقة في جسم الجنين، وقد يحدث شذوذ في نمو الجنين كأن يغوص كيانه في غير المكان الطبيعي من جدار الرحم، فلا يتخلق ويموت، وهذه حالة السقط ورغم ما وصل إليه العلم في عصرنا من تقدم، لا يزال تخلق الأجنة أمراً محيراً للعلماء لا يدرون كيف تغيرت الخلية الإنسانية، وتحولت إلى الأعصاب والعظام والعضلات وأجهزة السمع والبصر وغيرها، إنّ هذا هو سر الله

الكامن في قدرته وإبداعه لأنّه على كل شيء قدير.

ثم أكد أمر البعث بالاستدلال من حال النبات أيضاً فقال: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ يابسة من الزرع ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ أي تحركت للنبات وذلك أنّها ترتفع عن النبات إذا ظهر، وربت أي ارتفعت وتمددت لتفسح المجال للبذرة تخرج من بطنها ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ من كل جنس حسن يبهج ويسر.

٦ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

أي ذلك المذكور من بدء خلق الإنسان إلى آخر إحياء الأرض، هو الحق الثابت الدائم أي الدليل الدال على وجود الله ووحدانيته وقدرته ﴿وأنه يحيي الموتى وأنّه على كل شيء قدير﴾.

الساعة

٧ ـ ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾.

الساعة هي يوم القيامة، الريب هو الشك، أي أن أمرها محقق الوقوع.

٨ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾.

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى﴾ معه من البيان والبرهان ﴿ولا كتاب منير﴾ ينير له الحجة والبيان، وهؤلاء هم الذين يضلّون ويجادلون ليبقوا الناس تقلد بدعهم وعقائدهم، وهم الشياطين المتمردون الذين عناهم الله في الآية الثالثة سواء من الإنس أو الجن.

٩ ـ ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

﴿ثاني عطفه﴾ العطف الجانب، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان ويلويه عند المشي، ﴿وثاني﴾ منصوب على الحال ﴿ليضلّ عن سبيل الله﴾ دينه ﴿له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ هذا العذاب هو عذاب نفسي والخزي أمر محسوس، والذوق طلب إدراك الطعم، والحريق الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك[1].

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ليضلّ عن سبيل الله﴾ بفتح الياء.

١٠ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ أي أن ما أصابك من الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة هو نتيجة ما اكتسبته

(١) الكشاف للزمخشري ج ٣ ص ٩ ط دار المعرفة (بيروت).

نفسك من الإثم لاختيارك الشر في الدائرة التي تسيطر عليها، وليس ذلك مما سلطه الله عليك بما ليس في مقدورك ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ فيعذبهم بغير ذنب كسبوه.

أهل النفاق لا يؤمنون بالقضاء والقدر

ثم أخبر الله سبحانه عن شقاق أهل النفاق بقوله:

١١ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ أي على شك في عبادته لا يثبت ولا يدوم، وذلك أن القائم على حرف الشيء أي طرفه غير متمكن منه، فشبّه به الشاك، لأنه قلق في دينه ﴿فإن أصابه خير اطمأن به﴾ أي إن قدر الله له خيراً في الدائرة التي تسيطر عليه، بأن رزقه الله ولداً وربح في تجارته، وكثر ماله، وصح بدنه، اطمأن به، اعترف لله وعبده، ﴿وإن أصابته فتنة﴾ اختبار من الله في الدائرة التي تسيطر عليه بجدب وقلة مال أو موت عزيز أو إصابة مرض ﴿انقلب على وجهه﴾ أي رجع إلى الكفر، وانصرف إلى وجهه الذي توجّه منه وهو الكفر، كأنّه لم يكن يؤمن بشيء من قبل، ﴿خسر الدنيا﴾ بما أصابه ﴿والآخرة﴾ بالعذاب ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾.

١٢ ـ ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾.

﴿يدعوا من دون الله ما لا يضره﴾ أي يدعو ذلك الكافر المذكور من دون الله، من الأوثان والأصنام ما لا يضره إن ترك عبادته، وكفر به، ﴿وما لا ينفعه﴾ إن عبده ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي البعيد عن الحق والصواب.

١٣ ـ ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾.

﴿يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه﴾ هنا يطرح السؤال نفسه، أن الضر والنفع منفيان عن ذلك المعبود من دون الله في قوله تعالى ﴿ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ مثبتان له في قوله ﴿يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه﴾ لأن صيغة التفضيل في قوله أقرب دلت على أن هناك نفعاً وضراً، ولكن الضر أقرب من النفع، نقول ولله الحمد: إن الآية الأولى في الذين يعبدون الأصنام، فالأصنام لا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها، ولذا قال فيها: ﴿ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام، هي التعبير بلفظة ﴿ما﴾ في قوله ﴿ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ لأن لفظة ﴿ما﴾ تأتي لما لا يعقل، والأصنام لا تعقل.

أما الآية الأخرى فهي فيمن عبد بعض الطغاة المعبودين من دون الله، كفرعون القائل ﴿ما علمت لكم من إله غيري لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين﴾ ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ فإن فرعون ونحوه من الطغاة المعبودين قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم: ولذا قال له القوم الذين كانوا سحرة ﴿أئن لنا لأجراً إن

كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾ فهذا النفع الدنيوي لا يعتبر شيئاً بالنسبة إلى ما سيلاقونه من العذاب والخلود في النار، فضر هذا المعبود بخلود عابده في النار أقرب من نفعه بعرض قليل زائل من حطام الدنيا، والقرينة على أن المعبود في هذه الآية الأخيرة، بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء: هي التعبير بمن التي تأتي لمن يعقل في قوله ﴿يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه﴾[١] ويؤيّد هذا المعنى قوله ﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾ المولى: الولي المناصر، والعشير هو المعاشر وهو الصاحب والخليل.

ثم لما بين حال المنافقين والمشركين أتبعها حال المؤمنين الذين معبودهم قادر على إيصال كل المنافع فقال:

١٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿إنّ الله يفعل ما يريد﴾ هذه صفة من صفات الله عز وجل، وهي صفة الإرادة.

١٥ ـ ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة﴾ أي من كان يظن أنّ الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإنّ الله ناصر نبيه لا محالة، قال الله تعالى في سورة غافر[٢] ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ الأشهاد جمع شهيد ويوم يقوم الأشهاد من الملائكة والنبيين وصالحي المؤمنين، أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا، وأما النبيون فالله يقول، ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾[٣] ويوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم فيه اللعنة ولهم سوء الدار، وفي الآية من التهكم على الكفار ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾ أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء، ﴿ثم ليقطع﴾ أي ليقطع النصر إن تهيأ له ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ وحيلته ما يغيظه من نصر النبي ﷺ، والفائدة في الكلام أنّه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة، بأن يفعل مثل هذا، لم يصل إلى قطع النصر، وتفسير الآية: من كان يظن من حاسدي محمد أن الله تعالى يفعل خلاف النصر والظفر، وكان يغيظه نصرة الله إياه فليستفرغ جهده في إزالة ما يغيظه، وليس ذلك إلا بأن يمد حبلاً إلى سماء بيته ثم يشدّه في عنقه وينتحر ويتخلص من هذا العذاب النفسي، وليصور في نفسه أنه إن يفعل ذلك هل يذهبن كيده ما يغيظ، سمى فعله كيداً حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده، وإنما كاد به نفسه.

---

(١) راجع التفصيل في أضواء البيان للشيخ الشنقيطي ج ٥ ص ٤٥ ـ ٤٧ ط عالم الكتب (بيروت).

(٢) الآية: ٥١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤١.

القــــراءة

قرأ أبو عمرو وورش عن نافع، وابن عامر ﴿ثم ليقطع﴾ بكسر اللام.

وحين بين الأحوال وضرب الأمثال أشار إلى هذا المذكور بلفظ البعيد فقال:

١٦ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾.

والهداية هي هداية المشيئة.

الصابئون

ثم أراد أن يميز بين المهدي من الفرق وبين الضال منهم فقال:

١٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين﴾ الذين هادوا هم اليهود، والصابئون: هم الخارجون من دين إلى دين وسبق تفسيره في سورة البقرة آية (٦٢) وفي سورة المائدة آية (٦٩) ﴿والنصارى والمجوس﴾ النصارى معروف أمرهم وأما المجوس فهم الذين عندهم الإله اثنان ونبيهم متنبىء ﴿والذين أشركوا﴾ لا نبي ولا كتاب لهم، يعترفون بالله ولكنّهم يعبدون معه غيره ﴿إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ أي يقضي بينهم بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار، ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ شهيد على أعمالهم في الدنيا.

١٨ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾.

﴿ألم تر﴾ ألم تتيقن وتشاهد أيها الإنسان المجادل في الله فتعلم ﴿أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض﴾ من الإنس والجن وهذا السجود يليق بجلاله حسب الحال التي يعلمها الله منهم ولا نعلمها، ثم بدأ بذكر سجود ما لا يعقل من الجماد والحيوان فقال ﴿والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب﴾ وسجودها وتسبيحها خضوعها لله يسيرها كيف يشاء خاضعة لجبروته، مسخرة لقدرته، بما يليق به سبحانه بما يعلمه ولا نعلمه، ثم ذكر سجود بني آدم منهم الموحدون الذين يسجدون لله فقال ﴿وكثير من الناس﴾ أي يسجد له سجود طاعة وانقياد، ثم ذكر الذين اختاروا الكفر والمعصية ممن لم يسجد لله مختاراً فقال ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ جزاء عصيانه ﴿ومن يهن الله﴾ بالعذاب ﴿فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾.

١٩ ـ ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾.

﴿هذان خصمان﴾ أي المؤمنون خصم، والكفار خصم، من الأنواع الستة المتقدمة ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي في دينه ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب﴾ أي سويت وجعلت لباساً ﴿من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ الماء الحار المغلي بالنار.

القــــراءة

قرأ ابن كثير ﴿هذانّ﴾ بالتشديد.

٢٠ ـ ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾.

﴿يصهر به ما في بطونهم﴾ من شحم وأمعاء حتى يخرج من أدبارهم ﴿والجلود﴾ أي تنضج الجلود فتتساقط من أبدانها.

٢١ ـ ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾.

المقامع هي المطارق تضرب رؤوسهم.

٢٢ ـ ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها﴾ أي النار ﴿من غم أعيدوا فيها﴾ قيل لهم ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ حذف فيه القول، والمعنى: أعيدوا فيها، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق، وهذا القول المحذوف في الحج صرح به في السجدة في قوله تعالى ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ والمفسرون يقولون: إن لهب النار يرفعهم حتى يكاد يرميهم خارجها، فتضربهم خزنة النار بمقامع الحديد، فتردهم في قعرها، نعوذ بالله منها ومن كل ما يقرب إليها من قول وعمل[1].

لما ذكر حال أحد الخصمين في الآخرة أراد أن يذكر حال الآخرة وهو المؤمن فقال:

٢٣ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾.

﴿يحلون فيها من أساور من ذهب﴾ أي يلبسون الحلي.

القــــراءة

قرأ نافع وعاصم ﴿ولؤلؤاً﴾ بالألف، وقرأ الباقون ﴿ولؤلؤ﴾.

---

(١) أضواء البيان ج ٥ ص ٥٥ ـ ٥٦.

٢٤ ـ ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾.

﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾ في الدنيا وهذه الهداية هي هداية البيان التي يسرها الله سبحانه للبشر على لسان رسله وفي كتبه وبمشاهدة آياته، ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ وبعد أن هداهم الله تعالى إلى عبادته، وبين لهم طريق الخير والشر والطيب من القول في الدنيا، هداهم الله في الآخرة إلى معادهم وهذه الهداية هداية المعاد.

ثم كرر وعيد أهل الكفر ومن داناهم فقال:

٢٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾.

﴿إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾ يمنعون الناس من الدخول في الإسلام وعن الحج إلى بيت الله الحرام ﴿الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه﴾ المقيم للعبادة أو السكن حوله ﴿والباد﴾ الطارىء الذي يأتيه من غير أهله، وهذا من قولهم: بدا القوم من الحضر إلى الصحراء، والمعنى أن العاكف والبـادي يستويان في سكنى مكة والنزول بها، فليس أحدهما أحق في تفضيله وحرمة المسجد وإقامة المناسك به ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ الإلحاد في اللغة، العدول عن القصد كقوله تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾[1] أي اتركوا أو اهملوا الذين يميلون ألفاظها أو معانيها من تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تعطيل أو زيادة أو نقصان أو ما ينافي وصفها الحسي، والمعنى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ يعني به جائراً ظالماً وعاملاً عملاً سيئاً، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (لا تحتكروا الطعام بمكة، فإن احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم)[2].

القــــراءة

قرأ حفص ﴿سواء العاكف فيه﴾ نصباً، وقرأ الباقون ﴿سواء﴾ بالرفع على الابتداء ﴿والعاكف﴾ خبره، قرأ ابن كثير ﴿والبادي﴾ بالياء في الوصل، والوقف على أصل الكلمة، وقرأ أبو عمرو وإسماعيل وورش ﴿والبادي﴾ بالياء في الوصل، وبالحذف في الوقف.

إبراهيم عليه السلام والبيت

وحين انجر الكلام إلى ذكر المسجد الحرام أتبعه ذكر الكعبة وبعض ما يتعلق به من المناسك فقال:

٢٦ ـ ﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر: ٣٥١/٤ من رواية سعيد بن منصور، والبخاري في «تاريخه» وابن المنذر عن عمر رضي الله عنه موقوفاً بلفظ احتكار الطعام بمكة إلحاد بظلم.

﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي عرفناه ذلك وجعلنا له من العلامة ليشيده ﴿أن لا تشرك بي شيئاً﴾ أي وأوحينا إليه ذلك وفيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على التوحيد لله ولعبادته وحده ﴿وطهر بيتي للطائفين والقائمين﴾ وطهّر معناه من الشرك وعبادة الأوثان والمراد بالقائمين المقيمين بمكة ﴿والركع السجود﴾ الركع جمع راكع، السجود جمع ساجد.

٢٧ ـ ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾.

﴿وأذن في الناس بالحج﴾ لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أمره الله تعالى أن يعلم الناس الحج فنادى على جبل من جبال مكة، «يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه» الناس هنا اسم يعم جميع بني آدم ﴿يأتوك رجالاً﴾ رجالاً جمع راجل معناه مشاة على أرجلهم ﴿وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ أي ركباناً على الدواب وعبر بالضامر أي الذي ضمر من الإبل فخف جسده من طول السفر ﴿من كل فج عميق﴾ أي من كل طريق بعيد.

٢٨ ـ ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَائِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾.

﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي ليحضروا في هذا الحج منافع دنيوية من التجارة، ومنافع للآخرة طاعة الله، وكذلك التعارف والتزاور، وتبادل المنافع والآراء، ففي الحج منافع اجتماعية واقتصادية ودينية ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ الأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة، وبهيمة الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم التي تنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ والبائس شديد الفقر.

٢٩ ـ ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي يزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الظفر بعد الذبح ﴿وليوفوا نذورهم﴾ قال ابن عباس: هو نحر ما نذروا من أعمال البر في أيام الحج أو قد يكون عليه نذور مطلقة فالأفضل أن يؤديها بمكة، ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ هذا هو طواف الفرض لأنه أمر بعد الذبح، والذبح إنما يكون يوم النحر، فدل على أنه الطواف المفروض وهو طواف الإفاضة.

القـــراءة

﴿ثم ليقضوا﴾ قرأ أبو عمرو وورش عن نافع وابن عامر ﴿ثم لِيقضوا﴾ بكسر اللام.

﴿وليوفوا﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿وليوفّوا﴾ بالتشديد.

٣٠ ـ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا

يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾.

﴿ذلك﴾ أي الأمر والشأن المذكور ﴿ومن يعظّم حرمات الله﴾ ما لا يحل انتهاكه ﴿فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام﴾ أكلاً بعد الذبح ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ تحريمه في قوله تعالى ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ وحين حثّ على تعظيم الحرمات أتبعه الأمر بما هو أعظم أنواعها وأقدم أصنافها قائلاً ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ شهادة الزور والكذب.

٣١ - ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾.

﴿حنفاء لله﴾ مسلمين عادلين عن كل دين سوى دينه ﴿غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء﴾ أي سقط من علو مرتفع ﴿فَتَخطَفُه الطير﴾ أي تتلقفه لتأكله حيث أصبح جيفة يتناهبه مختلف الطيور، والطير هنا اسم جنس لكل طير ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ وإن لم يكن ذلك، ربما هوت به الريح في مكان بعيد عن الناس والطير، والمعنى: شبّه الله حال من أشرك بالله حيث أهلك نفسه غاية الإهلاك، وذلك بأن صوّر الله حاله بصورة من سقط من علو مرتفع، فوقع جيفة، تناهبته الطيور فتفرق قطعاً من اللحم الجيف في حواصلها، أو صورة من قذفته الريح حتى هوت به في بعض المطارح السحيقة البعيدة.

القــــراءة

قرأ نافع ﴿فتخطفه﴾ بفتح التاء وتشديد الطاء ﴿فتخطّفه﴾.

٣٢ - ﴿ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾.

﴿ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ أي ومن يعظم البدن من الإبل والبقر هديها للحرم عظيمة الأجسام سمينة غير هزيلة، وسميت شعائر لإشعارها بما تعرف بـه أنها هدي أي تعليمها بعلامة.

ثم كان لسائل أن يسأل ما بال هذه الحيوانات تذبح فيتقرب بها إلى الله تعالى فلهذا قال:

٣٣ - ﴿ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾.

﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ كركوبها وشرب ألبانها، إلى أن تنحر ويؤكل منها ويتصدق بلحومها ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ أي مكان حل نحرها عند الحرم جميعه، إذ الحرم كله في حكم البيت الحرام.

ثم بين أن القرابين في الشرائع القديمة وإن اختلفت أمكنتها وأوقاتها فهي لله وحده لا يذكر معه غيره فقال:

٣٤ - ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾.

﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ النسك في الأصل العبادة، وشاع استعماله في أعمال الحج، والمراد به هنا في الآية الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ والمعنى: لكل جماعة مؤمنة من الأمم السالفة جعلنا ذبح القرابين ﴿فإلهكم إله واحد﴾ أي لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم غير الله ﴿فله أسلموا وبشر المخبتين﴾ من الإخبات وهو في الأصل المطمئن من الأرض، وهو النزول، ثم استعمل استعمال اللين والتواضع، أي الذين انقادوا وخضعوا لله، وبشر المطيعين المتواضعين.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿ولكل أمة جعلنا منسِكاً﴾ بكسر السين.

ثم ذكر وصفهم وما هم عليه فقال:

٣٥ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي خافت ﴿والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ وكل ذلك معطوف على قوله: وبشر.

من آداب الذبح في الحج

ثم عاد إلى تعظيم شأن الضحايا مرة أخرى وخص منها العظام الجسام بقوله:

٣٦ ـ ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿والبدن﴾ جمع بدنة وهي الإبل التي تنحر بمكة، وتجزي البدنة عن سبعة ﴿جعلناها لكم من شعائر الله﴾ من أعلام دينه ﴿لكم فيها خير﴾ نفع في الدنيا وأجر في الآخرة ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾ عند نحرها ﴿صواف﴾ منصوبة على الحال، والمعنى: صفت قوائمها عند الذبح ليسهل نحرها ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ سقطت إلى الأرض بعد النحر وهو وقت الأكل منها ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع﴾ المتعفف الذي يستغني بما أعطيته وهو في مكانه ﴿والمعتر﴾ الذي يتعرض لك لتعطيه ﴿كذلك سخّرناها لكم لعلّكم تشكرون﴾ كذلك أي مثل ذلك التسخير الذي ذلّله الله لكم في تلك الحيوانات العظيمة الأجسام، القوية الأبدان، فلا تستعصي عليكم بل تأتي إليكم ذليلة منقادة فتعلفونها وتحبسونها صافة قوائمها.

ثم بين ما هو المقصود من الضحايا فقال:

٣٧ ـ ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ أي لا يرفعان إليه ولا يستفيد منها شيئاً مادياً ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ أي يرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الإيمان ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾.

وكان الكلام قد انجر إلى ذكر الكفار وصدهم عن المسجد الحرام، أتبعه بيان ما يزيل ذلك الصد ويمكن من الحج وزيارة البيت فقال:

٣٨ - ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾.

﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ أي يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين بمنعهم منهم، وينْصرُهم عليهم، وذلك إذا أخلصوا لله ولم يخونوا في إيمانهم وعقيدتهم ﴿إن الله لا يحبّ كل خوّان كفور﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إن الله يدفع عن الذين آمنوا﴾ بغير ألف.

٣٩ - ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾.

﴿أذن للذين يقاتلون﴾ من قبل الكفار، وهذه أول آية نزلت في الجهاد، وفيها دلالة على أن المسلمين في قتالهم وجهادهم، لم يكونوا المعتدين ولا البادين بالحرب ﴿بأنهم ظلموا﴾ أي اعتدي عليهم بسبب دينهم ودعوتهم ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وهذا وعد لهم بالنصر ومعناه أنه سينصرهم.

القـــراءة

قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم ﴿أُذِنَ﴾ بضم الألف، وقرأ الباقون ﴿أَذَن﴾ بفتح الألف، قرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿يقاتَلون﴾ بفتح التاء وقرأ الباقون بكسر التاء.

ثم بين حالهم فقال:

٤٠ - ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ أي أخرجوا من مكة إلى المدينة، ويشمل غيرهم ممن يكون حاله كحالهم ﴿إلاّ أن يقولوا ربنا الله﴾ أي لتوحيدهم الله ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ بالقتال في سبيل الله في كل عصر من العصور بين الكفار والمسلمين لتسلط الكفار على محال العبادة، وهدموها ولفسدت الأرض، ومحال العبادة التي دافع المؤمنون عنها في زمن الأنبياء السابقين، هي صوامع الصابئين، الذين ذكرهم الله في

كتابه أن منهم مؤمنين بالله ﴿لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ قال الزجاج: أي البيع في زمن موسى والصوامع في زمن عيسى، والمساجد في شريعة محمد ﷺ. والمعنى: ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض لهدمت في كل شريعة بناء المكان الذي يصلى فيه، وقيل: البيع للنصارى في القرى، والصوامع في الجبال والبراري ويشترك فيها الفرق الثلاث، والمساجد للمسلمين، والصلوات كنائس اليهود، قال الحسن: أراد بذلك عين الصلاة وهدم الصلاة بقتل فاعليها ومنعهم من إقامتها[١] ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ أي من ينصر دينه وشرعه ويدافع عن دعوته، وأكد ذلك بقوله ﴿إن الله لقوي عزيز﴾.

القـــراءة

قرأ نافع ﴿ولولا دفاع الله الناس﴾ بالألف، قرأ نافع وابن كثير ﴿لهدمت﴾ بالتخفيف.

ثم أتبع قوله الذين أخرجوا قوله:

٤١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ بالنصر والعز والحكم، وهي صفة الذين نصرهم الله ونصروه ﴿أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.

إنه سبحانه بعد ضمان النصر لنبيه ﷺ والدفع عن أمته ذكر ما فيه تسليته فقال:

٤٢ ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾.

إن يكذبوك يا محمد ﷺ، فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود.

٤٣ ـ ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

﴿وأصحاب مدين﴾[٢] ﴿وكذب موسى فأمليت للكافرين﴾ أي مهلت لهم ﴿ثم أخذتهم﴾ بعذاب الاستئصال ﴿فكيف كان نكير﴾ أي كيف أنكرت عليهم فعلهم من التكذيب بالإهلاك، أي أنكرت عليهم أبلغ الإنكار.

الآثار فيها عبر

٤٥ ـ ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾.

---

(١) مجمع البيان ص ١١٢.

(٢) سبق الكلام على مدين في سورة الأعراف، الآية: ٨٥ والتوبة، الآية: ٧٠.

﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة﴾ أي وكم من مدينة أهلكنا أهلها بعذاب الاستئصال بظلمهم ﴿فهي﴾ الآن أو بعد العذاب تراها ﴿خاوية على عروشها﴾ خالية من أهلها ساقطة على سقوفها ﴿وبئر معطلة﴾ متروكة مندثرة لا ماء فيها ﴿وقصر مشيد﴾ قائم الجدران بعد أن سقطت سقوفه ليس فيه سكان، كما هي الآثار التي تراها في كل مكان من بناء الماضين السالفين كآثار الرومان وأهل بابل وغيرهم.

القـــراءة

﴿وبئر معطلة﴾ روى ورش عن نافع بغير همز، قرأ أبو عمرو ﴿أهلكتها﴾ بالتاء من غير مد، ثم أنكر على أهل مكة عدم اعتبارهم بهذه الآثار فقال:

٤٦ ـ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾.

﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ باحثين عن آثار الماضين ليروا بأعينهم ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ أخبار الأمم المكذبة ويقصونها على من لم يرها ﴿فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور﴾ وفي هذا التصوير زيادة التمكين والتقرير، لغرابة نسبة العمى إلى القلب، والمعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها، وإنما العمى بقلوبهم، والمراد أنّها تتعامى عن الحق ولو رأته عياناً، فهي معاندة مكابرة، ولذلك حتى مع سمعهم وعلمهم بأخبار من سبقهم ممن هلك تراهم كما أخبر الله عنهم لا يؤمنون بوقوعه.

ثم حكى عن عظيم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزؤون باستعجال العذاب العاجل والآجل فقال:

٤٧ ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي يطلبونه لتكذيبهم بوقوعه فيقولون متى هذا الوعد ونحوه ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ فالموعد قريب عند الله، ولعلّهم طلبوا عذاب الآخرة، فذكر أن استعجاله في الدنيا كالخلف لأن موعده في الآخرة فقال: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ فألف سنة عندكم كيوم عنده، فهو سينفذ وعده كما قال ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾

القـــراءة

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿مما يعدون﴾ بالياء.

ثم أكّد ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وإن طال الأمد حسب سنته فقال:

٤٨ ـ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾ أي كثير من القرى أملى لها الله وأخر عنها العذاب وهي ظالمة من باب الإمهال لا الإهمال.

مهمة الرسول

٤٩ ـ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

الجنة وما فيها، ثم ذكر جزاء الكفار فقال:

٥١ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي الذين عملوا على إبطالها ظانين أنّهم يعجزون من اتبع النبي، واجتهدوا في رد دعوة الدين والتكذيب بها، وثبطوا الناس عن متابعة النبي ﷺ، ظناً منهم أنهم يعجزوننا، وأنهم لا يبعثون، فأولئك هم المقيمون في النار ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿والذين سعوا في آياتنا معجزين﴾ بغير ألف.

نفي قضية الغرانيق

ثم بين أن له أسوة بالأنبياء السالفة، والرسل السابقة في كل ما يأتي ويذر فقال:

٥٢ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ ممن سلف ﴿إلاّ إذا تمنّى﴾ شيئاً من أمور الدنيا، سارع الشيطان فألقى في أذن أتباعه وأوليائه تلك الأمنية، ليفرحوا بها ويتسلّطوا على نبي الله بها فيقدموا له ذلك الشيء الذي تمناه لكن الله الذي عصم رسوله وأنبياءه وتولاهم ورعاهم واختصهم لأمور الآخرة لا لأمور الدنيا، لا يمكّن أحداً من استغلالهم حتى ولو كان الشيطان، فإن كيد الشيطان أمام الأنبياء والصالحين ضعيف ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ في نفوس الناس مما زينه الشيطان لهم عما تمناه الأنبياء والرسل عليهم السلام ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ الكونية أو المنزلة على رسله الدالة على صدق دعوتهم، وإحكام الآيات ظهورها وغلبتها كما أظهر الله عصا موسى عليه السلام، على كيد فرعون، وما جاء به من السحر وكما أظهر آياته في إبراهيم فكانت النار برداً وسلاما عليه، وكما أظهر آياته وأحكامها لعيسى، وأما الآيات المنزلة فإحكامها ثبوتها في نفوس المؤمنين ﴿والله عليم حكيم﴾.

٥٣ ـ ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

﴿ليجعل ما يلقي الشيطان﴾ من تزيين وتصوير في نفوس الناس ممن اختاروا الشر وانقادوا له ﴿فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم﴾ ليجعل ما يلقيه الشيطان على قلوب أوليائه فتنة واختباراً للمنافقين الشاكين الذين في قلوبهم مرض، وللكافرين الذين قست قلوبهم فلا تلين لقبول الحق، ثم بين مجانفة هذين الفريقين للحق وبعدها عن الرشد لا إلى غاية فقال: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾.

أما ما ذكره بعض المفسرين اعتماداً على بعض الروايات الضعيفة من أن سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله ﷺ قرأ سورة النجم لما نزلت عليه حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ فألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فلما سمعت قريش بذلك فرحوا، فأتاه جبريل فقال: تلوت ما لم آتك به عن الله فحزن الرسول حزناً شديداً فنزلت هذه الآية تطميناً لقلبه، وإعلاماً له أن الأنبياء قد جرى لهم مثل هذا.

أقول: قال العلماء المحققون هذا لا يصح ويتنافى مع العصمة، ومخالف للقرآن والسنة ولم يصح في ذلك شيء عن رسول الله ﷺ، وأما تفسير «تمنى» بـ «يقرأ» فغير صحيح في سياق الآية، فليس كل نبي ولا كل رسول قبل النبي محمد له كتاب يقرأ منه فكيف يستقيم تفسير التمني بالقراءة، ولا ضير على الأنبياء والرسل من التمني لأمور الدنيا فهم بشر وليسوا ملائكة.

٥٤ ـ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿وليعلم الذين أوتوا العلم﴾ أي بالله وبتوحيده وبحكمته ﴿أنه الحق من ربك﴾ أي أن القرآن حق لا يجوز عليه التبديل والتغيير ﴿فيؤمنوا به﴾ أي فيثبتوا على إيمانهم وقيل: يزدادوا إيماناً إلى إيمانهم ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي أن تخشع وتتواضع لقوة إيمانهم ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي طريق واضح لا عوج فيه.

٥٥ ـ ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾.

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي القرآن والوحي الذي تأتيهم به لعدم تصديقهم؛ لأن الشيطان صور لهم أنه سحر، أو شعر أو يعلمه بشر، وأنه ليس بحق ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ الساعة وقت موت كل واحد، واليوم العقيم هو يوم العذاب بالنار، وسمي عقيماً لأنه لا ليلة له؛ لأنه لم يكن فيه للكفار خير فهو كالريح العقيم التي لا تأتي بخير.

ثم بين أنه لا مالك يوم تأتي الساعة إلّا الله وأنه يحكم بين الناس فقال:

٥٦ ـ ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

﴿الملك يومئذ لله﴾ أي يوم القيامة ﴿يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم﴾.

٥٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

﴿مهين﴾ سمي مهيناً لأنه يذلّهم في جهنم.

٥٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

﴿والذين هاجروا في سبيل الله﴾ في طاعته ونشر دينه والجهاد في سبيله ﴿ثم قتلوا أو ماتوا﴾ قتلوا في المعركة أو هم يمشون ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ هو رزق الجنة ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾.

القــــراءة

قرأ ابن عامر ﴿ثم قتّلوا﴾ بالتشديد، مرة بعد مرة، وقرأ الباقون ﴿قتلوا﴾ بالتخفيف.

٥٩ ـ ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿ليدخلنهم مدخلاً﴾ وهو الجنة ﴿وإن الله لعليم حليم﴾ عن عقابهم.

القــــراءة

قرأ نافع ﴿ليدخلنهم مَدخلاً﴾ بفتح الميم وقرأ الباقون ﴿مدخلاً﴾ بالضم.

ثم بيّن أنه مع إكرامه لهم في الآخرة لا يدع نصرهم في الدنيا قبل أن يقتلوا أو يموتوا فقال:

٦٠ ـ ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾.

﴿ذلك ومن عاقب﴾ الأمر الذي قصصنا عليك من جازى من المؤمنين ﴿بمثل ما عوقب به﴾ ظلماً من المشركين أي قاتلهم كما قاتلوه ﴿ثم بغي عليه لينصرنه الله إنّ الله لعفو غفور﴾ أي ظلم بإخراجه من منزله، يعني فعله المشركون على المؤمنين من البغي حتى أجبروهم على مفارقة ديارهم ﴿لينصرنه الله﴾ يعني المظلوم الذي بغي عليه ﴿إنّ الله لعفو غفور﴾ الذي لا غالب له، ولينتقمن له من أعدائه.

٦١ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ

﴿ذلك﴾ أي النصر ﴿بأن الله﴾ القادر على ما يشاء، فمن قدرته أنه ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾ أي يدخل ما انتقص من ساعات الليل في النهار، وما انتقص من ساعات النهار في الليل بسبب دوران الأرض حول نفسها ﴿وأن الله سميع﴾ لدعاء المؤمنين ﴿وبصير﴾ بهم.

٦٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

﴿ذلك﴾ النصر أيضاً ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي هو الإله الحق ﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ من الأشخاص أو الأصنام ﴿هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾ الكبير الذي كل شيء سواه يصغر مقداره عن معناه.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر ﴿أن ما تدعون﴾ بالتاء وقرأ الباقون ﴿يدعون﴾ بالياء.

ثم ذكر أنواعاً أخرىٰ من دلائل قدرته ونعمته فقال:

٦٣ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾.

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ بالنبات من المطر الذي أصابها ﴿إن الله لطيف خبير﴾ لطيف بأرزاق عباده بحيث لا يحتسبون، خبير بما في قلوبهم.

٦٤ ـ ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

الذي ليس بمحتاج، المحمود بصفاته وأفعاله، وزيدت اللام في قوله ﴿لهو﴾ للتأكيد حيث تقدّم في هذه السورة ذكر الشيطان، لهذا ذكرت المؤكدات بخلاف سورة لقمان قوله تعالى ﴿لله ما في السماوات والأرض وإن الله هو الغني الحميد﴾[1].

٦٥ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ من معادن ومياه ﴿والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه﴾ فلا تقع إلا بإرادته ومشيئته، لكنّها لم تقع لأنّ الله سبحانه لم يرد لها ذلك، ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ برأفته ورحمته بهم قبل هذا التسخير، وأمسك السماء أن تقع على الأرض.

---

(١) الآية: ٢٦.

القـــراءة

﴿ويمسك السماء﴾ قرأ الإمام قالون عن نافع: ﴿ويمسك السما﴾ بالقصر بدون همزة.

ثم ذكر الإنسان مبدأه ومعاده فقال:

٦٦ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أول مرة بالإنشاء ﴿ثم يميتكم﴾ عند انتهاء آجالكم ﴿ثم يحييكم﴾ عند البعث ﴿إن الإنسان لكفور﴾ جاحد لنعم الله أو متهاون بشكره إلّا الذين آمنوا ممن اختاروا الخير على الشر كقوله تعالى: ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

ثم عاد إلى بيان أن أمر التكاليف مستقر على ما في هذه الشريعة فقال:

٦٧ ـ ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه﴾ أي شريعة ومنهاجاً، ومنها ذبح الهدي والأضحية وغيرها ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ في أمر الذبيحة إذ قالوا ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم ﴿وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي على دين واضح.

٦٨ ـ ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

﴿وإن جادلوك﴾ في أمر دعوتك ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾ فيجازيكم.

٦٩ ـ ﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾.

٧٠ ـ ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾.

﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ الاستفهام فيه للتقرير ﴿إن ذلك في كتاب﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ سهل لا يتعذر عليه، الخطاب هنا للرسول ﷺ، والمراد تقوية قلبه وإلّا فالرسالة لا تكون إلّا بعد العلم.

وحين بيّن كمال ألوهيته، فظّع شأن أهل الشرك بقوله:

٧١ ـ ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴾.

﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ حجة ﴿وما ليس لهم به علم﴾ من رب العالمين ﴿وما للظالمين من نصير﴾ يوم يحل بهم العذاب وهو كقوله في آخر آل عمران ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ الظلم هنا الشرك والنصرة إما بالشفاعة أو بالحجة، ولا حجة إلّا للحق.

٧٢ ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ يعني القرآن ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي الإنكار لها أي أثره من الكراهية والعبوس ﴿يكادون يسطون﴾ أي يبطشون ويوقعون بالذين يتلون عليهم آياتنا من المؤمنين ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم﴾ أي بأشد عليكم وأكره من سماع القرآن، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ أي المرجع والمأوى.

ثم ضرب للأصنام مثلاً فقال:

٧٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾.

﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له﴾ قال الأخفش: المعنى: يا أيها الناس ضرب لي مثل، أي شبهت بي الأوثان، وتأويل الآية: جعل المشركون الأصنام شركائي فعبدوها معي، فاستمعوا حالها، ثم بين ذلك بقوله ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ وإنما خص الذباب لمهانته واستقذاره وكثرته، ولو اجتمع جميع الأصنام لذلك الصنع، ثم ازداد لعجزهم وضعفهم تأكيداً بقوله ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ لا يستردوه، ثم عجب من ضعف الأصنام والذباب بقوله: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ أي عجز الطالب وهو الآلهة المعبودة أن تستنقذ من الذباب ما سلبها.

ثم بين أن المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة بهذه المثابة فقال:

٧٤ ـ ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظّموه حق عظمته إذ جعلوا هذه الأصنام شركاء له، وقد مر مثله في الأنعام، ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ لا يقهره أحد غالب في أمره.

وحين ردّ على أهل الشرك معتقدهم في الإلهيات، أراد أن يردّ عليهم عقيدتهم في النبوءات فقال:

٧٥ ـ ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾.

﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً﴾ رسلاً يحملون الوحي إلى الأنبياء كجبريل وميكائيل ﴿ومن الناس﴾ يعني النبيين ﴿إن الله سميع بصير﴾ سميع بأقوالهم وبصير بضمائرهم وأفعالهم.

٧٦ ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور﴾ الإشارة إلى الأصنام ومعبوديها، والمعنى أن من لا يقدر على خلق ذباب مع صغره، وإذا سلبه الذباب شيئاً لا يقدر على استرداده، فكيف يستحق أن يعبد.

ليس في الإسلام حرج

ثم بين علو شأنه وكمال علمه وإحاطته بأحوال المكلفين فقال:

٧٧ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴾.

أي صلوا وافعلوا بقية العبادات واعملوا الصالحات.

٧٨ ـ ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾ اختاركم لدينه ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ الحرج: الضيق فما من شيء وقع الإنسان فيه إلّا وجد له في الشرع مخرجاً، بتوبة أو كفارة، أو انتقال إلى رخصة، ونحو ذلك ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي دينه لأن ملة إبراهيم داخلة في ملة محمد ﷺ، وإنما سماه أباً للجميع لأن حرمته على المسلمين كحرمة الوالد على الولد كما قال: وأزواجه أمهاتهم ﴿هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾ أي الله سماكم مسلمين في الكتب قبل القرآن، ﴿وفي هذا﴾ أي القرآن ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ يعني محمداً ﷺ يشهده عليكم يوم القيامة ويبلغكم في الدنيا الرسالة ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ بتبليغكم الإسلام لهم ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾.

انتهى تفسير سورة الحج وانتهى معه كذلك الجزء السابع عشر

ويليه أول الجزء الثامن عشر (سورة المؤمنين).



سورة المؤمنون سميت بها لأنها تتحدث عن المؤمنين وصفاتهم، ولما انجر الكلام في السورة المتقدمة إلى الختم بالصلاة والزكاة، بدأ في هذه السورة بذكر فضائلها، وفضائل ما ينخرط في سلكها من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات فقال:

صفات المؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.

قد: للتحقيق أي قد تحقق فوزهم بمطلوبهم في الآخرة، والفلاح: الظفر بالمرام، وإدراك البغية، ولا شك أن المؤمنين متوقعون لمثل هذه البشارة، وهي إخبار بثبوت الفلاح لهم ثم وصفهم بست صفات فقال:

٢ ـ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾.

أي متذللون لله تعالى بطاعته والقيام فيها بما أمرهم به، مع خوف القلب وسكون الجوارح، ومن الخشوع في الصلاة ألّا تزاحم من كان جنبك.

٣ ـ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾.

اللغو يشمل كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو مباحاً لا حاجة إليه قولاً أو فعلاً، والإعراض عن اللغو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه كما قال الله عز وجل ﴿وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً﴾[1] ثم وصفهم بفعل الزكاة فقال:

٤ ـ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾.

هذه هي الصفة الثالثة من صفات المؤمنين، والمعنى: أي المؤدون لها، ثم ذكر الصفة الرابعة فقال:

٥ ـ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾.

والمراد بالفروج في الآية: فروج الرجال، والمراد بالحفظ حفظها عن الحرام.

٦ ـ ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.

﴿على﴾ بمعنى عن، والمعنى أنهم مستمرون على حفظ الفروج في كافة الأحوال إلّا في حال تزوجهم أو ما قسم لهم، من غنائم الأسرى في حرب مع الكفار.

٧ ـ ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

أي طلب سوى المذكورين مما شرع وأبيح ﴿فأولئك هم العادون﴾ الجائرون الظالمون المتجاوزون إلى ما لا يحل لهم ثم ذكر الصفة الخامسة فقال:

٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

والمراد بها الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه لتمكن رعايتهما، والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويحتمل العموم في كل أمانة، والعهود من جهة الله تعالى ومن جهة الناس كالعبادات والمعاملات والودائع والقصود والنيات والعقود والنذور والطلاق وغيرها.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وحده ﴿لأمانتهم﴾ على الإفراد.

ثم ذكر الصفة السادسة فقال:

٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم وآخراً بالمداومة عليها وبمراقبة أعدادها وأوقاتها، فالمحافظة أعمّ من الخشوع وأشمل.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ على التوحيد.

١٠ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

الأحقاء بأن يسمّوا ورّاثاً دون من عداهم ممن يرث مالاً فانياً أو متاعاً قليلاً ثم بين الموروث فقال:

١١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿الفردوس﴾ اسم من أسماء الجنة في أعلى مراتبها أو أفضلها، والفردوس بلسان الحبشة والروم هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر، ومعنى الوراثة، أن كل من كانوا بهذه الصفات واجتمعت فيهم هذه الخلال هم الوارثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنة وقال الجبائي: معنى الوراثة هنا أنّ الجنة ونعيمها يؤول إليهم من غير اكتساب ﴿هم فيها خالدون﴾ فيها أنث الضمير ليعود على الجنة، ومعنى الخلود: المكث الطويل.

مراحل خلق الإنسان

ولما حث عباده على العبادات ووعدهم الفردوس على مواظبتها، عاد إلى تقرير المبدأ والمعاد ليتمكن ذلك في نفوس المكلفين، وهو ثلاثة أنواع فبدأ في الأول فقال:

١٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾.

أي من التراب لأن الطين من التراب، والمراد خلق آدم عليه السلام، وكل إنسان يحمل في دمه ولحمه جزءاً من أصل الخلقة، فالطين في الدم واللحم، لو حلل لوجد فيه، وفي آيات أخرى تشير إلى أن خلق الإنسان من تراب، وفي سورة الحجر يبين الله أن الإنسان خلق من صلصال وهو الطين اليابس الذي يسمع له صوت إذا نقر، وفي الصافات يشير إلى خلقه من طين لازب، أي اللزج الذي يلصق باليد، وكأن الآيات تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من طين مأخوذ من التراب، ثم صار طرياً لازجاً، ثم خمّر حتى تغيرت رائحته واسود، ثم صوّره الله وسوّاه على شكل آدمي، حيث يبس الطين حتى لو أنه نقر يسمع له صلصلة، ثم نفخ فيه الروح حيث قال ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾[1].

١٣ ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾.

تتكون النطفة من مني الإنسان الذي يقذفه في فرج المرأة، وكل خلية في جسم الإنسان تحتوي على عدد من العوامل الوراثية، ما عدا الحيوان المنوي والبويضة التي تفرزها المرأة، فكل منهما يحتوي على نصف العدد (الكروموسومات) فهي الخلايا غير الكاملة، تعرف بالأمشاج وباتحاد الأمشاج تتكون النطفة، قال الله تعالى في سورة الإنسان ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ وكان العلماء في السابق يعتقدون أن النطفة دم جامد حتى تبين لهم أخيراً أنها تتكون من الأمشاج.

القرار المكين

﴿في قرار مكين﴾ النطفة ضعيفة وحساسة جداً، فكان لا بد أن تكون في مكان أمين وملجأ منيع يحميها من أية إصابة أو اهتزاز، وقدر لها صانعها مكاناً أكثر حماية، في مكان محاط بعظام قوية ثابتة، إحاطة السوار بالمعصم، وهو أقل أجزاء الجسم حركة، هذا المكان هو الرحم الذي وضعه الخالق سبحانه داخل عظام الحوض القوي.

١٤ ـ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

العلقة

﴿العلقة﴾ طور من أطوار الجنين يأتي بعد ما تكبر النطفة في الغشاء المخاطي المبطّن للرحم تتجه إلى

(١) سورة التغابن، الآية: ٣.

جدار الرحم وتتعلق به بواسطة الأوعية الدموية وتأخذ من دم الأم من الغذاء ما يكفيها وسمّيت بذلك لتعلّقها بجدار الرحم، فلا تكون العلقة علقة إلّا بعد مرور أربعين يوماً، وهي حمراء بسبب ما فيها من الدم، والتفسير القديم لقوله تعالى ﴿خلق الإنسان من علق﴾ بالدم فإنه تفسير على العموم، ليس بالدقة التي توصّل إليها العلم الحديث والاكتشاف في علم الأجنّة.

المضغة

﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ تكبر العلقة شيئاً فشيئاً حتى تصبح كتلة من الأغشية المتصلّبة تشبه في الشكل قطعة غشاء ممضوغ، من أجل ذلك سميت مضغة، فهي علقة كبرت وتطوّرت، عند تكون العظام في الطفل يصير كله أشبه بالسمكة، يكون له ذيل مكون من عدة فقرات، ثم يبدأ هذا الذيل في القصر والانكماش شيئاً فشيئاً وهو في هذه المرحلة يكسى باللحم، على القدر الذي يناسبه، ومعنى ﴿كسونا العظام لحماً﴾ أي جعلنا على ذلك ما يشده ويقويه ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ في هذه المرحلة يتشكل نوع كل جنين في أكمل صورة وأحسن تقويم، بعد أن يكون جسم الجنين قد اكتسى بالشعر الذي يبدأ في الزوال قبل الولادة، ثم ينمو كل جنين بالصفات والشكل الذي يتميز به عن المخلوقات الأخرى قال المفسرون: أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب. ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

القـــراءة

﴿فخلقنا المضغة عظاماً﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿فكسونا العظم لحماً﴾ على التوحيد.

ثم ذكر نهاية الإنسان بعد تمام خلقه فقال:

١٥ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾.

١٦ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

ثم شرع في بيان الاستدلال الثاني فقال:

١٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾.

﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ السماوات السبع كل واحدة طريقة، وقال ابن قتيبة: إنما سميت طرائق لأن بعضها فوق بعض، يقال طارقت الشيء: إذا جعلت بعضه فوق بعض وهي أيضاً طرق الكواكب المعروفة عند البشر قديماً، وهناك طرائق أخرى عرفها الناس حديثاً، ﴿وما كنّا عن الخلق غافلين﴾ ما كنّا عن الخلق الذي في هذه السماوات والأرض أو في الأرض تاركين من غير رزق ولا ناسين أمرهم.

ثم شرع في بيان النوع الثالث وهو نزول الأمطار فقال:

١٨ ـ ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾.

﴿بقدر﴾ أي بقدر الحاجة لكل شيء حسب علم الله وإرادته ﴿فأسكنّاه في الأرض﴾ أي جعله مدداً

للينابيع والآبار ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ أي كما قدرنا على إنزاله فنحن قادرون على أن نذهب به بوجه من الوجوه، ولهذا التنكير حسن موقع، إذ فيه إيذان على أن الذاهب به، قادر على أي وجه أراد وفيه تحذير من كفران نعمة الماء ثم لما نبّه على عظم نعمته لخلق الماء، بين المنافع الحاصلة بسببه فقال:

١٩ ـ ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

ثم عطف سبحانه على ما تقدم فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴾.

﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ شجرة الزيتون، وسيناء اسم المكان الذي به جبل الطور وهو الجبل الذي نودي منه موسى عليه السلام وهو بين مصر وأيله[1] ﴿تنبت بالدهن﴾ أي الزيت ﴿وصبغ للآكلين﴾ أي إدام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو الزيت الذي يلونها فكأنه يصبغها.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿من طور سيناء﴾ بكسر السين، وقرأ الباقون بالفتح وهما لغتان، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿تُنبت بالدهن﴾ بضم التاء، وقرأ الباقون بالفتح.

٢١ ـ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

القـــراءة

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم﴾ بفتح النون، وقرأ الباقون بالرفع.

٢٢ ـ ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾.

قصة نوح عليه السلام

ولما قدّم سبحانه ذكر الأدلة على كمال قدرته أتبعها بذكر شمول نعمته على كافّة خليقته، عقب ذلك بذكر إنعامه عليهم بإرسال الرسل فقال:

٢٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ فقال أشراف قومه ورؤساؤهم، من العريقين في الكفر ذوي الكلمة

---

(١) هي مدينة إيلات في فلسطين المحتلة.

المسموعة والرأي المطاع ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ ليس له ميزة عليكم ﴿يريد أن يتفضّل عليكم﴾ أي يعلو بالفضيلة فيصير متبوعاً ﴿ولو شاء الله﴾ ما يقوله نوح بأن لا يعبد غيره ﴿لأنزل ملائكة﴾ بذلك لا بشراً لكي تبلغ عنه أمره ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾.

٢٥ ـ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

أي إنه رجل مجنون، فانتظروا موته فتستريحوا منه، أو انتظروا إفاقته من مرضه.

ثم إن نوحاً لما علم إصرارهم على الكفر، طلب من الله أن ينصره عليهم بإهلاكهم فقال:

٢٦ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾.

القـــراءة

﴿كذبون﴾ قرأ يعقوب الحضرمي بياء ﴿كذبوني﴾ والمعنى: انصرني بتكذيبهم، أي بإهلاكهم.

٢٧ ـ ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾.

﴿فأوحينا إليه أن اصنع الفلك﴾ السفينة ﴿بأعيننا﴾ بمرأى منا وحفظنا ﴿ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ اشتد غضب الله وظهر عقابه لهم، والتنور هو الفرن الذي يخبز فيه الخبز وهو معروف لدى العرب والفور شدة الغليان، ويقال ذلك في النار نفسها ﴿سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ ولا يصح شيء من الروايات في التنور مما نسب إلى السلف، ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول منهم﴾ بالإهلاك وهما زوجته وولده كنعان بخلاف سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم ثلاثة، وفي سورة هود ﴿ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل﴾[1] ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر ﴿إنهم مغرقون﴾.

القـــراءة

﴿كل﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿من كل﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بالإضافة إلى زوجين.

٢٨ ـ ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿فإذا استويت﴾ أي ركبت ﴿أنت ومن معك﴾ في السفينة، والأمر بالحمد على هلاكهم تقبيح صورة الكفار الظَلَمةِ كقوله تعالى[2] ﴿فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾.

ثم أمره أن يسأل عما هو أعمّ وأنفع فقال:

---

(١) الآية: ٤٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

٢٩ ـ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ .

أي أنه ينزله في الأرض عند خروجه من السفينة إنزالاً أو موضع إنزال يبارك له فيه.

القــــراءة

قرأ أبو بكر ﴿وقل رب أنزلني مَنزِلاً﴾ بفتح الميم وكسر الزاي، وقرأ الباقون ﴿مُنزَلاً﴾ بضم الميم وفتح الزاي.

٣٠ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

أي إن في أمر نوح والسفينة، لعبراً ودلالاتٍ لمن اعتبر وادّكر، فإنّ إظهار تلك المياه العظيمة والذهاب بها إلى مقارّها لا يقدر عليها إلا القدير الخبير ﴿وإن كنّا لمبتلين﴾ إن مخففة من الثقيلة، واللام في ﴿لمبتلين﴾ هي الفارقة، والمعنى: وإنّ الشأن والقصة كنا مبتلين، أي مصيبين قوم نوح ببلاء الغرق، أو بمختبرين بهذه الآيات من يخلفهم لننظر من يعتذر.

عاد الأولى قوم هود

ثم عطف على قصة نوح فقال:

٣١ ـ ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ .

اختلف المفسرون في أصحاب هذا القرن والأولى أنهم أصحاب هود لقوله تعالى في سورة الأعراف[1] ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾.

٣٢ ـ ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

٣٣ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ .

٣٤ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ .

أي إذا قبلتم قول مثلكم وأطعتموه خسرتم عقولكم وأبطلتم آراءكم، إذ لا ترجيح لبعض البشر على بعض في معنى الدعوة، هذا بيان كفرهم ثم بين تكذيبهم بلقاء الآخرة وطعنهم في الحشر بقوله:

٣٥ ـ ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ .

هو خبر أنكم الأولى، وأنكم الثانية تأكيد لها لما طال الفصل.

---

(١) الآية: ٦٩.

٣٦ ـ ﴿ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾.

هيهات اسم فعل ماضي بمعنى مصدر: أي بعد لما توعدون من الإخراج من القبور.

٣٧ ـ ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾.

٣٨ ـ ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾.

٣٩ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾.

٤٠ ـ ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾.

٤١ ـ ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿فأخذتهم الصيحة﴾ عوقب قوم هود بالريح الصرصر العقيم، وهي الريح الشديدة البرودة التي لها صوت من شدتها، تحرق الزرع والأشجار كما تحرقها النار، ووصفها الله عز وجل في سورة هود، بأنها عذاب غليظ، وكل ذلك بأمر الله عز وجل وبواسطة ملائكته المسبحة بقدسه، ﴿فجعلناهم غثاء﴾ الغثاء نبت يابس يعلو الماء إذا وقع فيه، وهو يشبه الزبد الذي يعلو السيل مما لا نفع فيه، من حميل السيل، مما بلي واسودّ من الأوراق والعيدان وغيرها، شبههم بذلك في دمارهم أو في احتقارهم وقلة الاعتناء بهم، تشبيه استيلاء العذاب عليهم باستيلاء السيل على الغثاء، يقلبه كيف يشاء، ثم دعا عليهم بالهلاك في الدارين بقوله ﴿فبُعداً للقوم الظالمين﴾ وفيه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم.

٤٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾.

الظاهر أنهم قوم صالح، ولوط، وشعيب، كما ورد في قصصهم، على هذا الترتيب في الأعراف وهود وغيرها من السور، وهم عاد الثانية، والمعنى: أنّا بعدما أخلينا الديار من المكلفين أنشأناهم وبلغناهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كانوا قبلهم.

ثم بيّن كمال علمه وقدرته في شأن المكلّفين بقوله:

٤٣ ـ ﴿ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾.

﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ بأن تموت قبله ﴿وما يستأخرون﴾ عنه والمعنى: أن هذا بيان لكمال علمه وقدرته في شأن المكلّفين، وأن كل طائفة مجتمعة في قرن لها آجال مكتوبة في الحياة وفي الموت بالهلاك لا يتقدمها ولا يتأخر عنها.

ثم بيّن أن رسل الله كانوا بعد هذه القرون متواترين وأن شأنهم في التكذيب كان واحداً فقال:

٤٤ ـ ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿ثم أرسلنا رسلنا تترا﴾ أي تتابع بفترة بين كل رسولين وهو من التواتر ﴿كلما جاء أمةً رسولها كذّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ في الهلاك بعضهم إثر بعض ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ قال أبو عبيدة: أي يتمثل بهم في الشر، ولا يقال في الخير، جعلته حديثاً ﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾.

القـــراءة

﴿تتراً﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، منونة والوقف بالألف، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم، وحمزة والكسائي: بلا تنوين والوقف عند نافع وابن عامر بألف، وروى حفص عن عاصم أنه يقف بالياء أي بألف ممالة.

ثم ذكر طرفاً من قصة موسى عليه السلام فقال:

موسى وهارون

٤٥ ـ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

بالحجة البينة وهي اليد والعصا وغيرها من الآيات التسع[١].

٤٦ ـ ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾.

أي بنو إسرائيل مطيعون خاضعون.

٤٨ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾.

٤٩ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ التوراة ﴿لعلّهم يهتدون﴾ أي لعل بني إسرائيل يهتدون من الضلالة وكان ذلك بعد هلاك فرعون وقومه ونجاتهم منهم بعد عبور البحر.

ثم أجمل قصة عيسى عليه السلام بقوله:

٥٠ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾.

﴿آية﴾ أي حجة قاطعة على قدرة الله تعالى ومشيئته، فإنه خلق آدم من غير أب وأم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ﴿وآويناهما إلى ربوة﴾ الربوة المكان المرتفع، قيل هي في بيت المقدس، والأكثرون على أنها بدمشق، وفي الشام اليوم مكان مرتفع بأطراف دمشق يسمى الربوة، ولعلّه هو المكان المقصود بالآية ﴿ذات قرار ومعين﴾ أي مستوية يستقر عليها ساكنوها، ومعين، ماء جار ظاهر، من

(١) ذكرناها بالتفصيل في سورة الأعراف والإسراء.

العيون، لا ينضب، وهو النهر الذي قال الله تعالى فيه ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾[١].

لما أخبر الله سبحانه عن إيتائه الكتاب للاهتداء ثم عما أولاه من سابغ النعماء خاطب الرسل بعد ذلك فقال:

٥١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾.

أي وقلنا للرسل كل في زمانه، ومنهم عيسى عليه السلام، ونبينا محمد ﷺ كلوا من كل ما يستلذ ويستطاب من الحلال، واعملوا صالحاً كل ما هو موافق للشرع، ثم حذّرهم فقال: ﴿إني بما تعملون عليم﴾ تحذير من مخالفة الأمر، وفي سورة سبأ قال ﴿إني بما تعملون بصير﴾.

ثم أمر بالتقوى التي هي أخص فقال:

٥٢ ـ ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾.

أي إن هذه ملتكم أيها الرسل دين واحد، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال ﴿أنا ربكم فاتقون﴾.

القــــراءة

﴿وإنّ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، بالفتح وتشديد النون﴿وأنّ﴾ وقرأ ابن عامر، بالفتح والتخفيف ﴿وأنْ﴾، وقرأ عاصم، وحمزة والكسائي ﴿وإنّ﴾ بكسر الألف مع تشديد النون.

٥٣ ـ ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾.

أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء، جعلوا دينهم الواحد مذاهب وكتباً، وتفرّقوا في دينهم، دانوا بها وكفروا، والزبر كتب، والزبور كتاب ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي بما عندهم من الدين والمذهب الذي ابتدعوه، معجبون مغرورون، يرون أنهم على الحق وغيرهم على الباطل ولهذا قال متوعداً:

٥٤ ـ ﴿ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾.

٥٦ ـ ﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾.

أي أيظن هؤلاء الكفار أن ما نعطيهم ونزيدهم من أموال وأولاد، إكراماً لهم ومجازاة لهم على أعمالهم أو لرضانا عنهم، ليس الأمر كذلك كما يظنون، بل ذلك إملاء لهم واستدراج ليزدادوا إثماً، فالرزق والنعمة تحتاج إلى شكر ليرضى المنعم، ولذلك قال ﴿بل لا يشعرون﴾ إن ذلك فتنة، ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾[٢].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

صفات أهل الخيرات

ثم بيّن سبحانه حال الأخيار بعد بيانه أحوال الكفار الفجّار فقال:

٥٧ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

٥٨ - ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

٥٩ - ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

٦٠ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ .

أنه سبحانه لما نفى الخيرات الحقيقية الدائمة عن الكفرة المتنعمين في الدنيا أتبعه ذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً فوصفهم بصفات أربع:

الصفة الأولى: الإشفاق من خشية ربهم، أي هم لشدة خوفهم من الله تعالى على وجل دائم، خوفاً من العذاب.

الصفة الثانية: ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ آيات الله المنزلة على رسوله في القرآن الكريم.

الصفة الثالثة: ﴿هم بربهم لا يشركون﴾ التبري عما سوى الله ظاهراً أو باطناً.

الصفة الرابعة: ﴿يؤتون ما ءاتوا﴾ أي يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقة والهبة ﴿وقلوبهم وجلة﴾ أي خائفة ألا يقبل منهم، ثم علل ذلك الوجل بقوله ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾.

٦١ - ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ .

معناه الذين جمعوا هذه الصفات، وكملت فيهم، هم الذين يبادرون إلى الطاعات، ويتسابقون إليها، أي أنهم يتعجلون في الدنيا وجوه المنافع والإكرام، لأنهم إذا سورع بها لهم فقد سارعوا في نيلها ﴿وهم لها سابقون﴾ وهم يسبقون غيرهم إلى فعلها.

بعد أن أخبر عن حال الكافرين والمؤمنين وذكر أعمال المكلفين، بين سبحانه في الآية التالية حكمين فقال:

٦٢ - ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

الحكم الأول ﴿ولا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي قدر طاقتها أو دون ذلك، فمن لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل قاعداً وإلّا فليوم إيماء، ومن لم يستطع الصوم فليفطر، الحكم الثاني ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ والمراد بنطقه إثبات كل عمل فيه، وهو اللوح المحفوظ، أو صحيفة الأعمال.

٦٣ - ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ .

أي بل قلوب الكفار في غفلة عن هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، والذي عليه المؤمنون ﴿ولهم أعمال

من دون ذلك هم لها عاملون﴾ أي لهم أعمال سيئة رديئة متجاوزة كتبت عليهم لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب بسبب كفرهم وثقل ميزانهم.

ثم رجع إلى وصف الكفار فقال:

٦٤ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴾.

﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ المترفون الرؤساء والأغنياء والقادة ممن أغواهم المال، والعذاب عذاب الآخرة، وتخصيص المترفين بذلك للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من المنعة والقيادة في الدنيا لم ينفعهم يوم القيامة، وإلاّ فغيرهم كذلك ﴿إذا هم يجئرون﴾ بالصراخ يستغيثون ويبكون ويقال لهم حينئذ على جهة التبكيت:

٦٥ ـ ﴿ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾.

أي يوم العذاب وهو يوم القيامة فلا ينالكم منا نصرة تنجيكم مما أنتم فيه.

ثم عدد عليهم التوبيخ بمقابحهم فقال:

٦٦ ـ ﴿ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴾.

أي كانت آيات القرآن تقرأ عليكم تنذركم في الدنيا ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي ترجعون وراءكم معرضين عن سماع القرآن والنكوص على العقبين معناه التباعد عن الحق والتجافي عنه، كمن رجع وراءه.

٦٧ ـ ﴿ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴾.

﴿مستكبرين به﴾ أي في البيت الحرام، بقولهم لا يظهر علينا أحد لأننا أهله ﴿سامراً تهجرون﴾ سامراً متحدثين ليلاً، والسمر حديث الليل، وتهجرون: بالضم معناها، الفحش، بالفتح الهذيان، وكان عامة سمرهم حول البيت الحرام ذكر القرآن والطعن فيه، بأنه شعر أو سحر أو أساطير، والمعنى: تقولون في رسول الله وكتاب الله ما ليس فيه وما لا يضره.

القـــراءة

﴿تهجرون﴾ قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم ﴿تُهْجِرون﴾ وهذا من السب والإفحاش من المنطق.

٦٨ ـ ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

يعني القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات والعبر على صدق رسولهم ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ أليس قد أرسل الله الأنبياء إلى أممهم كما أرسل محمداً ﷺ.

٦٩ ـ ﴿ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

أي بل ألم يعرفوه ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الخلق، وقد كانوا قبل مبعثه يسمونه الصادق الأمين، فكيف يكذبونه في رسالته؟ وفي هذا توبيخ لهم.

٧٠ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

الاستفهام للتقرير بالحق من صدق النبي ومجيء الرسل للأمم الماضية.

ثم بين أن الألوهية تقتضي الاستقلال في الأوامر والنواهي، وأن الحق والصواب ينحصر فيما دبره إلٰه العالمينَ وقدّره فقال:

٧١ - ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾.

﴿ولو اتبع الحقُّ أهواءهم﴾ أي لو لبى اللهُ سبحانه وتعالى رغباتهم ورغبات غيرهم من ساكني السماوات والأرض وأنزل القرآن وفق ما يشتهون وكما يحبون ﴿لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ لوجود التمانع والتنازع، فكل واحد يريد أن يكون له ما لغيره، وعلى هواه لا على هوى غيره ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي بالقرآن فيه ذكرهم وشرفهم ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾.

ثم بين أن دعوته ليست مشوبة بالطمع الموجب للنفرة فقال:

٧٢ - ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

أم هل الأمر الذي يصدّهم عن الإيمان بك أنهم يزعمون أنك تسألهم أجراً تأخذه على الرسالة ﴿فخراج ربك خير﴾ أي فرزق ربك الذي يرزقك في الدنيا، وأجره الذي يعطيكه في الآخرة خير لك مما ذكر.

القـــراءة

﴿خرجاً﴾ قرأ ابن عامر بغير ألف في الكلمتين ﴿خرجاً، و، فخرج﴾ وقرأ حمزة بألف في الحرفين ﴿خراجاً، و، فخراج﴾.

وحين أثبت لرسوله مواجب قبول قوله ونفى عنه أضدادها صرح بمضمون أمره ومكنون سره فقال:

٧٣ - ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

الصراط المستقيم هو دين الإسلام، ثم أشار إلى هذا الطريق بقوله:

إصرارهم على الشرك رغم ظهور الأدلّة

٧٤ - ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾.

أي أن هؤلاء الموصوفين بعدم الإيمان بالآخرة عن ذلك الصراط المستقيم المذكور لمنحرفون إلى طريق

الضلال ثم بيّن إصرارهم على الكفر فقال:

٧٥ ـ ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

هو بلاء ابتلى الله به أهل مكة، أصابهم فيه جوع شديد أكلوا فيه الجلد والعظام والدم، ومعنى الآية: لو كشف الله برحمته هذا الهزال والجوع، وكشف عنهم هذا البلاء، لأصرّوا على ما هم فيه.

ثم ذكرهم بما أصابهم يوم بدر من العذاب فقال:

٧٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾.

﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ يوم بدر بالقتل والأسر والجراح والهزيمة لأشرافهم وجنودهم ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون﴾ أي ما خضعوا ولا تذللوا، بل أقاموا على الشر والتمرد، أو ما خشوا ربهم في الشدائد.

٧٧ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾.

أي حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم عذاب الله الشديد، وفتح عليهم باب جهنم عند ذلك ﴿هم فيه مبلسون﴾ ساكنون من شدة الحيرة، وآيسون من كل خير.

ثم ذكرهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته فقال:

٧٨ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي خلق لكم هذه الحواس المذكورة وأولها السمع لأنه لا تكليف على الإنسان إلّا بالسمع، والسمع معناه هنا ليس بالأذن فقط وإنّما سماع فهم وتعقّل، ثم الأبصار من التبصر والتدبر والتفكير، ثم الأفئدة وهي القلوب التي في الصدور، وهي كناية عن الحفظ فيها وتخزين ما يسمع ويفهم ويعقل، وإلّا فالأنعام لها سمع وبصر وقلوب، لكنّها لا تفهم ولا تعي ولا تتدبر ما يقال لها ﴿قليلاً ما يشكرون﴾ نعم الله عليكم بالمقارنة لما آتاكم وما أعطاكم وما فضّلكم به على كثير من خلقه.

ثم بين دلائل أخر على الوحدانية فقال:

٧٩ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

أي خلقكم وبثّكم في الأرض للتناسل وإلى حيث لا مالك سواه تحشرون بعد تفرقكم.

٨٠ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

ومع تذكر نعمة الحياة بيان أن المقصود منها الانتقال إلى دار الثواب ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي مختص بتصريفهما، وأنهما يشبهان الموت والحياة، وفي قوله ﴿أفلا تعقلون﴾ توبيخ وتهديد، ثم نبّه بقوله:

٨١ ـ ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

٨٢ ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

لا شبهة لهم في إنكار البعث إلّا التشبث بحبل التقليد.

٨٣ ـ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

أي لقد وعدنا هذا البعث، ووعده آباؤنا فلم نرهم بعثوا ﴿إن هذا إلّا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلّا أكاذيب الأولين التي سطّروها في الكتب.

ثم ردّ على منكري الإعادة أو على عبدة الأوثان فقال:

٨٤ ـ ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كان عندكم علم فأجيبوني، وفيه استهانة بهم، وتجهيل لهم بأمر الديانات حتى جوز أن يشتبه عليهم مثل هذا المكشوف الجلي.

٨٥ ـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿أفلا تذكّرون﴾ ترغيب في التدبر وبعث على التأمل في أمر التوحيد والبعث، فإن من قدر على خلق الأرض ومن فيها، كان حقيقاً بأن لا يشرك به بعض خلقه، وكان قادراً على إعادة ما أفناه.

٨٦ ـ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

٨٧ ـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

﴿أفلا تتقون﴾ أي ما دمتم تعلمون أن آلهتكم ليس لها ملك شيء مما في السماوات فلم تصرفون إليها العبادة التي يستحقها الله وحده.

٨٨ ـ ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

قل لهم من بيده الملك والتصريف؟ ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ يغيث غيره إذا شاء ويمنعه، ولا يغيث أحد منه أحداً، ولا يمنعه منه فيدفع عنه عذابه وعقابه.

٨٩ ـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾.

﴿فأنى تسحرون﴾ كيف يخيل لكم الحق باطلاً، والصحيح فاسداً، فعبدتم غير الله، مع وضوح الحق، كأن ساحراً سحركم فأخذ عقولكم، والمعنى كيف تخدعون، والخادع هو الشيطان والهوى.

٩٠ ـ ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

أي إنه قد بالغ في الحجاج عليهم بهذه الآيات حتى استبان بما هو الحق والصدق، وأنهم مع ذلك ﴿لكاذبون﴾ حيث يدعون الولد والشريك، وينسبون إليه العجز عن الإعادة.

ليس لله ولد وليس له شريك

لما أثبت لنفسه الألوهية بالدلائل الإلزامية في الآيات المتقدمة نفى عن نفسه الأنداد والأضداد فقال:

٩١ ـ ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ فيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله، وإبطال لأقوال اليهود والنصارى، ثم ذكر شبه دليل التمانع بقوله ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق﴾ أي لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبد به، وامتاز عن ملك الآخر، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب، وهو جواب لمن معه المحاجة من أهل الشرك، فعل الشرط محذوف دلّ عليه الكلام السابق تقديره، ولو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ أي لغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فلذلك ختم الآية بقوله: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾.

٩٢ ـ ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

هو مختص بعلم الغيب أي ما غاب ويعلم كذلك ما حضر، ويقال للشاهد شاهداً لحضوره واقعة الدعوى وقت حدوثها ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أي أنه سبحانه متعال عن أن يكون له شريك في الملك.

القــــراءة

﴿عالم الغيب﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿عالم﴾ بالرفع، خبر مبتدأ محذوف.

توجيهات إلهية للنبي ﷺ

ثم أمر نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات فقال:

٩٣ ـ ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾.

٩٤ ـ ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي إن كان لا بد من أن تريني ما توعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة ﴿فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي إن أنزلت بهم النقمة يا رب فاجعلني خارجاً عنهم، أرى عذابهم من بعيد، ولكن لا ينالني منه شيء لأني مؤمن بك مصدق بمواعيدك.

قال ابن الجوزي في زاد المسير «إن أريتني ما يوعدون من القتل والجرح والأسر والعذاب، فاجعلني خارجاً عنهم ولا تهلكني بهلاكهم، فأراه الله تعالى ما وعدهم ببدر وغيرها ونجاه ومن معه».

وكانوا ينكرون العذاب ويسخرون منه فأكد وقوعه بقوله:

٩٥ ـ ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴾.

ثم أمره بالصفح عن سيئاتهم، ومقابلتها بما يمكن من الإحسان فقال:

٩٦ - ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾.

إرشاد له ﷺ إلى ما يليق بمنصبه الرفيع من حسن الخلق والمكارم.

ثم أتبع هذا التعليم ما يقويه على ذلك وهو الاستعاذة بالله من همزات الشياطين فقال:

٩٧ - ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾.

﴿وقل رب أعوذ بك﴾ أي ألجأ وأمتنع بك ﴿من همزات الشياطين﴾ هو نخسهاوطعنها، ومنه قيل للعائب للناس: همزة، كأنه يطعن وينخس إذا عاب، وهمزات الشياطين: دفعهم بالإغواء إلى المعاصي والشرور.

ثم أمر نبيه بالتعوذ من أن يحضروه أصلاً فقال:

٩٨ - ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾.

أمره أن يتعوذ بالله من حضور الشياطين بعدمـا أمره أن يتعوّذ من همزاتهم، فإنّهم إذا حضروا الإنسان لم يكن لهم عمل إلاّ الوسوسة والإغراء على الشر والصرف عن الخير.

من مشاهد يوم القيامة

ثم عاد سبحانه إلى ما سبق من قوله: ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً﴾ ومن تكذيبهم وتنزيه نفسه تعالى فقال:

٩٩ - ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾.

والمراد بمجيء الموت أماراته، والمعنى: إنّ هؤلاء الكفار إذا أشرفوا على الموت سألوا الله تعالى عند ذلك الرجعة إلى دار التكليف تمنّوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه، ويطيعوا فيما عصوا من قبل.

١٠٠ - ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

ثم ردّ عليهم بقوله ﴿كلا إنّها كلمة هو قائلها﴾ أي مجرد كلمة يقولها، ولو أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ أي أمامهم وبين أيديهم، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة، وكل شيء بين شيئين فهو برزخ، وهو ها هنا ما بين موت الميت وبعثه.

الصور

ثم وصف يوم البعث مبيناً حال الفريقين فقال:

١٠١ - ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

﴿فإذا نفخ في الصور﴾ هذه نفخة البعث والنشور، والنفخ يكون بآلة خاصة لا يعنينا معرفتها ولا تفاصيل النفخ فيها، ويكفي أن نعلم بأنه تعالى يعرف أمور الآخرة بأمثال ما شوهد في الدنيا، ومن عادة الناس النفخ في

البوقات في بعض المناسبات كالسفن والقطارات، فجعل الله تعالى النفخ في تلك الآلة علامة لخراب الدنيا، ولإعادة الأموات[١] ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ ليس المراد به نفي النسب لأن ذلك ثابت بالحقيقة، فإذن المراد حكمه، وما يتفرع عنه من التعاطف والتراحم والتواصل، والتفاخر، ﴿ولا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله وخبره، فإن لكل واحد منهم إذ ذاك شغلاً شاغلاً، وأما الجمع بين قوله ﴿ولا يتساءلون﴾ وبين قوله في الصافات ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾[٢]، فإنه سؤال تقريع ومخاصمة وتأنيب ولوم فيقول الأتباع للرؤساء لم غررتمونا[٣]؟ وبالنسبة للآية الثانية (٥٠) فهي خاصة بأهل الجنة، وهو كذلك في سورة الطور الآية (٢٥).

١٠٢ ـ ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

١٠٣ ـ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾.

أي من زادت أعماله الصالحة على أعماله السيئة أو لا سيئة له فهو من الفائزين الناجين، ومن زادت سيئاته على أعماله الصالحة أو لا أعمال صالحة له فهو من الخاسرين الذين ضيّعوا أنفسهم وتركوها للنار.

١٠٤ ـ ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾.

أي يحرقها لهب النار ﴿وهم فيها كالحون﴾ والكلوح أن تتقلص الشفتان عن الأسنان كالرؤوس المشوية.

ثم بين سبحانه أنه يقال لهم حينئذ تقريعاً وتوبيخاً:

١٠٥ ـ ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

١٠٦ ـ ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾.

أي غلبت علينا لذاتنا وشهواتنا، فسمى ذلك شقوة، لأنه يؤول إلى الشقاء، وقال الجبّائي: أراد طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا إلى هذه الشقاوة، فأطلق اسم المسبب على السبب، وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بأن لا عذر لهم فيه، ولكنّه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم في سوء صنيعهم.

القــــراءة

﴿شقوتنا﴾ قرأ حمزة والكسائي والحسن، والأعمش[٤] ﴿شقاوتنا﴾ بألف مع فتح الشين والقاف.

ثم عادوا فكرروا ما طلبوه أولاً وقالوا:

---

(١) سبق الكلام على الصور في سورة الأنعام، الآية: ٧٩ وطه، الآية: ١٠٢ وسيأتي تفصيل أكثر في الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) الآية: ٢٧.

(٣) راجع سورة الصافات، الآية: ٢٧.

(٤) هو سليمان بن مهران، أبو محمد الكوفي مولى بني أسد (٦٠ ـ ١٤٨ هـ)، الإمام الجليل، مقرىء الأئمة، صاحب نوادر.

١٠٧ ـ ﴿ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾.

قال الحسن هذا آخر كلام يتكلّم به أهل النار، فيردّ الله عليهم بمنتهى الغلظة والشدة قائلاً:

١٠٨ ـ ﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾.

ومعنى أخسؤوا: انزجروا صاغرين كما تنزجر الكلاب إذا طردت.

ثم عدّد عليهم بعض قبائحهم فقال:

١٠٩ ـ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

هذا بيان للذي من أجله أخسأهم ﴿فريق من عبادي﴾ وهم المؤمنون يدعون الله بالرحمة والمغفرة.

١١٠ ـ ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾.

والمعنى: اتخذتموهم هزواً وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حتى أنسوكم﴾ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة.

القــــراءة

﴿سخرياً﴾ قرأ نافع والكسائي وحمزة، وأبو حاتم عن يعقوب ﴿سخرياً﴾ بضم السين.

ثم ذكر حال المؤمنين ما أوجب الحسرة والندامة للساخرين فقال:

١١١ ـ ﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾.

القــــراءة

﴿أنهم﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿إنّهم﴾ بكسرها على الاستئناف.

١١٢ ـ ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾.

هذا سؤال الله تعالى للكافرين يوم القيامة عند معاينة العذاب، وهو أنه لما سألوا الرجوع إلى الدنيا سألهم ذلك ليبيّن لهم أنهم قد عمروا فيها ما يتذكر فيه من يتذكر، وإن كان قليلاً بالنسبة إلى الآخرة (فيه تقريع وتوبيخ).

القــــراءة

﴿قال﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة والكسائي، ﴿قل﴾ والمعنى قل يا أيها الكافر.

١١٣ ـ ﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴾.

أي احتقر القوم ما لبثوا لما عاينوا من الأهوال والعذاب، فقالوا ذلك، والمعنى: لا ندري كم لبثنا فلذلك قالوا ﴿فاسأل العادين﴾ أي الملائكة الذين يحصون أعمال الخلق.

صدقهم الله في ذلك حيث قال:

١١٤ ـ ﴿ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

وبّخهم على غفلتهم التي كانوا عليها بقوله: ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لو علمتم البعث والحشر لما كنتم تعدونه طويلاً ﴿إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾[1].

ثم زاد في التوبيخ بقوله:

١١٥ ـ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾.

أي أفظننتم أنا خلقناكم باطلاً ولعباً لا لغرض صحيح، ومثله ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾[2]، لتفعلوا ما تريدون ثم إنكم لا تحشرون، ولا تسألون عما كنتم تعملون.

القـــراءة

﴿ترجعون﴾ قرأ حمزة والكسائي بفتحها ﴿ترجعون﴾.

ثم نزّه ذاته عن كل عيب وعبث فقال:

١١٦ ـ ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾.

ثم زيّف طريقة المقلّد من أهل الشرك فقال:

١١٧ ـ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

﴿إنّه لا يفلح الكافرون﴾ إنّه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم، وحسابه عدم فلاحه ووضع الكافرون موضع الضمير وجعل فاتحة السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وأورد في خواتيمها أنه لا يفلح الكافرون، فشتان ما بين الفريقين.

وحين أثنى على المؤمنين في أثناء الكلام بأنّهم يقولون ﴿ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ نبّه في آخر السورة على أنّه قول ينبغي أن يواظب المكلف عليه فقال:

١١٨ ـ ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

أمره سبحانه بالاستغفار لتقتدي به أمته، والله أعلم.

(١) سورة المعارج، الآية: ٦.
(٢) سورة القيامة، الآية: ٣٦.



سورة النور سميت بها لورود قوله تعالى ﴿الله نورالسماوات والأرض﴾.

ختم الله سبحانه سورة ﴿المؤمنون﴾ بأنه لم يخلق الخلق للعبث بل للأمر والنهي وابتدأ هذه السورة بذكر الأمر والنهي وبيان الشرائع فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

هذه ﴿سورة أنزلناها وفرضناها﴾ أي ألزمناكم العمل بما جاء في أحكامها.

القـــراءة

﴿فرضناها﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد ﴿فرَّضناها﴾ على معنى فصلناها.

الزنا وحدّه وحكم الزاني

٢ ـ ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ إذا كانا بالغين ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ أي لا تأخذكم بهما رأفة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها، والمراد بالطائفة جمع من الناس لتحصل العبرة.

القـــراءة

﴿رافة﴾ قرأ ابن كثير بفتح الهمزة ﴿رأفة﴾ وقرأ الباقون بتسكين الهمزة.

٣ ـ ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة﴾ أي أن الزاني وهو وصف لا ينطبق إلاّ على من يفعل الحرام، سواء

أكان مسلماً أو غير مسلم لا يفعل ذلك الفعل الفاحش إلا مع من يرتكب ذلك الفعل معه، ممن ينطبق عليهما ذلك الوصف، فتكون زانية في نظر الإسلام، أو تكون كافرة مشركة بالله لا دين يمنعها ولا يحرم عليها ذلك الفعل بل تستحله ﴿والزانية﴾ سوا أكانت مسلمة أم كتابية ﴿لا ينكحها﴾ أي لا تقبل أن يفعل معها ذلك الفعل ﴿إلا زان﴾ مثلها أو ﴿مشرك﴾ بالله يستحل ذلك الفعل أما المؤمنون المخلصون فذكر الله شأنهم بقوله ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي أنهم يعتقدون حرمته فلا يفعلونه ولا يقربونه، والآية جاءت للتنفير والتنكير من الفعل، وأما ما ذهب إليه بعض المفسرين من أن معنى الآية: الزاني من المسلمين لا يتزوج من أولئك البغايا إلاّ زانية أو مشركة، لأنهن كذلك، والزانية منهن لا يتزوجها إلاّ زان أو مشرك، على ما جاء في تفسير ابن الجوزي والمراغي وتفسير الجلالين وغيرهم.

أقول: هذا التفسير مخالف للقواعد الإسلامية لأمرين، أولها أن المسلم لا يجوز له إطلاقاً أن يتزوج المشركة حتى تؤمن لقوله تعالى ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾[1] وكذلك المشرك لا يجوز له أن يتزوج مسلمة حتى ولو كانت فاسقة أو زانية بنص القرآن، مما يصرف لفظ النكاح الوارد في الآية من أن يكون المقصود منه الزواج إلاّ أن يتحدا في الشرك فلا يكونا مؤمنين لقوله تعالى ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾.

والأمر الثاني: أن الزاني أو الزانية قد سبق ذكر الحكم عليهما بالعذاب حالما يعثر عليهما ويعرف أمرهما الأمر الذي لا يكون بعده إلا التوبة، التي تنفي عنهما صفة الزنى والفسق، والمقارنة بفعل المشركين فلا ينبغي أن ينبذا من المجتمع ويكون لهما مجتمع خاص بالزناة يتزوج بعضهم بعضاً وهذا خلاف القواعد الإسلامية إذ أنّ التوبة تجب ما قبلها وإلاّ فإنّ الحد سوف يتكرر كلّما تكرر الفعل.

رأي ابن جرير الطبري في الآية

قال: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال عني بالنكاح في هذا الموضوع: الوطء، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات، وذلك لقيام الحجة على أنّ الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان، فمعلوم إذا كان ذلك كذلك، أنه لم يعن بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات، ولا ينكح إلاّ بزانية أو مشركة. وإذا كان ذلك كذلك فبين أن معنى الآية: الزاني لا يزني إلاّ بزانية تستحل الزنا أو بمشركة تستحله كذلك.

قال ابن كثير: ومن هنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنّه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صحّ العقد عليها وإلاّ فلا، وعلى ذلك فلا تعارض بين الآية وقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٢.

القذف وحده

٤ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ .

﴿والذين يرمون المحصنات﴾ العفيفات بالزنا ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ عدول يشهدون أنهم رأوهن يفعلن ذلك ﴿فاجلدوهم﴾ أي القاذفين كل واحد منهم ﴿ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ أفادت الآية على أنّ القاذف إذا لم يقم البينة، ترد شهادته ويحكم بفسقه لقوله تعالى: ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾ وذلك في حالة التأكد من كذبه وبراءة المقذوف، والمعنى: بعد أن نفّر سبحانه من نكاح الزانيات والزانين وبين أن ذلك عمل لا يليق بالمؤمنين الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان والتصديق بالرسل، نهى هنا عن رمي المحصنات به وشدّد في عقوبته الدنيوية والأخروية فجعل عقوبته في الدنيا الجلد وألا تقبل له شهادة أبداً، فيكون ساقط الاعتبار في نظر الناس، ملغي القول لا تسمع له كلمة، ولا يستوفى الحد إلا بمطالبة المقذوف ويصح العفو عنه.

٥ - ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ .

﴿إلّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ عملهم من بعد القذف وأظهروا التوبة والندم، فتقبل بعد ذلك شهادتهم وترتفع عنهم صفة الفسق بقوله تعالى: ﴿فإن الله غفور رحيم﴾.

الملاعنة

لما تقدم حكم القذف للأجنبيات عقّبه بحكم القذف للزوجات فقال:

٦ - ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ .

٧ - ﴿ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ .

﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ بالزنا ﴿ولم يكن لهم شهداء إلّا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنّه لمن الصادقين﴾ والمعنى: فشهادة أحدهم التي تدرأ حدَّ القذف عنه أربع شهادات يثبت في كل واحدة زنا زوجته.

القـــراءة

﴿أربع﴾ قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم بفتح العين ﴿أربعَ﴾

والخامسة أي قوله في الشهادة الخامسة بعد أن ذكر فيما سبق أنها زانية يقول هنا ﴿أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾

القـــــراءة

﴿الخامسة﴾ قرأ حفص عن عاصم نصباً حملاً على نصب أربع شهادات، ﴿أن لعنة الله عليه﴾ وقرأ نافع ويعقوب والمفضل ﴿أنْ لعنة، وأنْ غضب﴾ بتخفيف النون فيهما وسكونها ورفع الهاء من لعنة والباء من غضب.

٨ ـ ﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ .

٩ ـ ﴿ وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ .

﴿ويدرؤا عنها العذاب﴾ أي يدفع عنها حد الزنا الذي ثبت بشهادة زوجها ﴿أن تشهد﴾ أي هي في مقابلته ﴿أربع شهادات بالله إنّه لمن الكاذبين﴾ ﴿والخامسة﴾ من شهادتها بعد تكذيبه في الأربع السابقة تقول ﴿أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ ويترتب على الزوجين بعد اللعان:

١ ـ درء الحد عنهما.

٢ ـ ثبوت الفرقة بينهما بفسخ العقد من قبل الحاكم إلى الأبد بتمام اللعان.

٣ ـ انتفاء نسب الولد عن الزوج، وثبوته للزوجة.

٤ ـ وجوب العدة على الزوجة.

١٠ ـ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ .

أي فيما بيّن هذه الأحكام، وفيما أمهل وأبقى ومكّن من التوبة، وجواب لولا محذوف تقديره أي لهلكتم أو فضحتم، أو لكان من أنواع المفاسد، وإنما حسن حذف جواب لولا ليذهب الوهم كل مذهب فيكون أبلغ في البيان، فرب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به

حديث الإفك

إنّه سبحانه لما ذكر من أحكام القذف ما ذكر أتبعها حديث إفك عائشة الصديقة رضي الله عنها وما قذفها به أهل النفاق فقال:

١١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

١٢ ـ ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

١٣ ـ ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ .

١٤ ـ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

١٥ ـ ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ

١٦ ـ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾.

١٧ ـ ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١٨ ـ ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ فأما الإفك فهو الكذب، والعصبة الجماعة ومنكم أي من المؤمنين، وحديث الإفك أن بعض المنافقين رمى السيدة عائشة رضي الله عنها كذباً وبهتاناً، فأنزل الله تعالى براءتها في القرآن صيانة لعرض الرسول ﷺ ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾ الخطاب في الآية لمن ساءه ذلك من المؤمنين وخاصة رسول الله ﷺ وأبا بكر وعائشة وصفوان، ومعنى كونه خيراً لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم على قدر عظيم البلاء، وأنه نزلت فيه بضع عشرة آية فيها تعظيم شأن الرسول ﷺ، وتسلية وتنزيه لأم المؤمنين، وتطهير لأهل البيت، وتهويل للطاعنين فيهم، إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية والآداب العقلية ﴿لكل امرىء منهم﴾ أي العصبة الكاذبة ﴿ما اكتسب من الإثم﴾ أي جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه، ﴿والذي تولّى كبره منهم﴾ كبر الشيء معظمه، عبد الله بـن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وبقي الأمر كذلك قرباً من شهر وعائشة رضي الله عنها تقول﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[1] ﴿له عذاب عظيم﴾.

روى البخاري عن جماعة قالَتْ عائِشَة رضي الله عنها: كانَ رَسُول الله ﷺ إذَا أرادَ سَفراً أقْرَعَ بَينَ أزْوَاجِهِ فأيُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُها خَرَجَ بِها رَسُول الله ﷺ مَعَه، قالَتْ عائشَة: فأقْرَعَ بيننا في غَزْوَةٍ غَزَاها فَخرَجَ فيها سَهْمي فَخَرَجْت مَعَ رَسُول الله ﷺ بَعْدَ ما أنْزل الحِجاب. فكُنْت أُحْمَل في هَوْدجي وأنزل فِيهِ، فَسِرْنا حَتى إذَا فَرَغَ رَسُول الله ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وقَفَل دَنَوْنا مِنَ المَدِينة قافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بالرَّحِيلِ. فَقُمْت حينَ آذَنُوا بالرَّحِيلِ فَمشَيْت حَتى جاوَزْت الجَيْشَ فَلَمَّا قَضَيْت شَأني أقْبَلْت إلى رَحْلي فَلَمَسْت صَدْرِي، فإذَا عِقْدٌ لي مِنْ جَزْعِ ظِفارٍ قَدِ انْقَطَعَ. فَرَجَعْت فالتَمسْت عِقْدِي فَحَبَسَني ابْتغاؤُهُ، قالَتْ: وأقْبَلَ الرَّهْطُ الذِينَ كانُوا يُرَحِّلُوني فاحْتَمَلُوا هَوْدجي فَرحلُوهُ عَلى بعيري الذي كُنْتُ أرْكَبُ عليه وهُمْ يَحْسبُونَ أنّي فِيهِ. وكانَ النِّساءُ إذْ ذَاكَ خِفَافاً لَمْ يَهْبُلْنَ ولَمْ يغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إنما يأكُلْنَ العُلْقَةَ مـن الطَّعامِ فَلَمْ يَسْتَنْكِر القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدجِ حِينَ رَفَعُوهُ وحمَلُوهُ، وكُنْتُ جاريةً حَدِيثَةَ السِّنّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَساروا ووجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا استَمَرَّ الجَيْشُ، فَجئْتُ مَنازِلهمْ ولَيْس بِها منْهُمْ دَاعٍ ولا مُجيبٌ، فَتَيَمَّمتُ مَنزلي الذِي كنْتُ به وظَنَنْتُ أنَّهُمْ سَيفْقِدُونني فيَرْجعُونَ إليَّ فَبَيْنا أنا جالسَةٌ في مَنزِلي غَلَبَتْني عَيْني فنمْتُ وكانَ صَفْوَانُ بن المعَطّلِ السُّلَميُّ ثُمَّ الذَّكْوَانيُّ منْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فأصْبَحَ عندَ مَنزلي

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

فرأى سَوَادَ إنْسانٍ نائمٍ فَعَرَفَني حينَ رَآني. وكانَ رآني قَبْلَ الحِجابِ فاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجاعِهِ حينَ عَرَفَني فَخَمَّرْتُ وجْهي بِجِلْبابي، وواللهِ ما تَكَلَّمْنا بكلمة ولا سمعْتُ منْهُ كَلمَةً غَيرَ استرْجاعِهِ، وهَوَى حَتى أناخَ رَاحلتَهُ فَوَطِىءَ عَلى يَدِها فَقُمْتُ إلَيها فَرَكِبْتُها. فانْطلَقَ يَقودُ بي الرَّاحلَةَ حَتى أَتَيْنا الجَيْشَ مُوغِرينَ في نَحْرِ الظَّهيرَةِ وهُمْ نُزُولٌ، قالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هلكَ. وكانَ الذي تَوَلى كِبْرَ الإفْكِ عبْدُ اللهِ بنُ أُبيّ ابن سَلُولَ. قالَ عُرْوَةُ: أُخبرتُ أَنَّهُ كانَ يُشاعُ ويتحَدَّثُ بِهِ عنْدَهُ فَيُقِرُّه ويَسْتَمِعُهُ ويَسْتوشيهِ. وقالَ عُرْوَةُ أيضاً: لَمْ يُسَمَّ منْ أَهْلِ الإفكِ أيْضاً إلَّا حَسَّانُ بنُ ثابتٍ، ومِسْطَحُ بنُ أُثاثَةَ، وحَمْنَة بنْتُ جَحْشٍ في ناسٍ آخَرينَ لا علم لي بهم غَيرَ أَنهُمْ عُصْبَةٌ كما قالَ اللهُ تَعالى ـ وإنْ كِبْرَ ذَلكَ ـ يُقالُ عَبْدُ اللهِ بنُ أبيّ ابن سَلُول. قالَ عُرْوَةُ: كانَتْ عائشَةُ تَكْرَهُ أنْ يُسَبَّ عنْدَها حَسَّانُ، وتَقُولُ: إنَّهُ الذي قالَ:

فإنَّ أبي ووالِدَهُ وعِرْضي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكم وِقاءُ

قالت عائشَةُ: فَقدِمْنا المَدِينَةَ فاشْتَكَيْتُ حينَ قَدمْتُ شَهْراً، والنَّاسُ يُفيضُونَ في قَوْلِ أصحابِ الإفْكِ لا أشْعُرُ بشَيْءٍ منْ ذَلكَ وهُوَ يَريبُني في وجَعي أنّي لا أعْرِفُ منْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللطفَ الذي كُنت أرى منهُ حينَ أشتَكي، إنما يدخُلُ عليَّ رَسولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تيكُمْ؟ ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فذلكَ يُريبُني ولا أشْعُرُ بالشَّر حتى خَرَجْتُ حينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمّ مِسطَحٍ قِبَلَ المَناصعِ، وكانَ متبرَّزنا وكُنَّا لا نَخْرُجُ إلاَّ لَيْلاً إلى لَيْلٍ، وذَلكَ قَبْلَ أنَ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَريباً مِنْ بُيُوتِنا.

قالَتْ: وأمرُنا أمرُ العَرَبِ الأوَلِ في البرِيَّةِ قِبَلَ الغائِطِ، وكُنَّا نَتَأذَى بالكُنُفِ أنْ نَتَّخِذَها عِنْدَ بُيُوتِنا، قالَتْ: فانْطَلَقْتُ أنا وأُمُّ مِسْطَح وهيَ ابْنَةُ أبي رُهمِ بن المُطَّلبِ بن عَبْدِ منافٍ وأُمُّها بِنْتُ صَخْرِ بن عامِرٍ خالَةُ أبي بكْرٍ الصِّديق، وابنها مِسْطَحُ بنُ أُثاثَةَ بن عبَّاد بن المُطَّلبِ. فأقْبَلتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ قِبلَ بَيْتي حِينَ فَرَغْنا من شأنِنا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطح في مِرْطِها فقالَتْ: تَعِسَ مِسطَحٌ فقلتُ لهَا: بِئْسَ ما قُلْتِ، أتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً فقالَتْ: أيْ هَنْتاهْ ولم تَسْمعِي ما قالَ؟ قالَتْ: وقُلْتُ: ما قالَ؟ فأخبَرتْني بِقَوْلِ أهْلِ الإفْكِ قالَتْ: فازْدَدْتُ مَرَضاً على مَرَضِي فَلَمَّا رَجَعْت إلى بَيْتي دَخلَ عليَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ قالَ: كَيْفَ تِيكم؟ فَقُلتُ لَهُ: أَتَأذَنُ لي أنْ آتي أبَوَيَّ؟ قالَتْ: وأريدُ أنْ أسْتَيْقِنَ الخبَرَ منْ قِبَلِهما، قالَتْ: فأذنَ لي رَسُول اللهِ ﷺ فَقُلتُ لأمي: يا أُمَّتاهُ، ماذَا يَتَحَدَّثُ النَّاس؟ قالَتْ يا بُنَيَّةُ، هَوِّني عَلَيْك فَوَاللهِ لَقَلَّما كانَت امْرَأَةٌ قَط وضيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يحِبُّها، لهَا ضَرائِر إلا أكْثَرْنَ عَلَيها، قالتْ: فَقُلْت سُبْحانَ اللهِ، أو لَقَدْ تَحدَّث النَّاس بهَذا؟ قالَتْ: فَبَكَيْت تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتى أصْبَحْت لا يَرْقَأ لي دَمْع ولا أكْتَحِل بِنَوْمٍ ثُمَّ أصْبَحْتُ أبْكي قالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عليّ بن أبي طالب وأُسامَة بن زَيْدٍ، حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْي يَسْألهُما ويَسْتَشيرهُما في فِرَاقِ أهْلِهِ قالَتْ: فأماً أُسامَةُ فأشارَ عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ بالذي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أهْلِهِ وبالذِي يَعْلَمُ لهُم في نَفْسِهِ. فَقالَ أُسامَةُ: أهلكَ ولا نَعلَمُ إلاَّ خيراً. وأمَّا عَليّ فَقالَ: يا رَسُول اللهِ، لَمْ يُضَيِّق اللهُ عَلَيْكَ والنِّساءُ سِوَاها كَثيرٌ، وسَلِ الجاريَةَ تَصْدُقْكَ. قالَتْ: فَدعا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَريرَةَ فَقالَ: أي بريرَةُ هَلْ رَأيْتِ مِنْ شَيءٍ يُريبُك؟ قالت لَهُ بَريرَةُ: والذِي بَعَثَك بالحَقّ ما رَأيْتُ عَلَيها أمْراً قَطُّ أغمصهُ غَيرَ أنَّها جارِيَةٌ

حَدِيثَةُ السِن تَنامُ عن عجين أهْلِها فَتَأتي الدَّاجِن فَتَأكُلُهُ. قالَتْ: فَقامَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بن أُبيّ وهُوَ على المِنْبرِ فَقالَ: يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، من يَعْذرُني مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغني عَنْهُ أذاهُ في أهْلي؟ واللّهِ ما عَلِمْتُ عَلى أهلي إلا خيراً، ولقد ذَكَروا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاّ خيراً، وما يَدْخُلُ على أهْلي إلاّ مَعي. قالَتْ: فَقامَ سَعد بن مُعاذٍ أخُو بَني عَبْد الأشْهَلِ، فقالَ: أنا يا رَسُولَ اللّهِ أعْذِرُكَ فإنْ كانَ مِنَ الأوْس ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وإنْ كانَ مِنْ إخْوانِنا منَ الخَزْرجِ أمَرْتَنا فَفَعَلْنا أمْرَكَ. قالَتْ. : فَقامَ رَجُل مِنَ الخَزْرَجِ، وكانَتْ أُمُّ حَسان بنْت عَمِّهِ منْ فَخْذِهِ، وهُوَ سَعْدُ بنُ عُبادَة، وهُوَ سَيد الخَزْرَجِ، قالَتْ: وكانَ قَبْلَ ذَلكَ رَجُلاً صَالحاً ولَكِن احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ فَقالَ لِسَعْد: كَذَبت لَعَمرُ اللّهِ، لا تَقْتُلُهُ ولا تَقْدِرُ عَلى قَتْلِهِ، ولَوْ كانَ منْ رَهْطِكَ ما أحْبَبْت أنْ يُقتلَ.

فقام أُسَيْدُ بنُ حُضيرٍ وهُوَ ابنُ عَمّ سَعْدٍ فَقالَ لسَعد بنِ عُبادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ، لَنَقْتُلَنَّهُ فإنَّكَ مُنافِقٌ تُجادِلُ عَنِ المُنافِقِينَ. قالَتْ: فَثارَ الحَيَّانِ الأوسُ والخَزْرَجُ حتى همُّوا أنْ يَقْتَتِلوا ورَسُولُ الله ﷺ قائمٌ عَلى المِنْبرِ، قالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يُخفِّضُهُم حتى سَكَتُوا وسَكَتَ، قالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمي ذَلكَ كُلَّهُ لا يَرْقأ لي دَمْعٌ ولا أكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قالَتْ وأصْبَحَ أبَوايَ عنْدِي وقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَين ويَوْماً لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ وأنا أبْكي فاسْتَأذنتْ علي امْرأةٌ مِنَ الأنْصارِ فأذِنْت لهَا فَجَلَسَتْ تَبْكي مَعي، قالَتْ: فَبَيْنا نحْن عَلى ذَلكَ دَخَلَ رَسُول الله ﷺ عَلَيْنا فسلَّم ثمَّ جَلَس، قالَتْ: ولم يجْلسْ عنْدِي مُنْذ قِيلَ ما قِيلَ قَبْلَها. وقدْ لَبِثَ شَهْراً لا يُوحَى إلَيْهْ في شَأني بِشَيْء، قالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُول الله ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُم قالَ: أمَّا بَعْدُ، يا عائِشةُ إنَّه بَلغني عَنْكِ كَذَا وكذَا، فإنْ كُنْتِ بَريئَةً، فَسيبرِّئُكِ الله، وإنْ كُنْتِ ألممت بذَنْب فاسْتَغْفري الله وتُوبي إلَيْه. فإنَّ العبدَ إذا اعْترَفَ، ثُمَّ تابَ تابَ اللهُ عَلَيْه. قالَتْ: فَلَمَّا قَضى رَسُولُ الله ﷺ مَقالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتى ما أُحسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فقلْت لأبي: أجِبْ رَسولَ الله ﷺ عَنِّي فيما قالَ. فقال أبي: والله ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقُلْتُ لأُمي: أجِيبي رَسُولَ الله ﷺ فيما قالَ، قالَتْ أمّي: واللهِ ما أدرِي ما أقولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقُلْتُ وأنا جاريةٌ حَديثَةُ السِّن لا أقْرأُ منَ القُرآنِ كَثِيراً: إنّي والله لَقَدْ عَلمْتُ لَقدْ سمعتُ هذا الحديثَ حَتى اسَتقَرَّ في أنْفُسِكُمْ وصَدَّقْتمْ بِهِ، فَلَئِنْ قلت لكم إنّي بَرِيئَةٌ لا تُصدِّقُوني ولَئِن اعترفتُ لكُم بأمرٍ والله يعلمُ أنِّي منهُ بَرِيئَةٌ لَتُصدِّقني، فَوَالله لا أجِدُ لي ولَكُمْ مَثَلاً إلاَّ أبا يُوسُفَ حِينَ قالَ ـ فَصَبرٌ جَميلٌ والله المُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُون ـ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فاضْطَجَعْتُ عَلى فِرَاشِي واللهُ يَعْلَمُ أنّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وأنَّ اللهَ مُبَرِّئي ببراءتي ولكِنْ والله ما كُنْتُ أظُنُّ أنَّ الله مُنزِلٌ في شَأني وحْياً يُتْلَى. لَشَأني في نَفْسي كانَ أحْقَرَ مِنْ أنْ يَتَكَلمَ اللهُ في بأمْرٍ ولَكِنْ كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرى رَسُول الله ﷺ في النَّوْمِ رُؤْيا يُبرِّئني اللهُ بها. فَوَالله ما رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلسَهُ ولا خَرَجَ أحَدٌ منْ أهلِ البَيْتِ حَتى أُنْزِلَ عَلَيهِ فأخَذَهُ ما كانَ يأخُذُهُ مِنَ البُرحاءِ حَتى إنَّهُ لَيَتحَدَّرُ مِنْهُ منَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمانِ وهُوَ في يَوْمٍ شاتٍ مِنْ ثقَلِ القَوْل الذي أنزل عَليه، قالَت فَسُرِّي عَنْ رسول الله ﷺ وهُوَ يَضْحَكُ فكانَتْ أوَّلُ كَلِمَة تَكَلَّم بِها أنْ قالَ: يا عائِشَةُ، أمَّا الله فَقَدْ بَرَّأكَ. قالَتْ: فَقالَتْ لي أمّي: قُومي إلَيْه، فَقُلْت. والله لا أقُوم إلَيْهْ فإنّي لا أحْمَدُ إلاَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ، قالَتْ: وأنْزَلَ الله تَعالى ـ إنَّ الذينَ

جاؤوا بالإِفْك عصبَة مِنْكُم ـ العَشر الآيات، ثمَّ أَنْزلَ الله هذَا في بَرَاءتي. قالَ أَبُو بكرٍ الصديق وكانَ يُنْفِق عَلى مِسْطَح بن أثاثة لِقَرابَتِه مِنْه وفَقْره: والله لا أُنفِق على مسْطَحٍ شَيْئاً أبَداً بَعْدَ الذي قالَ لِعائِشَةَ ما قالَ فَأَنْزَلَ الله ـ ولا يأتَلِ أولُو الفَضْل مِنْكُمْ ـ إلى قوْلِه ـ غَفُورٌ رَحِيمٌ ـ قالَ أَبُو بَكْرٍ الصَدِّيق: بَلى والله إنّي لأُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ الله لي. فَرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ التي كانَ يُنْفِق عَلَيْه وقالَ: والله لا أنْزِعُها مِنْه أبداً. قالَتْ عائِشَة: وكانَ رَسُول الله سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْري فَقالَ لِزَيْنَب: ماذَا علِمت أوْ رَأيْت؟ فَقالَتْ: يا رَسُولَ الله أحْمي سَمْعي وبَصَرِي، والله ما عَلِمْت إلاّ خيراً. قالَتْ عائِشَة: وهيَ التي كانَتْ تُسامِيني مِنْ أزْوَاج النَّبيِّ فَعَصَمَها الله بالوَرع، قالَتْ: وطَفِقَتْ أُخْتها حَمْنَة تحارِب لهَا فَهَلكَتْ فِيمَنْ هَلكَ. قالَ ابن شهابٍ: فَهذَا الذي بَلَغَني مِنْ حَديثِ هَؤلاءِ الرَّهْط. ثمَّ قالَ عُرْوَة قالَتْ عائِشَة: والله إنَّ الرَّجُل الذي قِيلَ لَه ما قِيلَ لَيَقُول سُبْحانَ الله، فَوَالـذي نفْسي بيَده ما كَشفْت مِنْ كَنَف أنْثى قَطُّ. قالَتْ: ثمَّ قُتِلَ بَعدَ ذَلكَ في سَبِيل الله.

﴿لولا إذ سمعتموه﴾ أي هلا حين سمعتموه أيّها العصبة الكاذبة ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك عظيم﴾.

والمعنى: هلا حين سمعتم ذلك يا أيها المؤمنون من المنافقين هذا القول الكاذب، فتخلقتم بخلق الإسلام الذي علمكم الله أن تظنوا بالناس خيراً ولا تتهموهم زوراً وبهتاناً دون رأي العين ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾ شاهدوه حتى يقولوا ذلك ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ في حكم الله ثم ذكر القاذفين فقال:

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ ﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾ كان الرجل منهم يلقى الرجل فيقول: بلغني كذا، فيتلقاه بعضهم من بعض ﴿وتلقونه﴾ معناه يلقيه بعضكم إلى بعض ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ من غير أن تعلموا أنه حق ﴿وتحسبونه هيناً﴾ أي سهلاً لا إثم فيه ﴿وهو عند الله عظيم﴾ في الوزر ثم زاد عليهم الإنكار فقال: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ ﴿يعظكم الله﴾ أي ينهاكم ﴿أن تعودوا لمثله﴾ بعد التوبة ﴿أبداً إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿ويبيّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾.

١٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٢١ ـ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي أن يفشو القذف بالفاحشة وهي الزنا ﴿في الذين آمنوا لهم

عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ روت عمرة عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ، فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم، رواه أصحاب السنن الأربعة، وروى أبو صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جلد عبد الله بن أبي بن سلول، ومسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، فأما الثلاثة فتابوا، وأما عبد الله فمات منافقاً.

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ أيها العصبة ﴿ورحمته﴾ بأمة محمد بأن أخّر عنهم عذاب الاستئصال لعاجلكم به ﴿وأن الله رءوف رحيم﴾ حيث لم يعجل شيئاً من ذلك.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي تزيينه لكم قذف المؤمنات ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ أي القبائح ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي ما صلح وطهر من الذنب بالتوبة منه ﴿ولكنّ الله يزكي من يشاء﴾ من الذنب بقبول توبته منه ﴿والله سميع عليم﴾ علم ما في نفوسكم من التوبة والندامة.

آية في أبي بكر الصديق

٢٢ ـ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة﴾ لا يأتل لا يحلف، قال المفسرون: سبب نزولها أن أبا بكر الصديق كان ينفق على مسطح لقرابته وفقره، فلما خاض في أمر عائشة قال أبو بكر: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً، فنزلت هذه الآية فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها عنه أبداً. أما الفضل: فهو التفضل ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ وكان ناس من الصحابة أقسموا كذلك أن لا يتصدقوا على من تكلّم بشيء من الإفك ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾.

جزاء رمي المحصنات العفيفات

بدأ الله سبحانه فبين حكم القاذف أولاً، ثم عقبه بحديث الإفك لاتصاله به، ثم ذكر صنفاً آخر من القذفة وهم المنافقون، وبين ما لهم من الغضب واللعنة، ثم عم الجميع بالوعيد فقال:

٢٣ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾.

٢٤ ـ ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ يَوْمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ العفائف من النساء بالزنا ﴿الغافلات﴾ عن الفواحش والبعيدات عن مواطن الشبه ﴿المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ أي عذبوا بالجلد بالدنيا، وفي الآخرة بالنار ﴿ولهم عذاب عظيم﴾.

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم﴾ وهو إقرارها بما تكلموا به من الفرية، والمعنى: أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض، قاله ابن جرير الطبري ﴿بما كانوا يعملون﴾ من قول وفعل وهو يوم القيامة.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿يوم يشهد عليهم ألسنتهم﴾ بالياء.

﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾ أي حسابهم العدل ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ قال ابن عباس: وذلك أن عبد الله بن أبي، كان يشك في الدين فإذا كانت القيامة علم حيث لا ينفعه علمه يوم ذاك، فقد جفت الصحف ورفعت الأقلام.

ثم ختم الآيات الواردة في أهل الإفك بكلمة جامعة وهي قوله:

٢٦ ـ ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

﴿الخبيثات﴾ من الكلمات ﴿للخبيثين﴾ أي لا يتكلم بهذه الكلمات إلا الشخص الخبيث من الرجال والنساء، ﴿والخبيثون﴾ من الناس ﴿للخبيثات﴾ مما ذكر من الكلمات ﴿والطيبات﴾ مما ذكر من الكلمات ﴿للطيبين﴾ من الناس أي من الصنفين ﴿والطيبون﴾ منهم ﴿للطيبات﴾ مما ذكر من الكلمات، أي اللائق بالخبث مثله، وبالطيب مثله ﴿أولئك﴾ الطيبون من الرجال، والطيبات من النساء ومنهم عائشة وصفوان ﴿مبرءون مما يقولون﴾ أي يقول الخبيثون والخبيثات، من الرجال والنساء فيهم ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

جاء في تفسير المراغي المعنى الإجمالي للآية قال: بعد أن برأ سبحانه عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامي المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله، أردف ذلك بدليل ينفي الريبة عن عائشة بأجلى وضوح، ذاك أن السنة الجارية في الخلق مبنية على مشاكلة الأخلاق والصفات، فالطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، ورسول الله من أطيب الطيبين فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات، على مقتضى المنطق السليم والعادة الشائعة بين الخلق.

الإذن في دخول البيت

لما كانت الخلوة طريقاً إلى التهمة ولذلك وجد أهل الإفك سبيلاً إلى إفكهم شرع أن لا يدخل المرء بيت غيره إلّا بعد الاستئذان فقال:

٢٧ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

القــــراءة

﴿بيوتاً﴾ قرأ نافع يرويه قالون عن نافع بكسر الباء.

٢٨ ـ ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾.

٢٩ ـ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا﴾ أي تستعلموا من العلم وتستأذنوا ﴿وتسلموا على أهلها﴾ فيقول الواحد السلام عليكم أأدخل؟ ولا يجوز أن تدخل بيت غيرك بدون استئذان ﴿ذلكم خير لكم لعلّكم تذكّرون﴾ ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾ أي إن وجدتموها خالية ﴿فلا تدخلوها حتى يُؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم﴾ ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ كالمعدّة ليتمتع بها من يحتاج إليها كالفنادق والدكاكين والحمامات ونحوها مما فيه حق التمتع لكم، كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء والاغتسال لأن السبب الذي لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس، والوقوف على أسرارهم غير موجود فيها ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾.

الأمر بغض البصر وآية الحجاب

ثم بين سبحانه ما يحلّ منه فقال:

٣٠ ـ ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

٣١ ـ ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ عما لا يحلّ لهم نظره ﴿ويحفظوا فروجهم﴾ عما لا يحلّ لهم فعله بها ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي خير ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ بالأبصار والفروج فيجازيهم.

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ عما لا يحل لهن نظره ﴿ويحفظن فروجهن﴾ عما لا يحل لهن فعلُه، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله، إنْ أبيتم إلّا الجلوس فأعطوا الطريق حقها، قالوا يا رسول الله وما حق الطريق، قال «غض البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[1] ﴿ولا يبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها﴾ المراد بالزينة في المرأة كل ما يثير الفتنة من جسدها ولباسها، واستثنى الوجه والكفين، والرجل لأنها داخلة فيما يظهر من المرأة غالباً فيشملها قوله تعالى ﴿إلّا ما ظهر منها﴾ وظهور الأرجل أكثر من الوجه واليد، ولا يوجد حديث صحيح يحدد ما يظهر من المرأة ولم ينقل إلينا أحد أن الصحابيات كن يلبسن شيئاً في أقدامهن، ولم تظهر الجوارب إلّا في عصور متأخرة جداً بعد عصر الصحابة ﴿وليضربن بخُمرهن على جيوبهن﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة غالباً رأسها، والجيب: هي الفتحة التي في الصدر، وفيها إثارة للفتنة.

والمعنى: وليلقين مقانعهن على الجيوب لتستر بذلك صدورهن، وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء شبيه الإلصاق قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كن يسدلن خمرهن من خلفهن وكانت جيوبهن من قدام واسعة، فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن، فأمر الله النساء أن يضربن مقانعهن على الجيوب لتستر بذلك أعناقهن ونحورهن وما حولها من شعر وزينة ﴿ولا يبدين زينتهن إلّا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن﴾ قال الشيخ حسنين مخلوف: المختصات بهن بالصحبة والخدمة، مسلمات كن أو غير مسلمات، وقال وما روي عن السلف من منع تكشف المسلمات للكافرات محمول على الاستحباب، أقول: وهو الأولى، ﴿أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ غير أولي الإربة، أمثال العنين والمخنث والشيخ الفاني الذين يتبعون الرجل للخدمة والطعام وليس لهم شهوة في غشيان النساء ولا يشتهون زينتهن، وأولي الإربة الحاجة ومعناه غير ذوي الحاجات إلى النساء ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ لم يعرفوها، وعورات النساء كل ما تخجل المرأة أن يراه الأجنبي ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ قال ابن كثير: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي منه، دخل في هذا النهي ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون﴾.

حكم العورة

الرجل: أما عورة الرجل مع النساء والرجال فهي ما بين السرة إلى الركبة، ولا يجوز لرجل النوم مع الآخر، ولا المرأة مع المرأة في فراش واحد في غطاء واحد.

---

(١) رواه الجماعة.

المرأة: أما عورة المرأة لغيرها من النساء فمثل الرجل ما بين السرة إلى الركبة، وأما الحد الذي يجوز أن يطلع عليه الأقارب بالنسب أو الرضاع أو الصهر والأطفال والتابعون غير أولي الإربة من الرجال ونساء الكفار فهو ما يمكن أن يسمى زينة، وهو ما ينكشف عادة في المنزل كرأسها وأطرافها ورقبتها وشعرها، أما الرجال الأجانب من المرأة فلا يجوز أن يروا من المرأة إلّا ما ظهر منها وهو ما ذكرناه آنفاً، والضرورات تبيح المحظورات، فإذا ما احتاج الطبيب أن ينظر إلى المرأة أو شيء من بدنها للمعالجة فله ذلك.

القـــراءة

﴿غير أولي الإربة﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿غير﴾ نصباً، وقرأ الباقون ﴿غير﴾ بالخفض.

الترغيب في الزواج

وحين أمر بغضّ الأبصار وحفظ الفروج أرشد بعد ذلك إلى طريق الحل فيما تدعو إليه الشهوة فقال:

٣٢ ـ ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ جمع أيم وهم الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء يقال رجل أيم وامرأة أيم، ورجل أرمل، وامرأة أرملة، ورجل بكر، وامرأة بكر: إذا لم يتزوجا، وامرأة ثيب ورجل ثيب إذا كانا قد تزوجا.

الزواج من أسباب الرزق

﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾ هذا أمر من الله على سبيل الندب للمجتمع بتزويج الرجال والنساء حتى ولو كانوا إماء فقراء فسوف يغنيهم الله من فضله.

٣٣ ـ ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾ أي ليطلب العفة عن الزنا والحرام بالصبر من لا يجد ما ينكح به من صداق ونفقة، أو من لم يحصل على الزوجة التي تناسبه بعد ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ يوسع عليهم ويسهل أمرهم ﴿والذين يبتغون الكتاب﴾ أي العبيد والإماء الذين يطلبون المكاتبة، على أنفسهم بأن يشتغلوا ويدفعوا مالاً لسيدهم ﴿مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ هذا أمر للوجوب والخير هنا إن علمتم أن في مكاتبتهم خيراً لهم ولكم بأن كان لهم محل كسب وعيشة كريمة وكانت نيتهم في ذلك طلب الحرية والخير، لا للشر والضرر ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ خطاب للأغنياء بأن يعطوا من الزكاة كل

مكاتب يتقدم إليهم بحسب الإمكان، وللسادة بأن يكرموا عبيدهم بعد سراحهم وعتقهم ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾ والمعنى: لا تطلبوا من جواريكم أن يفعلن الزنا مع الغير كرهاً وقد تعففن عنه وطلبن الزواج ﴿لتبتغوا﴾ أي لتحصلوا من ذلك ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ وهو كسبهن وبيع أولادهن ﴿ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور﴾ لهن ﴿رحيم﴾ بهن.

والقول بأن مفهوم المخالفة في الآية إباحة البغاء للفتيات في حالة عدم رغبتهن في التحصن قول باطل، فالله سبحانه وتعالى أتى به توبيخاً لهم على ما كانوا يفعلون وإبرازاً لفعلهم السيء، وتشهيراً به وقد جاء مثل هذا الأسلوب في قوله تعالى ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ فليس الغرض أن يحرم عليهم إكراه الفتيات على البغاء في حالة إرادتهن التحصن، وأن يبيحه لهن إذا لم يردن التحصن، ولكنه يبشع ما يفعلونه ويشهر به، ويقول لهم: لقد بلغ بكم الأمر أنكم تكرهون فتياتكم على البغاء وهن يردن التحصن، وهذا أفظع ما يصل إليه إنسان مع أهل بيته[1].

وهذه نزلت على سبب، روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سفيان عن جابر، قال: كان عبد الله بن أبي ابن سلول (المنافق) يقول لجارية له اذهبي فابغينا شيئاً، فنزلت، قال المفسرون: وكان له جاريتان معاذة ومسيكة، فكان يكرههما على الزنا، ويأخذ منهما الضريبة، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون إماءهم فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك الفعل الفاحش وربما دخل في النهي من عضل بناته وحجرهن عن الزواج، برد الخطاب عنهن مما يُلجئهن للزنا وهن يردن التحصن بالزواج فكان إكراهاً للزنا بطريق غير مباشر.

وحين فرغ من الأحكام وصف القرآن بصفات ثلاث فقال:

٣٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿الآيات المبينات﴾ أي الموضحات أو الواضحات في معاني الحدود والأحكام، وغيرها ولا سيما الآيات التي ثبتت في هذه السورة، والصفة الثانية: كونه ﴿مثلاً من الذين خلوا﴾ أي كأمثال الذين مضوا من القصص المضروبة لهم، فإن في قصة عائشة رضي الله عنها ليس بأقل من العجب في قصة يوسف ومريم وما اتهما به، والصفة الثالثة: كونه موعظة ينتفع بها المتقون خاصة.

القــــراءة

﴿مبينات﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم، بفتح الياء ﴿آيات مبينات﴾.

نور الله في خلقه دليل قدرته

لما بين سبحانه من الأحكام ما بين، أردفها على عادة القرآن بالإلهيات، وقدّم لذلك مثلين، أحدهما في

---

(١) راجع تفسير الشيخ شلتوت ص ١٥٠ ط دار الشروق.

أنّ دلائل الإيمان في غاية الظهور، والثاني: أن أديان الكفر في نهاية الظلمة فقال:

٣٥ ـ ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿الله نور السماوات والأرض﴾ أي خالق السماوات والأرض وباعث الحياة بمن فيها بما في ذلك الإبصار والبصيرة، وبيان هذا أن النور في اللغة: الضياء، وهو الذي تصل به الأبصار إلى مبصراتها وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهمّ لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهنّ. . . الحديث» ﴿مثل نوره﴾ أي مثل دعوة الحق للإيمان بالله وتوحيده في قلب المؤمن ﴿كمشكاة﴾ القنديل ﴿فيها مصباح المصباح في زجاجة﴾ أي الفتيلة الموضوعة فوق القنديل وكلها في زجاجة لتضيء، والزجاجة هي الأنبوب ﴿الزجاجة كأنّها كوكب درّي﴾ الدري مضيء من الكواكب الدراري، التي يطلعن عليك وإنما ذكر الزجاجة لأن النور في الزجاجة أشدّ ضوءاً من غيره.

﴿يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ بل بينهما فلا يتمكن منها حر ولا برد مضران ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ لصفائه ﴿نور على نور﴾ النار على الزيت ونور الزجاجة، قال ابن كثير: النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا، ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلّا بصاحبه ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ أي القرآن ﴿ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ قال ابن جرير الطبري ويمثّل الله الأمثال والأشياء للناس كما مثّل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة.

القــــراءة

﴿دري﴾ قرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم ﴿درىء﴾ بضمّ الدال مهموزاً، من الدرء وهو الدفع، وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿دِرىء﴾ مهموزاً بكسر الدال.

﴿توقد﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿تَوَقَّدَ﴾ بالتاء وفتح الواو والدال، فعل ماض، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿تُوْقَدُ﴾ بالتاء مضمومة.

المساجد بيوت الله

٣٦ ـ ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾.

﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ المراد بالبيوت المساجد وأن ترفع تبنى وتعظم، ويوحد فيها اسمه ويتلى كتابه، والغدو بمعنى الغدوات أي البكرة والآصال: العشايا بعد الزوال.

٣٧ ـ ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ وهو يوم القيامة، وذكر الله عام في العبادة وغيرها، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من باب ذكر الخاص بعد العام.

٣٨ ـ ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا﴾ بحسناتهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ سبق تفسيره في آل عمران آية (٢٧).

القــــراءة

﴿يسبح﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿يُسبَّح﴾ بفتح الباء على المبني للمجهول.

المحرومون من نور الله

وحين بين حال المؤمن أنّه يكون في الدنيا في النور، وبسببه يكون متمسكاً بالعمل الصالح، وفي الآخرة يفوز بالنعيم المقيم، أتبعه بيان أنّ الكافر يكون في الدنيا في أنواع الظلمات، وفي الآخرة في أصناف الحسرات، وضرب لكل من حاليه مثلاً أما المثل الدال على خيبته في الآخرة فذلك قوله:

٣٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ السراب ما رأيته من الشمس كالماء نصف النهار ويجري على وجه الأرض كأنه ماء، والقيعة والقاع واحد: وهو المنبسط من الأرض ﴿يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب﴾ شبّه الله الكافر الذي يظن أن عمله قد نفعه عند الله يوم القيامة، كظن رجل أصابه شدة العطش فظنّ أن السراب ماء ولما وصله لم يجده شيئاً فقدم على الله فجازاه بعمله، وهذا مثل ضربه الله سبحانه.

٤٠ ـ ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ وهذا مثل آخر لقلب الكافر وعمله، واللجي العميق ﴿يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض﴾ والمعنى يتبع الموج موج آخر فوقه، حتى كان بعضه فوق بعض وفوق كل ذلك غيم مظلم يحجب نور الشمس فهي ظلمات متعدّدة بلا شك ﴿إذا أخرج يده﴾ الإنسان الذي في تلك الحالة ﴿لم يكد يراها﴾ من الظلمة ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً﴾ يهتدي به ﴿فما له من نور﴾ والمراد به نور الإيمان واليقين.

القـــراءة

﴿سحاب﴾ قرأ ابن كثير في رواية القواس ﴿سحابٌ﴾ منوناً، و ﴿ظلماتٍ﴾ مكسورة التاء.

الأدلة الكونية على وجود الله

ولما وصف أنوار المؤمنين وظلمات الكافرين صرح بدلائل التوحيد على قدرته ووحدانيته فقال:

٤١ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿ألم تر أن الله يسبّح له من في السماوات والأرض﴾ من العقلاء ومن التسبيح صلاة، وفيها دلالة على وجود من يعقل في السماوات والأرض ومن جملتها الملائكة وبنو آدم، ثم ذكر ما لا يعقل فخصّه بالذكر بقوله ﴿والطير صافات﴾ باسطات أجنحتهن وقت الطيران في الهواء ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي كل من الجملة التي ذكرها أي كل مسبح قد علم صلاته التي تليق بحاله أو صلاة الله التي كلّفه بها ﴿والله عليم بما يفعلون﴾.

ثم بين أن المبدأ منه والمعاد إليه فقال:

٤٢ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

ثم ذكر دليلاً آخر من الآثار العلوية فقال:

٤٣ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾.

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً﴾ يسوقه برفق ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي بضم بعضه إلى بعض، فيجعل القطع المتفرقة قطعة واحدة والسحاب لفظه لفظ الواحد، ومعناه الجمع ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ بعضه فوق بعض طبقات ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ الودق المطر: والخلال جمع خلل وهي مخارجه ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ والمعنى: أن الله ينزل بعض البرد من السماء من جبال في جو السماء وهو بخار يجمد بعد ما استحال قطرات ماء، ويقول علماء النحو إنه استغني عن ذكر المفعول الذي هو ﴿برداً﴾ للدلالة عليه ﴿فيصيب

به﴾ أي البرد النازل من جبال السماء المتكثفة ﴿من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ والمعنى: أن لهذا السحاب برقاً يضيء بشدة وسرعة حتى ليكاد يخطف الأبصار، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة إذ فيه توليد الضد من الضد، ففيه توليد النار من الماء.

٤٤ ـ ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾.

﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يأتي بكل منهما بدل الآخر وفي سورة الزمر يقول الله: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل﴾(١) وفي التقلب والتكوير إشارة إلى أن الأرض تتحرك وتدور فيحدث ذلك بحركتها حول نفسها ﴿إنّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ لأصحاب البصائر والعقول على قدرة الله تعالى ووحدانيته.

ثم ذكر دليلاً آخر من عجائب خلق الحيوان فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾.

﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ والمراد به جميع الحيوان، وهل المراد أن أصل خلق كل دابة من الماء أم المراد به النطفة المنوية، إذ أن بعض الأجناء لم يخلقهم الله من الماء لكنّهم لا يعيشون بدون الماء كما قال الله عز وجل في سورة الأنبياء ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّ﴾ الآية (٣٠)، ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالزواحف وإنما هذا على سبيل التشبيه بالماشي، لأن المشي لا يكون على البطن ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالطيور والإنسان ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالبهائم والأنعام ﴿يخلق الله ما يشاء إنّ الله على كل شيء قدير﴾.

وحين فرغ من إثبات هذه الدلائل أراد أن يبين أحوال المكلفين وأن فيهم منافقين فقدم لذلك مقدمة وهي قوله:

٤٦ ـ ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

فقد حذف العاطف هنا بخلاف قوله تعالى ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً﴾(٢) لأن المقصود هناك ما سبق من التكاليف والمواعظ والغرض ها هنا توطئة مقدمة لما يجيء عقيبه من حال أهل النفاق والوفاق فقال:

المنافقون

٤٧ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

---

(١) الآية: ٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٤.

﴿ويقولون آمنا بالله﴾ أي المنافقون ﴿وبالرسول وأطعنا﴾ فيما حكم الله ورسوله ﴿ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك﴾ الحكم وبعد قولهم آمنا فيعرضون إلى غيركم ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ الذين يعرضون عن حكم الله ورسوله.

٤٨ ـ ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾.

﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ حسب القرآن ﴿إذا فريق منهم معرضون﴾.

٤٩ ـ ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾.

﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ ومعنى الكلام: أنهم كانوا يعرضون من حكم الرسول عليهم لعلمهم أنه يحكم بالحق، وإن كان الحق لهم على غيرهم أسرعوا يطلبون حكم رسول الله مذعنين واثقين راضين لثقتهم أنّه يحكم لهم بالحق.

٥٠ ـ ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا﴾ أي أفيهم كفر باق أم أنهم شكوا في كون القرآن من الله، وهو استفهام ذم وتوبيخ، والمعنى: أنهم كذلك وإنّما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمّهم ﴿أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾ في الحكم فيظلموا فيه، والحيف: معناه الميل في الحكم، يقال حاف في قضيته أي جار ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ لغيرهم بالاعتداء وعلى أنفسهم بالكفر.

المؤمنون

لما حكى سيرة المنافقين وما قالوه ذكر ما كان يجب أن يفعلَه ويسلكَه المؤمنون فقال:

٥١ ـ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

٥٢ ـ ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾.

القــــراءة

﴿يتقه﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بكسر القاف والهاء، وبياء في الوصل ﴿يتقهي﴾ وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم، ساكنة الهاء وقرأ نافع بكسر القاف والهـاء ﴿يتقهِ﴾.

ثم حكى عن المنافقين أنهم يريدون أن يؤكدوا أساس الإيمان بالأيمان الكاذبة فقال:

٥٣ ـ ﴿ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة ﴿لئن أمرتهم ليخرجن﴾ أي لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك، وذلك بعد ما بيّن الله إعراضهم وامتناعهم عن قبول حكمه عليه الصلاة والسلام أتوه فقالوا ذلك ﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة﴾ أي طاعتكم لله ولرسوله معروفة فإنها باللسان دون القلب والفعل ﴿إنّ الله خبير بما تعملون﴾.

٥٤ ـ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولّوا﴾ أي فإن تتولوا وتعرضوا، حذفت إحدى التاءين ﴿فإنما عليه ما حمّل وعليكم ما حمّلتم﴾ أي على الرسول ما كلّف به من التبليغ للرسالة وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة واتباع الأوامر ﴿وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلّا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه هداهم ولا الدخول في قلوبهم.

والقول بأن الآية معارضة بآية السيف في غير محله إذ أن الآية صالحة للعمل بها في الأزمنة بعد النبي ﷺ وقد أجبنا على ذلك في عدة مواضع، قال ابن الجوزي: والقول بالنسخ ليس بصحيح.

٥٥ ـ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً﴾ لأنهم كانوا مظلومين مقهورين من الكفار، قال ابن كثير: هذا وعد من الله تعالى لرسوله بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض وليبدلنّهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم وقد ظهر صدقه بفتح مشارق الأرض ومغاربها لهذه الأمة لأنهم ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ قال أبو العالية: من كفر بهذه النعمة.

٥٦ ـ ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

٥٧ ـ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ وعد للنبي بالنصرة أي لا تظن أن الذين عاندوك وكذّبوك سيفلتون من قدرة الله وعذابه بل الله قادر عليهم في كل وقت ﴿ومأواهم النار ولبئس المصير﴾ أي بئس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه.

آداب الدخول في أوقات النوم

ثم عاد إلى ما انجر منه الكلام وهو الحكم العام في باب الاستئذان فذكره هنا على وجه أخصر فقال:

٥٨ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ أي قبل الدخول عليكم ﴿والذين لم يبلغوا الحلم منكم﴾ الصغار من الأطفال قبل البلوغ ﴿ثلاث مرات﴾ في ثلاثة أوقات ﴿من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء﴾ حين يأوي الرجل إلى فراشه مع زوجته ﴿ثلاث عورات لكم﴾ والمعنى هذه ثلاث عورات في هذه الأوقات لأن الإنسان يضع فيها ثيابه فربما بدت عورته ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي بعد مضي هذه الأوقات في عدم الاستئذان فرفع الحرج عن الفريقين ﴿طوّافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبيّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾.

القــــراءة

﴿ثلاثَ عورات﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بنصب الثاء ﴿ثلاث﴾.

٥٩ ـ ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾ أي وإذا بلغ الصغار مبلغ الرجال وأصبحوا في سن التكليف ﴿فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أي فعلّموهم الأدب بأن يستأذنوا في كل الأوقات كما يستأذن الرجال البالغون ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾.

القواعد من النساء والعجز

ثم بيّن حكم النساء اللواتي خرجن عن محل الفتنة والتهمة فقال:

٦٠ ـ ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿والقواعد من النساء﴾ العجز، واحدها قاعد لقعودها عن الحيض والولد لكبر سنهن ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي لا يطمعن في الزواج لانعدام دوافع الشهوة ﴿فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهن﴾ أي لا حرج ولا إثم عليهن في أن يضعن ثيابهن كالرداء والجلباب والقناع الذي فوق الخمار، لا جميع الثياب، ويظهرن أمام الرجال بملابسهن المعتادة التي لا تلفت انتباهاً ولا تثير شهوة ﴿غير متبرّجات بزينة﴾ أي غير متظاهرات بالزينة لينظر إليهن، والتبرج إظهار المرأة محاسنها ﴿وأن يستعففن﴾ فلا يضعن تلك الثياب ﴿خير لهن﴾ في حالة الخشية من الفتنة ﴿والله سميع عليم﴾ أي يعلم خفايا النفوس ويجازي كل إنسان بعمله، وفيه وعد وتحذير.

رفع الحرج في الدين

ثم ختم السورة بسائر الصور التي يعتبر فيها الإذن فقال:

٦١ ـ ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي أنّ أهل الأعذار من المذكورين ساقط عنهم تكليف ما لا يطيقونه من الشرع ومن جملة ذلك الجهاد، ولما ظن بعض الناس من الاجتماع على المائدة وتحرجوا بعد نزول آيات الاستئذان، ناسب أن يبيّن الله رفع الحرج في ذلك بعد أن تكلّم على رفع الحرج عن أهل الأعذار في الجهاد، وغيره فقال ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ أي في بيوتكم ﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه﴾ أي البيوت التي سلّم أهلها إليكم مفاتيحها لتأكلوا منها وتدخلوها ﴿أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم﴾ سلموا على من فيها من الناس ﴿تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ حيّوهم بتحية الإسلام ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلّكم تعقلون﴾.

لما تقدم ذكر المعاشرة والجلوس مع الأقرباء والمسلمين بيّن سبحانه في هذه الآية كيفية المعاشرة وآداب المجلس مع رسوله فقال:

٦٢ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ أي الكاملون في الإيمان ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ أمر هام فيه مصلحة للمسلمين نحو الجهاد والجمعة والعيد ﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه إنّ الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إنّ الله غفور رحيم﴾.

ثم حثّهم على طاعة رسوله بقوله:

٦٣ ـ ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ بأن يقولوا يا رسول الله ، ولا يقولوا يا محمد كقول بعضهم لبعض يا فلان ﴿قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لواذاً﴾ أي يخرجون من المسجد في الخطبة من غير استئذان خفية مستترين بشيء ، وقد للتحقيق ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ بلاء فيه اختبار ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ في الآخرة.

ثم بين كمال قدرته وعلمه فقال:

٦٤ ـ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ .

﴿ألا إنّ لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي ما في أنفسكم وما تنطوي عليه ضمائركم من الإيمان والنفاق ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ في الآخرة ﴿فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾.



سورة الفرقان: سميت لورود كلمة الفرقان في أول السورة، اتصلت هذه السورة بسورة النور اتصال النظير بالنظير، فإن مختتم تلك السورة تتضمن أن لله ما في السموات والأرض وأنه بكل شيء عليم، ومفتتح هذه السورة أن له ملك السموات والأرض سبحانه من قدير حكيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾ القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل ﴿على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾.

معنى القضاء والقدر

ثم وصف ذاته بصفاته الأربع فقال:

٢ ـ ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾.

أي جعل لهذه الأشياء المخلوقة خواصها المعينة كخلق خاصية الإحراق في النار وفي الخشب خاصية الاحتراق وفي السكين خاصية القطع، كما خلق في الإنسان الغرائز والحاجات العضوية، وجعل فيها خاصيات معينة كخواص الأشياء، مثل خلقه خاصية الميل الجنسي في غريزة النوع، والحاجات العضوية كالجوع والعطش، وجعلها لازمة لها حسب سنة الوجود واقتضاء الله عز وجل.

أما القضاء: فهو خلق الله الأشياء من العدم، كما يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[١] وكذلك في آل عمران وكما في سورة مريم ﴿سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[٢] وأفعال العباد لا تخرج عن قضاء الله وقدره، فما وقع على الإنسان أو صدر منه رغم إرادته فهو من الدائرة التي تسيطر عليه لا حساب عليه فيها لأنّها من القضاء، أما ما صدر منه من أفعال بإرادته واختياره فهي

(١) الآية: ١١٧.
(٢) الآية: ٣٥.

من الدائرة التي يسيطر عليها ويحاسب عليه لأنّها من القدر، فمن قرّب النار من الخشب، أو وضع السكين في اللحم فقد كسب فعلاً بإرادته.

ثم أوضح تزييف مذاهب عبدة الأوثان قائلاً:

٣ ـ ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾.

﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً﴾ أي لا تملك آلهتهم أن تميت أحداً ولا أن تحيي ﴿ولا حياة ولا نشوراً﴾ بعثاً بعد الموت.

وحين فرغ من بيان التوحيد ونفي الأنداد شرع في بيان شبهات منكري النبوة والأجوبة عنها فقال:

٤ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ﴾.

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه﴾ يقصدون القرآن بأنه كذب ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ يعنون اليهود ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ كفراً.

٥ ـ ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

﴿وقالوا أساطير الأولين﴾ أكاذيب جمع أسطورة ﴿اكتتبها فهي تملى عليه﴾ ليحفظها ﴿بكرة وأصيلاً﴾ فقال الله رداً عليهم:

٦ ـ ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

٧ ـ ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾.

﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام﴾ أنكروا أن يكون الرسول بشراً ﴿ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك﴾ أي هلا أنزل معه ملك يساعده، إذ أنهم سألوا النبي ﷺ أن يرسل معه ملك ﴿فيكون معه نذيراً﴾.

٨ ـ ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ﴾.

﴿أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي بستان يأكل من ثماره فيكتفي عن العمل والكسب ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلّا رجلاً مسحوراً﴾.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿نأكل منها﴾ بالنون.

٩ ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ يا محمد ﴿فضلّوا﴾ عن الحق ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ فلا يجدون طريقاً إلى القدح في نبوة النبي ﷺ.

وحين حكى شبههم ومطاعنهم مدح نفسه بما يلجمهم ويفحمهم فقال:

١٠ ـ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾.

﴿تبارك﴾ تكاثر خير الله ﴿الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ مما قالوه في الدنيا، أي لو شئت لأعطيتك في الدنيا خيراً، لأنه شاء أن يعطيه ذلك في الآخرة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿ويجعل لك قصوراً﴾ برفع اللام على الابتداء، قطعوه عما قبله، والمعنى: سيعطيك الله في الآخرة أكثر مما قالوا.

١١ ـ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾.

يعني ناراً مستعرة مشتدة.

١٢ ـ ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾.

﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً﴾ غلياناً كالغضبان إذا غلى عقله وضاق صدره من الغضب ﴿وزفيراً﴾ صوتاً شديداً، أو سماع التغيظ.

وحين وصف حال الكفار إذا كانوا بالبعد من جهنّم، وصف حالهم عندما يلقون فيها فقال:

١٣ ـ ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾.

﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾ والمعنى: أن النار تضيق على الكفار كما يضيق الزج على الرمح، وهي الحديدة التي في أسفل الرمح الذي يقاتل به في الحرب، وقد قرنوا مع الشياطين، والثبور الهلكة.

القــــراءة

﴿ضيقاً﴾ قرأ ابن كثير ﴿ضيقاً﴾ بالتخفيف.

١٤ ـ ﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ .

﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ والمعنى هلاكهم أكثر من أن يدعوا مرة واحدة، وشأن الكفار في جهنّم أنهم ينادون يا ثبوراه، أي وا هلاكاه.

ثم وبخهم بقوله:

١٥ ـ ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾ .

﴿قل أذلك خير﴾ يعني السعير ﴿أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء﴾ أي ثواباً ﴿ومصيراً﴾ أي مرجعاً.

١٦ ـ ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ .

﴿لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسئولاً﴾ أي لهم فيها ما يشاءون ويشتهون من المنافع والملذات التي وعد الله بها المؤمنين المتقين وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ﴿خالدين كان على ربك وعداً مسؤلاً﴾ أي خالدين مؤبدين لا يفنون فيها، قال ابن عباس معناه أن الله سبحانه وعد لهم الجزاء فسألوه الوفاء فوفى، وقيل معناه أن الملائكة سألوا الله ذلك لهم فأجيبوا إلى مسألتهم وذلك قولهم:﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾.

١٧ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ .

﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾ أي ويوم يبعثهم محشورين مع معبوداتهم من دون الله قال مجاهد: يعني (عيسى والعزير والملائكة) وقال عكرمة والضحاك يعني الأصنام.

﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ أي فيقول الحق تبارك وتعالى لهؤلاء المعبودين وذلك على سبيل التهكم والاستهزاء يقول لهؤلاء الكفرة الفجرة الذين اتخذوا لله أولياء من دونه.

القـــراءة

قرأ أبو جعفر وابن كثير وحفص ويعقوب: ﴿ويوم يحشرهم﴾ بالياء والباقون بالنون، وقرأ ابن عامر ﴿فنقول﴾ بالنون والباقون بالياء.

١٨ ـ ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ .

والبور: الهلكى، وهو جمع الباير، وقيل هو مصدر الاثنين، ولا يجمع ولا يؤنث، بارت السلعة إذا كسدت.

﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ أي قال المعبودون من الملائكة والإنس أو الأصنام إذا أحياهم الله وأنطقهم تنزيهاً لك عن الشريك وعن أن يكون معبود سواك وليس لنا أن نوالي أعداءك، بل أنت ولينا من دونهم، وقيل معناه ما كان يجوز لنا وللعابدين وما كان يحق لنا أن نأمر أحداً يعبدنا ولا يعبدك ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾ أي ولكن طولت أعمارهم وأعمار آبائهم ومتعتهم بالأموال والأولاد بعد موت الرسل حتى نسوا الذكر المنزّل على الأنبياء وتركوه فكانوا قوماً هلكى فاسقين. ولما بين حال المعبودين وتَبرؤهم من عَبَدَتهم قال:

١٩ ـ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾.

﴿فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي فقد كذبكم المعبودون أيها المشركون بقولكم إنهم آلهة شركاء لله. ومن قرأ بالياء ﴿يقولون﴾ فالمعنى فقد كذبوكم بقولكم سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ أي ومن يظلم منكم نفسه بالشرك وارتكاب المعاصي نذقه في الآخرة عذاباً شديداً عظيماً موجعاً.

القـــراءة

قرأ أبو جعفر وزيد عن يعقوب في الآية السابقة: ﴿أن نتخذ﴾ بضم النون وفتح الخاء وهو قراءة زيد بن ثابت وأبي الدرداء وروي عن جعفر بن محمد وزيد بن علي ;الباقين ﴿نتخذ﴾ بفتح النون وكسر الخاء، وروى بعضهم عن ابن كثير: ﴿فقد كذبوكم بما يقولون﴾ بالياء والقراءة المشهورة بالتاء. وقرأ حفص ﴿فما تستطيعون﴾ بالتاء والباقون بالياء.

٢٠ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾.

﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، قال الزجاج وهذا احتجاج عليهم في قوله: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ فقل لهم كذلك كان من خلا من الرسل فكيف يكون محمد بدعاً منهم ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾ وجعلنا بعضكم لبعض امتحاناً وابتلاء وهو افتتان الفقير بالغني والأعمى بالبصير وكذلك السقيم بالصحيح بحيث يقول كل واحد لو شاء الله لجعلني مثله وقيل هو ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً فهم موالينا ورذالنا والله عليم يتصرف عن حكمة عليم بمن يصبر ومن يجزع.

ثم بعد ذلك حكى عن حال الكفار فقال:

٢١ - ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾.

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي لا يأملون لقاء جزائنا وهذا عبارة عن إنكارهم البعث والمعاد.

﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي هلا أنزل الملائكة ليخبرونا أن محمداً نبي ﴿أو نرى ربنا﴾ فيخبرنا بذلك ويأمرنا باتباعه وتصديقه، ثم أقسم الباري جلت حكمته فقال ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ أي لقد استكبروا بهذا القول وطلبوا الكبر والتجبر بغير حق وطغوا وعاندوا طغياناً وعناداً عظيماً وتمردوا غاية التمرد في رد أمر الله تعالى.

القــــراءة

روي عن علي رضي الله عنه ﴿ويمشون في الأسواق﴾ بضم الياء وفتح الشين.

٢٢ - ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

﴿يوم يرون الملائكة﴾ يوم القيامة أو عند الموت ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ أي لا بشرى للكفار يومئذ بخلاف المؤمنين فلهم البشرى بالجنة ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ قال الزجاج: وأصل الحجر في اللغة: ما حجرت عليه، أي منعت من أن يوصل إليه، ومنه الحجر على القاصر والسفيه، والمعنى: إن الملائكة يوم القيامة تقول للكفار حجراً محجوراً أي حراماً محرماً، أي حرام محرم أن تكون لكم البشرى أو أن تدخلوا الجنة، وكان الرجل في الجاهلية إذا لقي من يخافه في الشهر الحرام، قال حجراً أي حرام عليك أذاي.

٢٣ - ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ أي قصدنا وعمدنا إلى ما عملوا من عمل في الدنيا ﴿فجعلناه هباء منثوراً﴾ كالغبار المفرق، أي مثله في عدم النفع به إذ لا ثواب فيه لعدم توجهه إلى الله بقصد الثواب، لأن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى.

ثم ميز حال الأبرار عن حال الفجار بقوله:

٢٤ - ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ المقيل المقام وقت القائلة، وهو النوم نصف النهار أي القيلولة نصف النهار عند العرب وإن لم يكن معها نوم.

ثم أراد أن يصف أهوال يوم القيامة فقال:

٢٥ - ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾.

﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ أي عن الغمام ﴿ونزل الملائكة تنزيلاً﴾

القـــراءة

﴿تشقق﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالتشديد، فأدغموا التاء في الشين، قرأ ابن كثير ﴿وننزل﴾ بنونين.

٢٦ ـ ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾.

٢٧ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ من الندم والتحسر يوم القيامة ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ طريقاً إلى الهدى.

٢٨ ـ ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾.

﴿يا ويلتى﴾ ومعناه هلكتي ﴿ليتني لم أتخذ فلاناً﴾ من الأصحاب والأتباع والرؤساء وغيرهم ﴿خليلاً﴾.

٢٩ ـ ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾.

﴿لقد أضلّني عن الذكر﴾ القرآن والموعظة ﴿بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ يتبرأ منه في الآخرة فلا ينصره ويخذله فيتركه للنار وبئس المصير.

ثم إن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة، ووجوه التعنت، ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله عز وجل.

٣٠ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾.

﴿وقال الرسول﴾ محمد ﷺ (يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال الله: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾[(١)] فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط، والكلام في غيره، حتى لا يسمعونه، فهذا هجرانه، وترك الإيمان به وترك تصديقه، من هجرانه، وترك تدبّره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من هجرانه.

ثم عزى الله سبحانه نبيه ﷺ بقوله:

٣١ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾.

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ وكما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، جعلنا لكل نبي عدواً من كفار قومه والمعنى: لا يكبرن هذا عليك فلكم بالأنبياء أسوة ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ يمنعك من عدوك.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

إنزال القرآن متفرقاً

ثم حكى عنهم شبهة أخرى فقال:

٣٢ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ كالتوراة والإنجيل والزبور، فقال الله رداً عليهم ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ أي أنزلناه متفرقاً لنقوّي به قلبك، فتزداد بصيرة، وذلك أنه كان يأتيه الوحي في كل أمر وكل حادثة فكان أقوى لقلبه ليرد به على الأسئلة التي توجّه إليه، وليحكم في الأمور التي يختلف فيها الناس، لأنه كتاب تشريع وحكم وموعظة، بل إن نزوله متفرقاً هو المعجزة التي يرد بها النبي ﷺ على الكفار والمنافقين، فيكشف ما في نفوسهم ويهتك أستار مؤامراتهم ويثبت به قلوب المؤمنين ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ وهو التمكث الذي يضاد العجلة.

ثم ذكر أنهم محجوجون في كل أوان بقوله:

٣٣ ـ ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

﴿ولا يأتونك بمثل﴾ يضربونه لك في مخاصمتك وإبطال أمرك ﴿إلّا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ بالبيان والكشف.

٣٤ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾ يوم القيامة وهم لا يدرون الآن أو يتناسون ويتجاهلون ﴿أولئك شر مكاناً وأضلّ سبيلاً﴾ أي منزلاً ومصيراً وأضلّ طريقاً وديناً.

قصص بعض الأمم التي كذبت رسلها

ثم ذكر طرفاً من قصص الأولين تنشيطاً للأذهان وتسلية لنبيه فقال:

٣٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ التوراة ﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾.

٣٦ ـ ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا﴾ أي القبط فرعون وقومه، أي أنّهم كذّبوا بآيات الله السابقة لما سمعوا بها وكذّبوا بآياته اللاحقة التي رأوها ﴿فدمّرناهم تدميراً﴾ أهلكناهم إهلاكاً.

٣٧ ـ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل﴾ عبّر بالرسل والمراد نوح لطول لبثه فيهم فكأنّه رسل، وقد ذكر بلفظ الجنس، ﴿أغرقناهم﴾ جواب لمّا ﴿وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً﴾.

أصحاب الرّس

٣٨ ـ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾.

﴿وعادا﴾ أي واذكر عاداً ﴿وثمودا وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ أصحاب الرس هم قوم من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش، ويقال إنّهم من بقية ثمود قوم صالح، وقد تمادوا في طغيانهم وعصوا نبيهم، وفي تفسير الجلالين أن الرس اسم بئر ونبيهم شعيب كانوا قعوداً حولها فانهارت بهم وبمنازلهم، وقال ابن قتيبة: «إن كل ركية لم تطو فهي رس» والركية هي ما قرب من أسفل البئر وضعف جداره، واختار ابن جرير الطبري أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج.

أقول: والرس الآن قرية من قرى نجد في اليمامة.

٣٩ ـ ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾.

﴿وكلًا ضربنا له الأمثال﴾ أي أعذرنا إليه بالموعظة وإقامة الحجة والتذكير بما حصل لغيرهم فلم نهلكهم إلا بعد الإنذار ﴿وكلًا تبّرنا تتبيراً﴾ أهلكنا إهلاكاً وهو التدمير قال الزجاج: التتبير، التدمير، وكل شيء كسرته وفتته فقد تبرته، ومن هذا قيل لمكسور الزجاج: التبر، وكذلك تبر الذهب.

٤٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾.

﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ يعني كفار مكة، حيث كانوا يمرّون في طريقهم من الحجاز إلى الشام على عظمى قرى قوم لوط، وهي سدوم التي أهلك الله أهلها بالحجارة التي أمطرت عليهم، وعبر بالسوء مصدر ساء ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ في سفرهم فيعتبرون، والاستفهام للتقرير ﴿بل كانوا لا يرجون﴾ لا يخافون ﴿نشوراً﴾ بعثاً فلا يؤمنون.

٤١ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾.

﴿وإذا رأوك إن يتخذونك﴾ أي ما يتخذونك ﴿إلّا هزواً﴾ مهزوءاً به يقولون ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾ في دعواه محتقرين له عن الرسالة.

٤٢ ـ ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف: أي إنه ﴿كاد ليضلنا﴾ يصرفنا ﴿عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ أي على عبادتها ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ هم أم المؤمنون؟

٤٣ ـ ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ فيه تعجيب للنبي أي أخبرني عن فعلهم وجهلهم ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ أي حفيظاً يحفظه من اتباع هواه؟ لا.

بعض الظواهر الكونية التي تدل على وجود الله ونعمه

ثم أضرب عن ذمهم باتخاذ الهوى إلهاً إلى نوع آخر أشنع في الظاهر قائلاً:

٤٤ ـ ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ يعني أهل مكة ومن بعدهم، والمراد سماع طالب الإفهام، أو يعقلون ما يعاينون من الحجج والأعلام ﴿إن هم إلّا كالأنعام﴾ ووجه الشبه أن الأنعام تسمع الصوت ولا تفقه القول، ﴿بل هم أضل سبيلاً﴾ أخطأ طريقاً منها، لأن الأنعام من البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها وتقبل على المحسن إليها وهم على خلاف ذلك.

ثم ذكر طرفاً من دلائل التوحيد مع ما فيها من عظيم الإنعام فقال:

٤٥ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾.

﴿ألم تر إلى ربك﴾ أي ألم تعلم إلى فعل ربك ﴿كيف مدّ الظل﴾ من وقت طلوع الإسفار إلى وقت طلوع الشمس ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي ثابتاً دائماً لا يزول ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ فالشمس دليل على الظل، فلولا الشمس ما عرف أنه شيء، ولولا النور ما عرفت الظلمة، فكل الأشياء تعرف بأضدادها.

لما عرف أن للظل وجوداً لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها فقال:

٤٦ ـ ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾.

خفيفاً بطلوع الشمس.

٤٧ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي ساتراً بظلمته، لأن ظلمته تغشى الأشخاص ﴿والنوم سباتاً﴾ أي

راحة ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ من الانتشار لابتغاء الرزق.

٤٨ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

﴿وهو الذي أرسل الرياح بشْراً بين يدي رحمته﴾ متفرقة قبل المطر ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ ما يتطهر به.

القـــراءة

﴿الرياح﴾ قرأ ابن كثير ﴿وهو الذي أرسل الريح﴾ بغير ألف، ﴿بشراً﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالنون: ﴿نُشُراً﴾ بضم النون والشين، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر وخلف ويعقوب ﴿نشراً﴾ بضم النون وسكون الشين، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿نشراً﴾ بفتح النون وسكون الشين.

ثم رتب على الإنزال غايتين أخريين فقال:

٤٩ ـ ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

﴿لنحيي به بلدة ميتاً﴾ يستوي فيه المذكر والمؤنث وذكره باعتبار المكان ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ الأناسي جمع إنسي، مثل كرسي وكراسي، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم.

٥٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿ولقد صرّفناه﴾ يعني المطر ﴿بينهم﴾ مرة لهذه البلدة ومرة لهذه ﴿ليذكروا﴾ ليتفكروا في نعم الله عليهم فيحمدوه ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ بنعمة الله وهم الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وكفروا بنعمة الله وآمنوا بفضل الكواكب عليهم.

القـــراءة

﴿ليذكروا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ليذْكروا﴾ ساكنة الذال.

إنه سبحانه لما قرر سيرة القوم من كفران النعمة وإيذاء النبي ﷺ أراد تهييج نبيّه على استمرار الدعوة فقال:

٥١ ـ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾.

﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ والمعنى إنا بعثناك إلى جميع القرى لعظم كرامتك.

ثم بالغ في النهي بأن أمره بضده قائلاً:

٥٢ ـ ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به﴾ وذلك أن كفار مكة دعوه إلى دين آبائهم، فقال له الله جاهدهم

بالقرآن أي بما جاء فيه من الأحكام ﴿جهاداً كبيراً﴾ أي شديداً.

ثم ذكر دليلاً آخر على التوحيد فقال:

٥٣ ـ ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

﴿وهو الذي مرج البحرين﴾ أي خلى بينهما: والمعنى أنه أرسلهما في مجاريهما، فما يلتقيان، ولا يختلطان، ﴿هذا عذب فرات﴾ شديد العذوبة ﴿وهذا ملح أجاج﴾ شديد الملوحة، ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ البرزخ الحاجز وهو مانع بقدرة الله تعالى، وحجراً محجوراً أي: حراماً محرماً أن يغلب أحدهما صاحبه وسوف يأتي تفسير ذلك بالتفصيل في سورة الرحمن عند قوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾.

٥٤ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾.

﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ أي من النطفة بشراً أي إنساناً من المني المتدفق من صلب الرجل إلى رحم المرأة ﴿فجعله نسباً وصهراً﴾ قال علي كرم الله وجهه: النسب ما لا يحل نكاحه، والصهر: ما يحل نكاحه، وقال الضحاك النسب سبع والصهر خمس، راجع في ذلك سورة النساء[١]. ﴿وكان ربك قديراً﴾.

ثم عاد إلى تهجين سيرة عبدة الأوثان فقال:

٥٥ ـ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾.

﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم﴾ أي ويعبد الكفار أصناماً لا تنفعهم عبادتها ولا يضرهم تركها ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ معيناً للشيطان، والظهير بمعنى المعين كما قال جلّ وعلا: ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[٢].

٥٦ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

٥٧ ـ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾.

﴿قل ما أسألكم عليه﴾ أي على تبليغ ما أرسلت به إليكم ﴿من أجر﴾ وهذا توكيد لصدقه ﴿إلا من شاء﴾ أي لكن من شاء ﴿أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ بإنفاق ماله في مرضاته.

٥٨ ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

ثم زاد لعلمه وقدرته مبالغة وبياناً فقال:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

٥٩ ـ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾.

﴿الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ يعلم مقدارها الله وحده ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق بجلاله ﴿الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ كلمة ﴿به﴾ ترجع إلى الله سبحانه، وأنهم قالوا لا نعرف الرحمن، والخبير هو الله الذي إليه المرجع في السؤال والجواب في كل مشكل يحصل، حيث كانوا يسألون عن كل ما يشكل عليهم فهمه.

٦٠ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾.

﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ أي أنهم قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنكروا أن يكون من أسماء الله تعالى ﴿أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ التباعد.

القــــراءة

﴿لما تأمرنا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿لما يأمرنا﴾ بالياء.

ثم ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود للرحمن فقال:

٦١ ـ ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾.

﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ وهي منازل الكواكب السيارة ﴿وجعل فيها سراجاً﴾ هو الشمس، ﴿وقمراً منيراً﴾.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿سُرُجاً﴾ بضم السين والراء وإسقاط الألف، أي على الجمع.

٦٢ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾.

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ أي يخلف كل منهما الآخر، ثم بين أن هذه النعمة سبب للتذكر ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي لمن أراد أن يتعظ ويعتبر باختلافهما.

القــــراءة

قرأ حمزة ﴿يذكر﴾ خفيفة الذال مضمومة الكاف، وهي بمعنى يتذكر.

من صفات المؤمنين

ثم أراد أن يختم السورة بوصف عباده المخلصين فقال:

٦٣ ـ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ بسكينة وتواضع، رويداً رويداً، ومنه قولهم أحبب حبيبك هوناً ما، وقال مجاهد يمشون بالوقار والسكينة ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ أي قولاً يسلمون فيه من الإثم أي سداداً، وقال الحسن لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم حلموا، هذا وصف سيرتهم مع الخلق بالنهار، ثم وصف معاملتهم مع الحق بالليل فقال:

٦٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾.

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ قال الزجاج كل من أدركه الليل فقد بات، نام أم لم ينم، وقياماً بمعنى قائمين يصلون بالليل.

٦٥ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.

أشد العذاب الدائم.

٦٦ ـ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

أي بئس موضع الاستقرار وموضع الإقامة.

٦٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾.

الإسراف مجاوزة الحد في النفقة، والإقتار، التقصير عما لا بد منه، والقوام، بفتح القاف الاستقامة والعدل وبكسرها، ما يدوم عليه الأمر ويستقر.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يَقْتِروا﴾ مفتوحة الياء مكسورة التاء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿يَقترُوا﴾ بفتح الياء وضم التاء، وقرأ نافع وابن عامر ﴿يُقْتِروا﴾ بضم الياء وكسر التاء.

٦٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾.

أي عقوبة.

٦٩ ـ ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾.

القـــراءة

﴿يضاعف﴾ قرأ ابن كثير والحسن ﴿يضعّف﴾ بالتشديد والجزم، وقرأ ابن عامر بالتشديد والرفع ﴿يضعّفُ﴾، وقرأ

أبو بكر عن عاصم ﴿يضاعفُ﴾ بالرفع والألف وقرأ الباقون: بالألف والجزم.

٧٠ ـ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٧١ ـ ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.

يرجع إليه رجوعاً فيجازيه خيراً.

٧٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ الكذب والباطل ﴿وإذا مرّوا باللغو﴾ من الكلام القبيح، قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل.

٧٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ من القرآن والآيات الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ قال ابن قتيبة: لم يتغافلوا عنها، كأنّهم صم لم يسمعوها عمي لم يروها.

٧٤ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ بأن نراهم مطيعين لك ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ قال ابن كثير: اجعلنا هداة مهتدين دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً، وفي صحيح مسلم: إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقه جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.

القــــراءة

﴿ذرياتنا﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ﴿من أزواجنا وذرياتنا﴾ بالألف على الجمع وقرأ الباقون ﴿ذريتنا﴾ على الإفراد.

٧٥ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

﴿أولئك يجزون الغرفة﴾ يعني الجنة، وهو كل بناء عال مرتفع، والمراد غرف الجنة ﴿بما صبروا﴾ على أذى المشركين وكل أذى من غيرهم ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾ يحيي بعضهم بعضاً بالسلام قال ابن كثير: أولئك يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

القـــراءة

﴿ويلقون فيها﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ويلقون فيها﴾ بالتخفيف.

٧٦ ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾.

٧٧ ـ ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾.

﴿قل ما يعبؤا بكم ربي﴾ قل يا محمد ما يكترث بكم ربي ﴿لولا دعاؤكم﴾ إياه في الشدائد ﴿فقد كذبتم فسوف يكون﴾ العذاب ﴿لزاماً﴾ ملازماً لكم في الآخرة.



سورة الشعراء سميت لورود ذكر الشعراء في آخر السورة.

ذكر الله سبحانه في مختتم سورة الفرقان تكذيبهم بالكتاب وذكر في مفتتح هذه السورة وصف الكتاب فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ طسٓمٓ ﴾.

﴿طسم﴾ قال ابن كثير عن الحروف التي في أوائل السور: وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿طِسم﴾ بكسر الطاء.

٢ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

٣ ـ ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿لعلك﴾ يا محمد ﴿باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي مهلك نفسك ومجهدها ومحملها غماً وهماً من أجل أنهم لم يؤمنوا بالله.

٤ ـ ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾.

﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ أخبر الله سبحانه بأنه لو أراد أن ينزل عليهم ما يضطرهم إلى الإيمان من الآيات الكونية التي يرونها بأم أعينهم أو تلك التي تلزمهم لفعل ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ فيؤمنون.

٥ ـ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾.

٦ ـ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء﴾ عواقب ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾.

٧ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ من كل جنس حسن، والزوج هو النوع والكريم المحمود.

ثم ختم الكلام بقوله:

٨ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن في ذلك الإثبات لآية وعلامة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾.

٩ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ ذو العزة ينتقم من الكافرين ﴿الرحيم﴾ بأوليائه المؤمنين.

موسى وفرعون

ثم إنه تعالى أعاد في هذه السورة ذكر قصص الأنبياء المشهورين مع أممهم اعتباراً لهذه الأمة وبدأ بقصة موسى لما فيها من غرائب الأحوال وعجائب الأمور:

١٠ ـ ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ واتل يا محمد هذه القصة على قومك ليلة رأى النار والشجرة ﴿أن ائت القوم الظالمين﴾.

١١ ـ ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾.

﴿قومَ فرعون ألا يتقون﴾ ونصبت على البدل.

﴿قوم فرعون ألا يتقون﴾ الله بطاعته فيوحدونه، والهمزة في ﴿ألا﴾ للاستفهام الإنكاري.

١٢ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

١٣ ـ ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾.

﴿ويضيق صدري﴾ بتكذيبهم إياي ﴿ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون﴾ أي ليعينني.

١٤ ـ ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾.

﴿ولهم عليّ ذنب﴾ وهو القتيل القبطي منهم الذي وكزه فقضى عليه، والمعنى ولهم علي دعوى ذنب ﴿فأخاف أن يقتلون﴾.

١٥ ـ ﴿ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾.

﴿قال كلاّ﴾ لا يقتلونك ﴿فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾ أجرى الله سبحانه التعبير عن نفسه مجرى الجماعة.

١٦ ـ ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ قال ابن قتيبة، الرسول يكون بمعنى الجمع، كقوله تعالى، ﴿إن هؤلاء ضيفي﴾[1] وقوله ﴿ثم نخرجكم طفلاً﴾[2].

١٧ ـ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلقهم من الاستعباد.

١٨ ـ ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾.

﴿قال ألم نربّك فينا وليداً﴾ أي صبياً صغيراً ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ وذلك بعد ولادته وضعته أمه في الصندوق وألقته في النهر، حيث التقطه حرس فرعون واتخذوه ولداً لهم.

١٩ ـ ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ يقصد قتله أحد الكفار من آل فرعون ﴿وأنت من الكافرين﴾ بنعمتي عليك الجاحدين لها.

٢٠ ـ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

﴿قال﴾ موسى ﴿فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ جهل موسى أنّ فعلته تؤدّي إلى القتل، فكان حينذاك من الضالّين عما آتاه الله بعدها من العلم والرسالة.

٢١ ـ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

﴿وتلك نعمة تمنّها عليّ﴾ يعني التربية في بيتك ﴿أن عبّدت بني إسرائيل﴾ أي اتخذتهم عبيداً يقال عبّدت فلاناً وأعبدته، واستعبدته إذا اتخذته عبداً، والمعنى: وما أحسنت إليّ وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني

(١) سورة الحجر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥.

إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك.

٢٣ - ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ وهذا سؤال يدل على كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده، بمعنى: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ وفرعون لم يكن مقراً بالألوهية بل جاحداً لها بالكلية، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين.

٢٤ - ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾.

﴿قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له، ﴿وموقنين﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة.

٢٥ - ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾.

﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾ قال فرعون لأشراف قومه متعجباً لهم.

٢٦ - ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ هذا وإن كان داخلاً فيما قبله إلّا أن فيه إغاظة لفرعون، لذلك أعرض عن جوابه ونسبه إلى الجنون.

٢٧ - ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾.

٢٨ - ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿قال﴾ موسى ﴿رب المشرق﴾ أي رب الحياة التي تأتي من المشرق حسب اعتقاد الفراعنة ﴿ورب المغرب﴾ أي رب الممات ﴿وما بينهما﴾ أي نهر النيل المقدس عندهم ﴿إن كنتم تعقلون﴾.

ولما انجر الكلام إلى حد العناد والمخاشنة هدّده فرعون بقوله:

٢٩ - ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾.

﴿قال﴾ فرعون ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾.

وحينئذ عدل موسى إلى الحجة الأصلية في الباب، وهو ادعاء المعجز المنبىء عن صدقه فقال:

٣٠ - ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿قال﴾ موسى ﴿أولو جئتك بشيء مبين﴾ بأمر ظاهر تعرف به صدقي أتسجنني.

٣١ - ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

٣٢ ـ ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ حية عظيمة.

٣٣ ـ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾.

﴿ونزع يده﴾ أخرجها من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾.

٣٤ ـ ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿قال﴾ فرعون ﴿للملإ حوله﴾ أشراف الناس والمستشارين ﴿إنّ هذا لساحر عليم﴾.

٣٥ ـ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾.

﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون﴾ أي تشيرون عليّ.

٣٦ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.

المعنى: أخّر أمر عذابهما إلى ما بعد امتحانهما واجمع لهما السحرة المهرة من المدن بجمع كبير.

٣٧ ـ ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾.

فيه صيغة مبالغة بمعنى أنه أفضل من موسى.

٣٨ ـ ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

وهو وقت الضحى من يوم الزينة وهو يوم عيد لهم وسبق تفسيره في الآية (٥٩) من سورة طه.

٣٩ ـ ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾.

أي أهل مصر.

٤٠ ـ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

ولعل هاهنا بمعنى ﴿كي﴾.

موسى والسحرة

٤١ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

٤٢ ـ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.

٤٣ ـ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾.

﴿قال لهم موسى﴾ بعد أن دار الحوار بينهم وبينه حيث قالوا له، إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾.

٤٤ ـ ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون﴾ أي بعظمته، هي من أيمان الجاهلية، لا يصحّ الحلف في الإسلام إلا بالله تعالى.

٤٥ ـ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف﴾ تبتلع ﴿ما يأفكون﴾ ما يموّهون به على الناس.

٤٦ ـ ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾.

٤٧ ـ ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٤٨ ـ ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى من السحر.

٤٩ ـ ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿قال﴾ فرعون ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون﴾ ما ينالكم مني واللام دخلت للتوكيد ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين﴾.

٥٠ ـ ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

﴿قالوا لا ضير﴾ أي لا ضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾.

٥١ ـ ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

نجاة بني إسرائيل

٥٢ ـ ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾.

أي يتبعكم فرعون وقومه.

القـــراءة

﴿أن أسر﴾ قرأ نافع وابن كثير ﴿أن اسر﴾ بوصل الألف في كل القرآن.

٥٣ ـ ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾.

حين أخبر بسيرهم، والمدائن جمع مدينة، وأرسل جنده يدعون الناس ويجمعونهم إليه للجيش قائلاً:

٥٤ ـ ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾.

بالنسبة لجيشه العظيم، ويقال إن عدد بني إسرائيل نحو ستمائة ألف.

٥٥ ـ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾.

يحتمل أن غيظهم لذهابهم بالعواري الذهب التي استعاروها من حلي آل فرعون ولم يردوها، أو لخروجهم دون رضاهم حيث كانوا يخدمونهم.

٥٦ ـ ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾.

أي مستعدون ومتيقظون لهم.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿حذرون﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون حاذرون بألف.

٥٧ ـ ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

٥٨ ـ ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾.

يعني فرعون وجنده أخرجهم الله من أرض مصر، وفيها الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم: المنازل الحسان التي يجلس فيها الرؤساء والأمراء والأشراف.

٥٩ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

أي كذلك الأمر كما وصفنا ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾ قال بعض المفسرين إن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد أن أُغرق فرعون وقومه وأعطاهم الله جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والعقار وغيره، ولكن التاريخ لم يثبت عودة بني إسرائيل إلى مصر بعد غرق فرعون، ويؤكّد ذلك ابن جرير الطبري حيث قال: إنما جعل ديار آل فرعون ملكاً لبني إسرائيل ولم يردهم إليها لكنه جعل مساكنهم الشام، والتفسير الصحيح للآية: إن الله سبحانه وتعالى أورث بني إسرائيل الملك والحرية والاستقلال في سيناء، وهي تابعة لمصر وفيها من الجنات والعيون، والكنوز الشيء الكثير الذي منّ الله به على بني إسرائيل، وإذا لم يحز بنو إسرائيل ما كان قد تركه فرعون وقومه في مصر فقد أعطاهم الله مثله في مكان آخر، والأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده.

٦٠ ـ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾.

أي لحقوهم حال كونهم في وقت الشروق.

٦١ ـ ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾.

أي تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، ومعنى مدركون أي ملحقون.

ثم قال موسى تثبيتاً لهم وردعاً عما هم عليه من الجزع والفزع:

٦٢ ـ ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾.

أي كلا لن يدركونا وذلك أن ربي سيدلني على طريق النجاة والخلاص، كما وعدني ووعده الحق.

ثم بين كيف هداه بقوله:

٦٣ ـ ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

أي فضرب فانفلق حتى بدا قاع البحر يابساً يمكن للماشي المرور فيه، وانشق الماء عن اثني عشر طريقاً ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ أي كل جزء انفرق منه، والفرق القطعة من البحر والطود هو الجبل.

٦٤ ـ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴾.

أي قربنا وأدنينا الآخرين أي جمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد، والآخرون هم فرعون وقومه.

٦٥ ـ ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾.

٦٦ ـ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾.

٦٧ ـ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

٦٨ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

إبراهيم عليه السلام

ثم عطف على قصة موسى قصة إبراهيم عليه السلام فقال:

٦٩ ـ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

أي على كفار مكة.

٧٠ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾.

٧١ ـ ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾.

زادوه في الجواب افتخاراً به.

٧٢ ـ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾.

والمعنى: هل يسمعون دعاءكم.

٧٣ ـ ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾.

أي هل ينفعونكم إن عبدتموهم وهل يضرونكم إن لم تعبدوهم.

٧٤ ـ ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.

أي مثل فعلنا وأخبروا عن تقليدهم آباءهم.

فنبههم إبراهيم بقوله:

٧٥ ـ ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾.

٧٦ ـ ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾.

٧٧ ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير بالضر والنفع، فلتخلص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها، وأما الاستثناء، فإن معناه لكن رب العالمين ليس كذلك.

ثم وصف لهم الرب بأنه:

٧٨ ـ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾.

أي إلى الرشد، لا ما تعبدون.

ثم نبه بقوله:

٧٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾.

هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب في الأرض والسماء.

ثم قال مراعياً بالأدب:

٨٠ ـ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾.

استعمل حسن الأدب مع الله، حيث قال مرضت ولم يقل أمرضني، ومثله قصة الخضر حيث قال: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ في الشر وأما في الخير فقال: ﴿فأراد ربك﴾[١].

ولم يراع هذه النكتة في قوله:

٨١ ـ ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

ولكونهم لا ينكرون الموت وإنما يجعلون له سبباً سوى تقدير الله عز وجل، عبر إبراهيم ﴿يميتني﴾ إضافة إلى الله عز وجل لأن الإماتة ليست بضر كالمرض.

ثم أشار إلى ما بعد الإحياء من المجازاة بقوله:

٨٢ ـ ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾.

الجزاء، والمراد بالخطيئة ما يجري على مثله من الزلل.

وحين قدم الثناء شرع في الدعاء تعليماً لأمته إذا أرادوا مسألة فقال:

٨٣ ـ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

أي أعطني الفهم والعلم.

ثم طلب الذكر الجميل بقوله:

٨٤ ـ ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾.

اجعل لي ثناء حسناً في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة.

ثم سأل ما هو غاية كل سعادة فقال:

٨٥ ـ ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾.

ثم طلب السعادة الحقيقية لأشد الناس التصاقاً به وهو أبوه قائلاً:

٨٦ ـ ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾.

بأن تتوب عليه فتغفر له، وهذا قبل أن يتبين له أنّه عدو لله كما ذكر في سورة التوبة.

٨٧ ـ ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾.

أي لا تفضحني يوم القيامة.

٨٨ ـ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾.

٨٩ ـ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

من الشرك.

وحين انجر الكلام إلى ذكر يوم القيامة، وصف الله تعالى أحواله وأهواله فقال:

٩٠ ـ ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي قربت لهم فيرونها.

٩١ ـ ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾.

أي أظهرت للكافرين الضالين من الشياطين وغيرهم.

٩٢ ـ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾.

على وجه التوبيخ.

٩٣ ـ ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾.

بدفع العذاب عنكم أو ينتصرون بدفعه عن أنفسهم.

٩٤ ـ ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾.

أي ألقوا على رؤوسهم، وصار بعضهم على بعض، وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب، كأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها، والغاوون هم الشياطين من الجن والإنس.

٩٥ ـ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾.

أتباعه وأعوانه.

٩٦ ـ ﴿ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾.

مع معبوديهم وآلهتهم من دون الله.

٩٧ ـ ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

إن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي إنه.

٩٨ ـ ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

أي نعدلكم بالله في العبادة.

٩٩ ـ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

١٠٠ ـ ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴾.

هذا قولهم إذا شفع الأنبياء والملائكة والمؤمنون. والمعنى ما لنا من ذي قرابة يهمه أمرنا.

١٠١ ـ ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾.

١٠٢ ـ ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي لو أن لنا رجعة إلى الدنيا لتحل لنا الشفاعة.

١٠٣ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١٠٤ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

عزيز في الانتقام رحيم في الثواب والصفح والعفو.

نوح عليه السلام

ثم ذكر سبحانه قصة نوح عليه السلام فقال:

١٠٥ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

نزل الله تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل.

١٠٦ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

عذاب الله بتوحيده وطاعته.

١٠٧ ـ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص.

١٠٨ ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

فيما آمركم به.

١٠٩ ـ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي على الدعاء إلى التوحيد ﴿إن أجري إلاّ على رب العالمين﴾.

١١٠ ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

كرره تأكيداً.

١١١ ـ ﴿ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾.

المساكين الذين ليس لهم مال ولا عز كالفلاحين والعمال.

١١٢ ـ ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

أي لم أعلم أعمالهم وصنائعهم ومراكزهم ولم أكلف ذلك، إنما كلفت أن أدعوهم وغيرهم.

١١٣ ـ ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾.

بذلك.

١١٤ - ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١١٥ - ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

١١٦ - ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾.

المضروبين بالحجارة.

١١٧ - ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾.

١١٨ - ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

إنما أقضي بيني وبينهم بالعذاب.

١١٩ - ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾.

المملوء من الناس والحيوان وهو السفينة العظيمة.

١٢٠ - ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾.

بعد نجاة نوح ومن معه.

١٢١ - ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١٢٢ - ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

هود وعاد

ثم ذكر سبحانه قصة هود عليه السلام فقال:

١٢٣ - ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٢٤ - ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

١٢٥ - ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

١٢٦ - ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

١٢٧ - ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٢٨ - ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾.

الريع هو الموضع المرتفع من الأرض والآية العلامة، والمعنى: أنكم تبنون في الأماكن المرتفعة مباني

تكون علامات على التفاخر والتعالي بما لا حاجة لكم به، إلّا لمجرد السخرية والعبث بمن يمر عليها من الناس.

١٢٩ ـ ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾.

والمعنى: أنكم باتخاذكم مخازن المياه كالبرك والقصور العالية ومجمعات الأسلحة بهذه الأبنية سوف تنفعكم إلى الأبد وتخلدكم مدى الدهر.

١٣٠ ـ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾.

﴿وإذا بطشتم﴾ بالناس الضعفاء بالضرب والقتل ﴿بطشتم جبارين﴾ وقد كانت تلك القبيلة ذات بأس وقوة وشدة، وقد زادهم الله بسطة في الجسم والخلق وبوّأهم أرضاً تدرّ عليهم من الخير الكثير، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صدر عن ظلم، ولو ضربوا بالسيف أو السوط في حق ما لحقهم لوم.

١٣١ ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

١٣٢ ـ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم فصلها بقوله:

١٣٣ ـ ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾.

١٣٤ ـ ﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

ثم ختم الكلام بتخويفهم تنبيهاً على أنه كما قدر أن يتفضل عليهم بهذه النعم الجسام، فهو قادر على العذاب فقال:

١٣٥ ـ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

في الدنيا والآخرة إن عصيتموني.

ثم شرع في حكاية جواب القوم:

١٣٦ ـ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾.

لا نرعوي لوعظك ونصحك.

١٣٧ ـ ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿خَلْق﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام.

١٣٨ ـ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

على ما نفعله في الدنيا.

ثم أخبر الله تعالى عن إهلاكهم:

١٣٩ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١٤٠ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

صالح وثمود

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

١٤١ ـ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٤٢ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

١٤٣ ـ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

١٤٤ ـ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

١٤٥ ـ ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٤٦ ـ ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴾.

﴿أتتركون في ما هاهنا﴾ من الخيرات مما أعطاكم الله في الدنيا ﴿آمنين﴾ من الموت والعذاب.

أجمل الأمن أولاً ثم فسره بقوله:

١٤٧ ـ ﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

١٤٨ ـ ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾.

الطلع الثمر، وأما الهضيم فهو اللطيف اللين الذي أينع وبلغ نضجه.

١٤٩ ـ ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾.

بطرين.

القــــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿فرهين﴾ من غير ألف.

١٥٠ ـ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

١٥١ ـ ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

الذين تجاوزوا الحد.

١٥٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

١٥٣ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾.

أي ممن لهم سحر، والمعنى: ممن سحر مرة بعد مرة، حتى غلبت عليهم.

١٥٤ ـ ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

١٥٥ ـ ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

أي هذه معجزة دالة على صدقي، وكانت تشرب الماء كله في يوم، ثم تعطيهم بدله لبناً منها، ولهم ولأنعامهم وزرعهم شرب في يوم آخر.

١٥٦ ـ ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

١٥٧ ـ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴾.

﴿فعقروها﴾ أي ذبحها بعضهم ﴿فأصبحوا نادمين﴾ لما رأوا العذاب مقبلاً عليهم بأماراته.

١٥٨ ـ ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١٥٩ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

لوط وقومه

ثم ذكر سبحانه قصة لوط عليه السلام فقال:

١٦٠ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٦١ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

١٦٢ ـ ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

١٦٣ ـ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

١٦٤ ـ ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

١٦٥ ـ ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

الذكران جمع ذكر.

١٦٦ ـ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾.

﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي ظالمون ومعتدون.

١٦٧ ـ ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾.

من بلدنا.

١٦٨ ـ ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾.

أي من المبغضين، قال ابن قتيبة: يقال قليت الرجل: إذا أبغضته.

١٦٩ ـ ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

أي من عقوبة عملهم.

١٧٠ ـ ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾.

١٧١ ـ ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾.

وهي امرأته في الباقين في العذاب.

١٧٢ ـ ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾.

أهلكناهم بالخسف والحصب. أي بالرمي بالحجارة من السماء.

١٧٣ ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾.

يعني الحجارة.

١٧٤ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

١٧٥ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

أصحاب الأيكة

ثم ذكر سبحانه أصحاب الأيكة فقال:

١٧٦ ـ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

قال ابن كثير: هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب كما في الأعراف لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة ملتفة كالغيضة كانوا يعبدونها، وقال

كل ما ورد بأنهم غير أهل مدين ليس بصحيح، وهذا هو رأى ابن جرير الطبري كذلك، وسبق تفسيرها في سورة الحجر الآية: (٧٨).

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير ﴿ليكة﴾ بغير همز، وابن عامر هاهنا وفي (ص) بغير همز، والتاء مفتوحة، وقرأ الباقون بالهمز فيهما والألف.

١٧٧ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

١٧٨ ـ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾.

١٧٩ ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

١٨٠ ـ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

١٨١ ـ ﴿ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾.

من الناقصين للكيل.

ثم زاد في البيان بقوله:

١٨٢ ـ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾.

الميزان السوي.

١٨٣ ـ ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

والعثو: أشد الفساد.

١٨٤ ـ ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾.

الجبلة، الخلق، يقال جبل فلان على كذا، أي خلق.

١٨٥ ـ ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾.

الذين سحروا مرة بعد مرة حتى غلب عليهم السحر.

١٨٦ ـ ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

١٨٧ ـ ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

الكسف القطع، ومفرده كسفة.

القــــراءة

﴿كسفاً﴾[1] قرأ حفص ﴿كسفاً من السماء﴾ بتحريك السين، وقرأ الباقون ﴿كسْفاً﴾ ساكنة السين.

١٨٨ ـ ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾.

١٨٩ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ وهي سحابة أظلتهم بعد حر شديد أصابهم فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾.

١٩٠ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾.

١٩١ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

النبي محمد ﷺ وأمته

وحين سلى رسول الله ﷺ بهذه القصص المؤكدة بالمكررات، المختتمة بالمقررات، عاد إلى مخاطبته قائلاً:

١٩٢ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي القرآن.

١٩٣ ـ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾.

جبريل.

القــــراءة

﴿نزل﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص ﴿نزل﴾ بالتخفيف ﴿الروح الأمين﴾ بالرفع وقرأ الباقون ﴿نزّل به﴾ بالتشديد ﴿الروح الأمين﴾ بالنصب.

١٩٤ ـ ﴿ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾.

أي ممن أنذر بآيات الله المكذبين.

١٩٥ ـ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾.

١٩٦ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

الزبر الكتب.

(١) القراءة في هذه الكلمة قد ذكرناها في سورة الإسراء عن الكلام على الآية: ٩٢.

١٩٧ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

كعبد الله بن سلام وأصحابه من الذين آمنوا، فإنهم يخبرون أن النبي محمداً ﷺ حق، وأن نبوته حق وآية وعلامة.

القـــراءة

﴿أو لم يكن﴾ قرأ ابن عامر ﴿أو لم تكن﴾ بالتاء، ﴿لهم آية﴾ بالرفع. والآية هنا معناها العلامة.

ثم أكد بقوله:

١٩٨ ـ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴾.

جمع أعجم، والأنثى عجماء، والأعجم: الذي لا يفصح، وكذلك الأعجمي، فأما العجمي فالذي من جنس العجم.

١٩٩ ـ ﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾.

أي لو قرأه عليهم أعجمي لقالوا لا نفقه هذا، فلم يؤمنوا.

٢٠٠ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

المجرمون هم المشركون، وسلكناه معناه أدخلناه، والمعنى: أنه بالرغم من دخول القرآن إلى قلوبهم، وقربه منهم لتلاوته بلسانهم ولغتهم إلاّ أنهم رغم كل ذلك التمكن لا يؤمنون به فهم معاندون كما بين الله في الآية التالية:

٢٠١ ـ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

٢٠٢ ـ ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

٢٠٣ ـ ﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾.

ثم أنكر عليهم بقوله:

٢٠٤ ـ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

٢٠٥ ـ ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾.

عمر الدنيا.

٢٠٦ ـ ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾.

من العذاب.

٢٠٧ ـ ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾.

﴿ما﴾ استفهامية بمعنى أي شيء.

٢٠٨ ـ ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾.

٢٠٩ ـ ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

أي موعظة.

ثم إنه لما احتج على صدق محمد ﷺ بكون القرآن معجزاً منزلاً من رب العالمين مشتملاً على معاني كتب الأولين، وكان الكفار يقولون إنه من إلقاء الجن، كحال الكهنة أراد أن يزيل شبهتهم بقوله:

٢١٠ ـ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾.

أي القرآن.

٢١١ ـ ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾.

لأنهم قد حيل بينهم وبين السمع بالملائكة بالشهب.

ثم بين عدم اقتدارهم بقوله:

٢١٢ ـ ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾.

فكيف ينزلون به.

وحين أثبت حفظه للقرآن أمر نبيه بجوامع مكارم الأخلاق ومحاسن العادات قائلاً:

٢١٣ ـ ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾.

٢١٤ ـ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.

أي قرابتك وقد أنذرهم الرسول ﷺ جهاراً.

٢١٥ ـ ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ألن جانبك.

٢١٦ ـ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

٢١٧ ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

القــــراءة

﴿وتوكل﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿فتوكل﴾ بالفاء.

٢١٨ ـ ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾.

إلى الصلاة والدعاء.

٢١٩ ـ ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾.

يراك وحدك ويراك مع الجماعة فيما بين ركوع وسجود.

٢٢٠ ـ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

ثم أكد قوله ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ بقوله:

٢٢١ ـ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾.

٢٢٢ ـ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

هذا رد عليهم حين قالوا: إنما يأتيه بالقرآن الشياطين، فأما الأفاك فهو الكذاب، والأثيم الفاجر وهم الكهنة.

٢٢٣ ـ ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴾.

﴿يلقون السمع﴾ أي يلقون ما سمعوه إلى الكهنة ﴿وأكثرهم كاذبون﴾.

ثم بين ما يعرف منه أن النبي ليس بشاعر كما أنه ليس بكاهن فقال:

٢٢٤ ـ ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾.

السفهاء والجهال في شعرهم فيقولون به ويروونه عنهم فهم مذمومون.

القـــراءة

﴿يتبعهم﴾ قرأ نافع ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ بالتخفيف.

٢٢٥ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾.

والمعنى: أنهم يأخذون في كل فن لغو وكذب، فيمدحون بالباطل، ويقولون فعلنا، ولم يفعلوا.

وذكر قبائح خصالهم فقال:

٢٢٦ ـ ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾.

٢٢٧ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا﴾ أي المشركون فناصروا المسلمين وعاونوهم بهجاء الكفار ﴿من بعدما ظلموا وسيعلم الذي ظلموا﴾ أي الذين أشركوا وهجوا رسول الله وصحابته ﴿أي منقلب﴾ مرجع ﴿ينقلبون﴾ يرجعون بعد الموت.

تم تفسير سورة الشعراء ويليها تفسير سورة النمل.



سورة النمل سميت لورود قصة النمل فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لما ختم الله سبحانه سورة الشعراء بذكر القرآن، افتتح هذه السورة بذكره أيضاً فقال:

١ - ﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾.

٢ - ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به وعمل بما فيه وهم الموصوفون بالصفات التالية:

٣ - ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

يعلمونها حقاً بالاستدلال.

ثم أورد وعيد المنكرين للمعاد فقال:

٤ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنا لهم أعمالهم﴾ القبيحة التي اختاروها بتركيب الشهوة حتى رأوها حسنة ﴿فهم يعمهون﴾ يتحيرون وذلك بأن من لا يؤمن بالآخرة لا يؤمن بالله، ومن لا يؤمن بالله يبتليه الله، ليتميز المطيع من العاصي، وقد وردت في التزيين عدة آيات، فمنها ما نسبه إلى سببه ومن أجراه على يديه، ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ وتارة يحذف فاعله ﴿زين للناس﴾ وتارة ينسب التزيين إليه سبحانه كما في هذه الآية التي معنا.

٥ - ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾.

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ شديده ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ لمصيرهم إلى النار.

ثم مهّد مقدمة لما سيذكر في السورة من الأخبار العجيبة فقال:

٦ - ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾.

﴿وإنّك لتُلقى القرآن﴾ أي يلقى عليك فتتلقاه أنت أي تأخذه ﴿من لدن حكيم عليم﴾.

موسى

٧ ـ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

القــــراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب ﴿بشهاب﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة.

٨ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

هي نور وليست بنار، وبورك فيمن يطلبها، ومن هو قريب منها موسى والملائكة.

٩ ـ ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

١٠ ـ ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ الجان الحية المتوسطة ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ لم يرجع ﴿يا موسى لا تخف إنّي لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي إنك بحضرة الله فلا تخف.

١١ ـ ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿إلا من ظلم﴾ علم الله أن موسى مستشعر خيفة من ذنبه في الرجل الذي وكزه فقال ﴿ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾.

قال ابن كثير: هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيىء، ثم أقلع عنه، ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وإنّي لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[1] ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾[2] وكل من قام بعمل مشروع أفضى دون قصد إلى غير المشروع تلحقه المسؤولية التقصيرية، كالذي يصيد طيراً فيضرب إنساناً، أو يدخل بين اثنين متنازعين فيقتل أحدهما خطأ، وهذا ما حصل لموسى عليه السلام.

الآيات التسع

١٢ ـ ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾.

(١) سورة طه، الآية: ٨٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.

﴿وأدخل يدك في جيبك﴾ طوق قميصك ﴿تخرج بيضاء﴾ خلاف لونها ﴿من غير سوء﴾ من غير مرض برص أو غيره، آية من آيات الله ﴿في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ والآيات التسع هي:

١ ـ اليد.
٢ ـ العصا.
٣ ـ أخذهم بالسنين، الجدب.
٤ ـ نقص الثمرات والأنفس.
٥ ـ الطوفان.
٦ ـ الجراد.
٧ ـ القمّل.
٨ ـ الضفادع.
٩ ـ الدم.

لقد أشرنا إليها في تفسير سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾[1] وهي مذكورة كذلك في سورة الإسراء الآية (١٠١).

١٣ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي بينة واضحة وهو كقوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾[2] ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾.

١٤ ـ ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿وجحدوا بها﴾ لم يقروا ﴿واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ أي تكبراً وترفعاً من أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾.

داود وسليمان

لما فرغ من قصة موسى عليه السلام شرع في قصة ثانية وهي قصة داود وابنه سليمان عليهما السلام فقال:

١٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ بالقضاء وبكلام الطير والدواب وتسبيح الجبال ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ قالا ذلك شكراً لله حيث فضّلهما بالنبوة والكتاب وإلانة الحديد، وتسخير الشياطين والجن والإنس.

١٦ ـ ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿وورث سليمان داود﴾ أي ورث علمه وملكه، وكان لداود تسعة عشر ذكراً، فخص سليمان بذلك دون باقي أولاده، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيها سواء، والمعنى: أنه جاء بعده بمثل ما كان عليه ﴿وقال﴾ سليمان لقومه ﴿يا أيها الناس علّمنا منطق الطير﴾ فهمنا ما تقول الطير والنمل من الطير ﴿وأوتينا من كل شيء﴾ من كل شيء يجوز أن يؤتاه الأنبياء والناس ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ الظاهر.

١٧ ـ ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

أي جمع له من كل صنف من جنده على حدة، و ﴿يوزعون﴾ قال مجاهد: يحبس أولهم على آخرهم، وقال ابن قتيبة أصل الوزع المنع والكف، ووازع الجيش: الذي يكفهم عن التفرق وينظّمهم ويردّ من شذّ منهم، والمعنى في الآية أنهم يقسمون وينظمون كلاً في مكانه وفرقته حتى تمكن السيطرة عليهم.

١٨ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿حتى إذا أتوا على واد النمل﴾ لم يرد نص يحدد مكانه ولا كيفيته، وحين عبر عن تفاهم النمل بلفظ التقاول جعل خطابهم كأولي العقل، فحكى أنها ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ بكم وبمكانكم.

١٩ ـ ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ تعجباً، فحبس جنده حين أشرف على واديهم حتى دخلوا بيوتهم ﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أوزعني، ألهمني وكفني عما يباعد منك.

٢٠ ـ ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾.

﴿وتفقد الطير﴾ طلب ما غاب منها ﴿فقال مالي لا أرى الهدهد﴾ ما سبب عدم رؤياي له، ﴿أم كان من الغائبين﴾ هل كان من الغائبين لسبب ما.

القـــراءة

﴿مالي﴾ قرأ ابن كثير وعاصم والكسائي بفتح الياء وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة بالسكون.

فلما تبيّن له أن الهدهد غاب من غير استئذان قال:

٢١ ـ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

والمعنى: إن غياب ذلك الهدهد المعهود، الذي لا بد من الحاجة لوجوده في تلك المسيرة كان مزعجاً لسليمان، لدرجة أنه توعد الهدهد بالعذاب الشديد أو القتل اللهم إلا إذا أتى بعذر بين مقبول.

القـــراءة

﴿ليأتيني﴾ قرأ ابن كثير ﴿ليأتينني﴾ بنونين بدل التشديد.

سليمان وبلقيس ملكة سبأ

٢٢ ـ ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾.

﴿فمكث غير بعيد﴾ أي الهدهد بعدها جاء لسليمان طالباً العفو مبدياً العذر ﴿فقال أحطت بما لم تحط به﴾ أي علمت شيئاً من الأمور التي لم تعلم بها ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ سبأ قبيلة باليمن سميت باسم جد لهم، ويطلق على المكان الذي يعيشون فيه وهو الآن مدينة تعرف بمأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام بالراكب على الدابة، والنبأ هو الخبر.

القـــراءة

قرأ عاصم بفتح الكاف ﴿فمكث﴾ وقرأ الباقون بضمها، وفي ﴿سبأ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو نصباً غير مصروف، وقرأ الباقون خفضاً منوناً.

ثم شرع في النبأ:

٢٣ ـ ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ يعني بلقيس ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ من كل شيء يؤتاه الملوك والناس ﴿ولها عرش عظيم﴾ والعرش: سرير الملك، ويسمى في عصرنا الحاضر كرسي الحكم.

٢٤ ـ ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾.

٢٥ ـ ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾.

﴿ألّا يسجدوا لله﴾ بالتشديد والأصل أن يسجدوا ثم زيدت لا وأدغم فيها نون أن ﴿الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾ أي المستتر فيهما ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾.

القـــراءة

﴿ما تخفون وما تعلنون﴾ قرأ حفص عن عاصم والكسائي بالتاء فيهما، وقرأ الباقون بالياء ﴿يخفون ويعلنون﴾.

٢٦ ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴾.

ثناء مشتمل على عرش الرحمن في مقابلة عرش بلقيس.

ولما انجر كلام الهدهد إلى هذه الغاية:

٢٧ ـ ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾.

فيما أخبرت وقلت، ثم كتب كتاباً وختمه.

ثم ذكر كيفية النظر في أمره فقال:

٢٨ ـ ﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾.

يردون من الجواب وماذا يقولون فيما بينهم، ومعنى تول عنهم أي استتر في مكان تسمع فيه ما يقولون من الجواب.

القـــراءة

﴿فألقه﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي ﴿فألقهي﴾ موصولة بياء، وروى قالون عن نافع كسر الهاء من غير إشباع.

٢٩ ـ ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾.

كريم لكرم صاحبه لكونه ملكاً أرسل الهدهد لحمله.

٣٠ ـ ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

٣١ ـ ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾.

أي منقادين طائعين ثم استشارت قومها.

٣٢ ـ ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾.

﴿قالت يا أيها الملؤا﴾ يعني الأشراف القادة والرؤساء والمقربون والوزراء ﴿أفتوني في أمري﴾ أي بينوا

لي ما أفعل، وأشيروا علي ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ ما كنت فاعلة أمراً حتى تحضرون وتشيرون والمعنى: إلّا بحضوركم ومشورتكم.

٣٣ ـ ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ ﴾.

﴿قالوا نحن أولوا قوة﴾ أصحاب عتاد وكثرة في العدد ﴿وأولوا بأس شديد﴾ أصحاب شجاعة وعزم، ﴿والأمر إليك﴾ في القتال وتركه ﴿فانظري ماذا تأمرين﴾ تختارين.

٣٤ ـ ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.

﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي أهانوا أشرافها ليستقيم لهم الأمر، ﴿وكذلك يفعلون﴾ وأخشى أن يفعل سليمان وجنده فينا كذلك.

٣٥ ـ ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

إنما أرسلت الهدية من الذهب لتعلم إن كان نبياً وعلى حق لم يرد الدنيا، وإن كان ملكاً فسيرضى بالمال فأسرع الهدهد إلى سليمان يخبره الخبر.

٣٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

﴿فلما جاء﴾ الرسول من بلقيس ومعه أتباعه يحملون الهدية إلى ﴿سليمان قال أتمدّونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ بعضكم لبعض.

القـــراءة

﴿أتمدّوني﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿أتمدونني﴾ بنونين وياء في الوصل.

﴿آتانيَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿فما آتانِ﴾ من غير ياء.

٣٧ ـ ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾.

﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾ أي لا طاقة لهم عليها ﴿ولنخرجنهم منها﴾ أي من بلدهم سبأ ﴿أذلة وهم صاغرون﴾ إن لم يأتوني مسلمين.

فأراد أن يريها بعض ما خصّه الله به من المعجزات فلذلك:

٣٨ ـ ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.

﴿قال﴾ سليمان لمن حوله ﴿يا أيها المـلأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ ليجعل ذلك دليلاً على صدق نبوته، لأنها خلفته في دارها واحتاطت عليه فوجدته قد تقدمها.

٣٩ ـ ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾.

﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أي من مجلسك وكان سليمان يجلس للقضاء بين الناس ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ أي قوي على حمله أمين على ما فيه من القيمة من الجواهر والدرر.

عرض الذي عنده علم من الكتاب

٤٠ ـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾.

﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ وكان من الملائكة، أيد الله به سليمان ليكون آية له، وربما أحضرته الملائكة سلفاً ليكون جاهزاً بمجرد ما يطلب سليمان يكون أمامه.

ومعنى الذي عنده علم من الكتاب: أي الملك الذي أطلعه على علم من علم الله من اللوح المحفوظ، الذي فيه ما كان وما سيكون للبشر، وقد أطلعه الله على ما سوف يكون لسليمان فأحضر له العرش قبل أن يطلبه، فقدمه له بمجرد ما طلبه ﴿أنا آتيك به من قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أي بمقدار ما تفتح عينك ثم ترف ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني﴾ ليختبرني ﴿ءأشكر أم أكفر﴾ أشكر نعمة الله علي أم أكفر نعمته بترك الشكر له ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾.

فلما قاربت بلقيس الوصول إلى ملك سليمان وقبل الدخول عليه أراد اختبارها:

٤١ ـ ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾.

﴿قال﴾ سليمان لجنده ﴿نكروا لها عرشها﴾ غيّروا فيه، زادوا ونقصوا منه، ﴿ننظر أتهتدي﴾ إلى معرفته، ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ إلى معرفة ما يغير عليهم.

٤٢ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾.

﴿فلما جاءت قيل﴾ لها ﴿أهكذا عرشك﴾ هل عرشك يشبه هذا العرش ﴿قالت كأنه هو﴾ إذ وجدت فيه ما تعرفه فلم تنكر، ووجدت فيه ما تنكره فلم تثبت، فلذلك قالت كأنه هو، وفي ذلك ذكاء وفطنة وجواب حاذق ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ هذا قول سليمان ومن معه ممن أحيطوا علماً بعزم سليمان على إحضار العرش، ثم شهدوا تنكيره وتغيير بعض معالمه، وممن كانوا متتبعين للقصة ﴿وكنا مسلمين﴾ منقادين لله ولسليمان فيما يأمر ويطلب، حيث سكتوا حتى يشهدوا امتحان بلقيس لمعرفة عرشها.

٤٣ ـ ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾.

والمعنى: وصدها أن تعبد الله ما كانت تعبد وقومها الشمس.

٤٤ ـ ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قيل لها ادخلي الصرح﴾ سطح من زجاج أبيض شفاف سميك تحته ماء جار، فيه سمك اصطنعه سليمان، ومراده في ذلك أن يريها ملكاً هو أعزّ من ملكها، وقد وضع سرير سليمان في صدر البيت ﴿فلما رأته حسبته لجة﴾ وهي معظم الماء، ﴿وكشفت عن ساقيها﴾ لدخول الماء لئلا تبتل ملابسها الطويلة، فناداها سليمان ﴿قال إنه صرح ممرد﴾ أي مملس، ﴿من قوارير﴾ أي من زجاج فعلمت حينئذ أن ملك سليمان من الله تعالى ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي﴾ أي بعبادة غيرك وقيل ظنت في سليمان أنه يريد تغريقها في الماء، فلما علمت أنه صرح ممرد قالت ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ ثم تزوجها سليمان وردها إلى ملكها، قال ابن كثير في التفسير[١]:

والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصّرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم حقاً، وأنه ملك عظيم صدقاً، وأسلمت لله عز وجل ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي﴾ أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ أي متابعة لدين سليمان في عبادة الله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدّره تقديراً.

صالح وثمود

٤٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

﴿فريقان يختصمون﴾ مؤمن وكافر.

٤٦ ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ بالعذاب قبل الرحمة حيث قالوا إن كان ما أتيتنا به حقاً، فأتنا بالعذاب ﴿لولا﴾ هلا ﴿تستغفرون الله لعلّكم ترحمون﴾.

٤٧ ـ ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾.

﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ والمعنى: تطيرنا وتشاءمنا، وإنما قالوا ذلك لأنّهم قحطوا وجاعوا ﴿قال طائركم عند الله﴾ شؤمكم أتاكم به ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ تختبرون بالخير والشر.

٤٨ ـ ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾.

---

(١) ج ٣ ص ٣٦٦ بتصرف بسيط.

﴿وكان في المدينة﴾ وهي الحجر التي نزل بها صالح ﴿تسعة رهط يفسدون في الأرض﴾ وهم رجال كفار يعصون الله ويسفكون الدماء وهم الذين عملوا على قتل الناقة ﴿ولا يصلحون﴾.

٤٩ ـ ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾.

﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿تقاسموا بالله﴾ أي احلفوا بالله ﴿لنبيتنه﴾ أي لنقتلن صالحاً ﴿وأهله﴾ ليلاً، ﴿ثم لنقولن لوليه﴾ أي لولي دمه الذي يطالب به بعد موته ﴿ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾ هذا كان مكرهم، فجازاهم الله بأشدّ من مكرهم فأهلكهم.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿قالوا تقاسموا بالله لتبيتنه﴾ بالتاء وضم التاء الثانية، ﴿ثم تقولن﴾ بالتاء أيضاً وضم اللام، قرأ أبو بكر ﴿ما شهدنا مهلك﴾ بفتح الميم واللام.

٥٠ ـ ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿ومكروا مكراً﴾ بيتوا خبثاً وأضمروا شراً ﴿ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ أي جازيناهم بتعجيل عقوبتهم قبل أن ينفذوها.

٥١ ـ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾ مصير ما آلوا إليه ﴿أنا دمّرناهم وقومهم أجمعين﴾.

القـــراءة

﴿أنّا دمّرناهم﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿أنا﴾ بفتح الألف، وقرأ الباقون بكسرها ﴿إنّا﴾.

٥٢ ـ ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ خالية ﴿بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ خاوية منصوبة على الحال، والمعنى انظر بيوتهم خاوية.

٥٣ ـ ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

وكانوا أربعة آلاف وكانوا يتقون الشرك.

لوط

٥٤ ـ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾.

﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ منصوب بأذكر لوطاً ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ وأنتم تعلمون أنّها فاحشة، وبعضكم يبصر بعضاً.

٥٥ ـ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

العاقبة.

٥٦ ـ ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

من المعاصي وخاصة أدبار الرجال.

٥٧ ـ ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾.

جعلناها بتقديرنا وقضائنا عليها من الباقين في العذاب، والاستثناء هنا يدل على أن المرأة الزوجة من أهل الرجل وآل بيته.

القــــراءة

قرأ أبو بكر ﴿قدرناها﴾ بالتخفيف.

٥٨ ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ هو حجارة السجيل فأهلكتهم ﴿فساء﴾ بئس ﴿مطر المنذرين﴾ بالعذاب مطرهم.

٥٩ ـ ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿قل الحمد لله﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ أمر أن يحمد الله على هلاك الأمم الكافرة، وقيل على جميع نعمه، ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ هم الأنبياء والرسل والصالحون ﴿آلله خير أما يشركون﴾.

القــــراءة

﴿يشركون﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم ﴿أالله خير أما يشركون﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء.

ثم شرع في الدلالة على الوحدانية والرد على عبدة الأوثان فقال:

٦٠ ـ ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

﴿أمن خلق السماوات والأرض﴾ تقديره ءآلهتكم خير أم من خلق السماوات والأرض ﴿وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي ما ينبغي لكم ذلك لأنكم لا تقدرون

عليه، ثم قال مستفهماً منكراً عليهم ﴿ءإله مع الله﴾ أي ليس معه إله ﴿بل هم﴾ يعني الكفار ﴿قوم يعدلون﴾ يشركون بالله غيره يعادلون معه غيره.

القـــراءة

﴿ءإله﴾ قرأ نافع وأبو عمرو ﴿آيله مع الله﴾ بهمزة واحدة مطولة، وقرأ ورش عن نافع وابن كثير ﴿أيله﴾ بهمزة واحدة من غير مد.

وقرأ هشام(١) عن ابن عامر ﴿آإله﴾ بهمزتين بينهما مدة.

٦١ ـ ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي مستقراً لا تميد بأهلها رغم كرويتها ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي مانعاً بين العذب والملح أن يختلطا ﴿أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ قدر عظمة الله.

٦٢ ـ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ وهو المكروب المجهود ﴿ويكشف السوء﴾ يعني الضر ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي يهلك قرناً قبلكم وينشىء آخرين أي أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم ﴿أءله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ تتعظون.

القـــراءة

﴿تذكرون﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ﴿قليلاً ما يذكرون﴾ بالياء.

٦٣ ـ ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ من يرشدكم إلى مقاصدكم، في سفركم ليلاً في السيارات والطائرات والسفن ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ من يجعل الرياح تتقدم المطر لتبشر بقدومه إليكم لتروي زرعكم وتطفىء ظمأكم ﴿أءله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾.

---

(١) هو هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمي، وقيل الظفري الدمشقي إمام إهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم (١٥٣ ـ ٢٤٥ هـ)، غاية النهاية ج ٢ ص ٣٥٥، ٣٥٦.

القـــراءة

﴿الرياح﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿ومن يرسل الريح﴾ بغير ألف.

٦٤ ـ ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

﴿أمن يبدأ الخلق﴾ في الأرحام من نطفة ﴿ثم يعيده﴾ بعد الموت ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ بالمطر ﴿والأرض﴾ بالنبات ﴿أءله مع الله﴾ يشاركه في ذلك ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ حجتكم ودليلكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن معي إلهاً فعل شيئاً مما ذكر.

السؤال عن الغيب والساعة

٦٥ ـ ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض﴾ من الملائكة والناس ﴿الغيب إلاّ الله﴾ وهو جواب عن سؤال وجه للنبي ﷺ من الكفار ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾.

٦٦ ـ ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾.

﴿بل ادارك علمهم في الآخرة﴾ بل بمعنى هل، والمعنى: هل أدرك علمهم علم الآخرة؟ أي أنهم لا يقفون في الدنيا على حقيقة العلم بالآخرة ﴿بل هم في شك منها﴾ أي بل هم اليوم في شك من القيامة ﴿بل هم منها عمون﴾ من عمى القلب، بفتح العين وضم الميم.

القـــراءة

﴿ادارك﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿بل أدرك﴾ بدون تشديد ومن غير ألف.

لما ذكر أن المشركين في شك من أمر البعث، عمون عن النظر في دلائله، أراد أن يبين عامة شبهتهم فقال:

٦٧ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾.

من القبور إلى الحشر.

القـــراءة

﴿أءذا﴾ قرأ نافع ﴿إذا﴾ بكسر الألف بدون استفهام.

٦٨ ـ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

ما سطر من الكذب.

ثم أوعدهم على عدم قبول قول الأنبياء بالنظر بالأمم السالفة المكذبة فقال:

٦٩ ـ ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

الذين أهلكوا بالعذاب.

٧٠ ـ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

أي لا تهتم بمكرهم عليك وكيدهم لك فإنا ناصروك عليهم.

القـــراءة

﴿ضيق﴾ قرأ ابن كثير ﴿في ضيق﴾ بكسر الضاد.

٧١ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿ويقولون﴾ أي الكفار للنبي محمد ﷺ وصحابته ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ ويعنون: العذاب الذي تعدنا به.

٧٢ ـ ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾ ردف قرب بفتح الراء وكسر الدال ﴿بعض الذي تستعجلون﴾.

تأخير العذاب عن أمة محمد

ثم ذكر أنه متفضل عليهم بتأخير العقوبة في الدنيا فقال:

٧٣ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ على أمة محمد حين أخر عنهم عذاب الاستئصال ولم يعجل لهم العذاب، كما قال تعالى في سورة الكهف ﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ والموئل هو الملجأ من يوم القيامة[1] ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فضل الله عليهم ورحمته بتأخير العذاب عنهم.

ثم بين أنه مطلع على مافي صدورهم مما يخفون كالقصود والدواعي فقال:

٧٤ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

أي ما تخفيه صدورهم وما يعلنون بألسنتهم من عداوتك وخلافك، وهو من الكشف الذي يؤيد الله به نبيه.

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٨.

ثم أكد ذلك بأن المغيبات كلها ثابتة في اللوح المحفوظ فقال:

٧٥ - ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ من أي شيء في غاية الخفاء على الناس حتى الكتابة ﴿إلّا في كتاب مبين﴾ بين هو اللوح المحفوظ ويكنّون علمه عند الله.

ثم بيّن لدفع شبهة القوم إعجاز القرآن والمطلوب فقال:

٧٦ - ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، وهم الموجودون في زمان نبينا.

٧٧ - ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

من العذاب.

ثم ذكر أن من لم ينصف منهم فالله يقضي بينهم بحكمه فقال:

٧٨ - ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ يعني بني إسرائيل ﴿بحكمه وهو العزيز العليم﴾ العزيز الغالب، العليم بما يحكم به، فلا يمكن لأحد مخالفته كما خالف الكفار أنبياءهم في الدنيا.

ثم أمره ﷺ بالتوكل وقلة المبالاة بأعداء الدين وعلل ذلك بأمرين فقال:

٧٩ - ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾.

الدين البين.

٨٠ - ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾.

﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ هذا مثل ضربه الله للكفار، فشبههم بالموتى والصم والعمي ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾ إن الصم إذا أدبروا عنك ثم ناديتهم لم يسمعوا، فكذلك الكافر.

القـــراءة

قرأ ابن كثير ﴿ولا يسمع﴾ بالياء ﴿الصم﴾ بالرفع.

٨١ - ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم﴾ ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى ﴿إن تسمع﴾ إسماع إفهام، ﴿إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾.

القـــراءة

﴿وما أنت بهاد العمي﴾ قرأ حمزة ﴿وما أنت تهدي العمي﴾ بالتاء، و﴿العمي﴾ بالنصب.

خروج الدابة

ثم هدد المكلفين بذكر طرف من أشراط الساعة وما بعدها فقال:

٨٢ ـ ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾.

﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ أي حان وشارف ما وعدوا به من العذاب ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾ ودواب الأرض كثيرة في الحشرات والحيوان، منها ما ذكر في القرآن كالنمل والعنكبوت والضفادع والجراد والقمل، أو ممّا له دبيب كالخيل والحمير، أو المفترسة منها كالسباع والكلاب، والآية لم تعين نوعها ولا شكلها وهل هي واحدة أو أكثر، ولفظ التنكير فيه معنى التكثير، فربما كانت أكثر من واحدة والله أعلم.

ولم يصح شيء من الأحاديث مما نسب للرسول ﷺ فيها ﴿تكلّمهم﴾ بالطريقة التي يفهمها الناس الذين تواجههم، ولم يبين الله كيفية الكلام، ولا بأي لغة وهل له صوت أو إشارة، وربما كان بلسان الحال دون المقال، وهو الأرجح لدينا لأنها آية من آيات الله، ﴿إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي الكفار المعاندين لرسلهم والمنكرين لكتب ربهم، وقد أصبحوا لا يرجى صلاحهم فهم لا يصدقون بآيات الله السمعية والعقلية التي تتلى عليهم، أي أنهم وصلوا إلى درجة لا يفهمون معها إلّا لغة العذاب والعقاب وذلك بخروج آيات الله الدالة على انتهاء هذه المجتمعات والمجازاة.

وقت خروج الدابة

أما وقت خروجها فإن الآية لم تعينه هل هو في الماضي لأقوام لم يقص الله علينا أخبارهم مع الدابة، كمثل الذي أصاب قوم فرعون وابتلاهم الله به من الآيات التسع، أم أن خروجها في آخر الزمان لتواجه الناس من أمة محمد، كل ذلك محتمل ولا يرد عليه أن الله أخر عذاب أمة محمد إلى أجل مسمى، أو إلى يوم تشخص فيه الأبصار، فذلك في آخر الزمان، والله أعلم أن خروجها من علامات الساعة كما ورد في الصحيح، وأما ما جاء في كتب المفسرين من أوصاف للدابة وتعيين مكان خروجها، وصفة كلامها فلم يصح فيه شيء عن رسول الله ﷺ.

القـــراءة

﴿أن الناس﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الهمزة، وكسرها الباقون.

٨٣ - ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ جماعة، والمراد به الرؤساء والمتبوعون في الكفر ﴿ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون﴾ يجمعون وينظمون بحيث تمكن السيطرة عليهم، يوضع وازع على كل جماعة منهم.

٨٤ - ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿حتى إذا جاءوا﴾ إلى موقف الحساب ﴿قال﴾ الله لهم ﴿أكذبتم بآياتي﴾؟ هذا استفهام إنكار عليهم ووعيد لهم ﴿ولم تحيطوا بها علماً﴾ لم تتمعنوا وتتفكروا في صحتها ﴿أماذا كنتم تعملون﴾ مما أمرتم به ونهيتم عنه.

٨٥ - ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾.

﴿ووقع القول عليهم﴾ وجب وحقّ العذاب وحان وقت العذاب ﴿بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾.

ثم بعد أن خوّفهم بأهوال القيامة وأحوالها ذكر ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة، مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال:

٨٦ - ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

ثم عاد إلى ذكر علامة أخرى للقيامة فقال:

٨٧ - ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾.

﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض﴾ خافوا الخوف المفضي إلى الموت كما في الزمر ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض﴾ ﴿إلّا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾ صاغرين.

القـــراءة

﴿وكل أتوه﴾ قرأ حمزة وحفص ﴿وكل أتوه﴾ مقصورة مفتوحة التاء، وقرأ الباقون ﴿وكل آتوه﴾ بالمد مضمومة على الاستقبال.

٨٨ - ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾.

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ قال ابن قتيبة: هذا يكون إذا نفخ في الصور تجمع الجبال وتسيّر، فهي لكثرتها تحسب جامدة أي واقفة، فإذا نظر الناظر إليها حسبها واقفة في مكان واحد ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ أي تسير سير السحاب، وكذلك كل جيش عظيم يحسبه الناظر من بعيد واقفاً وهو يسير لكثرته ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ صنع منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله.

القـــراءة

﴿إنّه خبير بما تفعلون﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿إنه خبير بما يفعلون﴾ بالياء.

ثم فصل أعمال العباد وجزاءها بقوله:

٨٩ ـ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾.

﴿من جاء بالحسنة﴾ كلمة التوحيد والعمل الصالح ﴿فله خير منها﴾ عشر أمثالها ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾.

القـــراءة

﴿فزع﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر مضافاً إلى يوم بدون تنوين، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتنوين.

٩٠ ـ ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ الشرك والمعاصي ﴿فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلّا ما كنتم تعملون﴾.

٩١ ـ ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ مكة ﴿الذي حرمها﴾ جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم إنسان ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يقطع شجرها ﴿وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين﴾.

٩٢ ـ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾.

﴿وأن أتلو القرآن﴾ عليكم ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي فله ثواب اهتدائه ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾.

٩٣ ـ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ في الدنيا في أنفسكم ورزقكم وحياتكم وفي الآخرة سوف ترونها ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾.

القـــراءة

﴿عما تعملون﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء.



سورة القصص سميت لورود قصة موسى عليه السلام بالتفصيل في هذه السورة.

موسى وفرعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لما أمر سبحانه في خاتمة سورة النمل بتلاوة القرآن بين في هذه السورة أن القرآن من ﴿طسٓمٓ﴾ وأنه يتلو عليهم من نبأ موسى وفرعون فقال:

١ ـ ﴿ طسٓمٓ ﴾. سبق تفسيره في سورة الشعراء.

٢ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾. هذه آيات القرآن، المظهر الحق من الباطل.

٣ ـ ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾. نقص عليك طرفاً من خبرهما متلبساً بالحق لقوم يؤمنون بالله لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء.

٤ ـ ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿إنّ فرعون علا في الأرض﴾ طغى وتجبّر في أرض مصر، وسبق في الأعراف الكلام على فرعون موسى ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي فرقاً في خدمته يشايعونه على ما يريد، ويطيعونه ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ وهم بنو إسرائيل واستضعافه إياهم: استعبادهم ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ يستبقيهم أحياء لقول بعض الكهنة له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبب زوال ملكك ﴿إنه كان من المفسدين﴾ بالقتل والمعاصي.

المستضعفون

٥ ـ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾.

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ وهم بنو إسرائيل في ذلك الوقت ﴿ونجعلهم أئمة﴾ أنبياء يقتدى بهم في الخير وولاة وملوكاً ﴿ونجعلهم الوارثين﴾ للأرض يسيرون حيث يشاؤون أحراراً بعد هلاك فرعون وجنده، لأن الأرض لله يرثها من يشاء من عباده الصالحين.

٦ ـ ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾.

﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ أي نبعد عنهم الخوف من فرعون ونثبت أمرهم بيدهم ﴿ونري فرعون وهامان﴾ أحد الملأ الأشراف والوزير المقرب لفرعون ﴿وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ لما كانوا على وجل من زوال ملكهم على يد رجل من بني إسرائيل كما أخبرهم الكهنة، فأراهم الله حقيقة ما كانوا يخافون.

القـــراءة

﴿ونري﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ويري﴾ بالياء، ﴿فرعون وهامان وجنودهما﴾ كله بالرفع.

أم موسى

٧ ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ وحي إلهام ﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم﴾ نهر النيل ﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ لفراقه أو غرقه أو جوعه ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

٨ ـ ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾.

﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ ليكون لهم عدواً في دينهم، وجزاء لما يصنعه بهم ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ عاصين فعوقبوا على يديه.

القـــراءة

﴿وحزناً﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿وحزناً﴾ بضم الحاء وجزم الزاي.

موسى في بيت فرعون

٩ ـ ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿وقالت امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم، وكانت من بني إسرائيل، وكانوا أرادوا قتله ﴿قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ وكان فرعون لا يولد له إلا البنات ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنه عدو لهم، وأن هلاكهم على يديه.

١٠ ـ ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ فارغاً من كل هم إلّا من هم موسى، وقال أبو مسلم: فراغ الفؤاد هو الخوف والإشفاق كقوله ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي جوف لا عقول بها ﴿إن كادت لتبدي به﴾ بأنه ابنها خوفاً عليه وشفقاً، وهذا يدل على أن الوحي إليها لم يكن عن طريق الملائكة بل كان إلهاماً تلقّته ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ بالصبر سكناه ﴿لتكون من المؤمنين﴾ المصدقين بوعد الله.

١١ ـ ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿وقالت لأخته قصيه﴾ قصي أثره واطلبيه حتى تعلمي خبره ﴿فبصرت به عن جنب﴾ من مكان بعيد اختلاساً، ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنّها أخته وأنها ترقبه.

١٢ ـ ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ ﴾.

﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي منعناه من قبول ثدي مرضعة غير أمه فلم يقبل ثدي واحدة من المراضع اللاتي أحضرن له ﴿فقالت﴾ أخته ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ بالإرضاع والحضانة ﴿وهم له ناصحون﴾ فقالوا لها نعم.

١٣ ـ ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها﴾ بلقائه ﴿ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الله وعدها بالإلهام أن يرده إليها.

ثم بين سبحانه كمال عنايته في حقه كما بين في قصة يوسف قائلاً:

١٤ ـ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ الأشد عبارة عن البلوغ، والاستواء إشارة إلى كمال الخلقة، وفي سورة يوسف ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ ويروى عن ابن عباس: الأشد ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين، وهو عند الأطباء سن الوقوف ﴿آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ والعلم التوراة والحكم، وأما حكمة الأنبياء سنتهم.

١٥ ـ ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ المدينة هي القرية التي يسكنها فرعون، تبعد فرسخين من مصر، وقال الضحاك هي عين شمس، وحين غفلتهم في وقت كان آل فرعون مشتغلين بأمورهم أو وقت نومهم، فلم يفطن فيه أحد من عيونهم ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته﴾ أي من بني إسرائيل ﴿وهذا من عدوه﴾ أي من أعدائه من القبط، وكان القبطي سخر الإسرائيلي ليستخدمه في عمل ما ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ واستغاثه: سأل موسى أن يخلصه من القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ أي دفعه بكفه وكان موسى شديد القوة والبطش فمات من ساعته، ولم يكن يريد قتله ﴿قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدو مضل مبين﴾ ثم استغفر.

وهنا ملاحظة: أن هذا الدخول كان قبل أن يخرج من المدينة خائفاً من فرعون بعد أن تهدده بالقتل وطلبه للجزاء وقبل أن يذهب إلى أهل مدين، وقبل أن يؤتيه الله العلم والحكمة ويخاطبه كنبي رسول، والواو هنا ليست للترتيب ويدل على ذلك ما جاء في سورة الشعراء الآية (٢١) ﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾.

١٦ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ بقتل هذا ولا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر ﴿فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾.

١٧ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

١٨ ـ ﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿قال رب بما أنعمت علي﴾ بالمغفرة اعصمني ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾.

﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾ ينتظر سوءاً يناله منهم، ويخاف أن يقتل به ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس﴾ وهو الإسرائيلي الذي تشاجر مع القبطي في المرة الأولى واليوم يستغيث به من قبطي آخر قال له موسى إنك لغوي مبين غوي بمعنى غاو، والمعنى: إنك غاو في قتالك من لا تطيق دفع شره عنك، وبين الغواية لما فعلته بالأمس واليوم من كثرة المخاصمة.

١٩ ـ ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

﴿فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما﴾ أي بالقبطي الكافر ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ هذا القول للقبطي وكان عرف بالقضية من الإسرائيلي حين تخاصم معه ولذلك وجه هذا اللوم لموسى ﴿إن تريد إلّا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ فتركه موسى فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك فأمر فرعون جنوده بقتل موسى فأخذوا في الطريق إليه.

٢٠ ـ ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾.

﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى﴾ أي جاء رجل مؤمن من آل فرعون يسرع في مشيه من طريق أقرب ﴿قال يا موسى إن الملأ﴾ من قوم فرعون ﴿يأتمرون بك﴾ يهمون بك ﴿ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾.

٢١ ـ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾. قوم فرعون المشركين.

موسى يتوجه إلى مدين

٢٢ ـ ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

﴿ولما توجّه تلقاء مدين﴾ وهي قرية شعيب على مسيرة ثمانية أيام من مصر، سميت بمدين بن إبراهيم ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ إذ لم يكن له بالطريق علم.

٢٣ ـ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾.

﴿ولما ورد ماء مدين﴾ بئر فيها ﴿وجد عليه أمة من الناس﴾ جماعة ﴿يسقون﴾ مواشيهم ويروون قربهم أي يملؤونها ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ تكفان غنمهما فحذف الغنم اختصاراً، ليفرغ الناس وتخلوا لهما البئر ﴿قال ما خطبكما﴾ ما شأنكما لا تسقيان ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ جمع راع أي يرجعون من سقيهم خوف الزحام فنسقي ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ لا يقدر أن يسقي.

القــــراءة

﴿يصدر﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿حتى يصدر الرعاء﴾ بفتح الياء ورفع الدال.

٢٤ ـ ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

﴿فسقى لهما﴾ من بئر أخرى عليها صخرة كبيرة لا يقتلعها إلّا جماعة من الناس فاقتلعها وسقى لهما ﴿ثم تولّى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ والمعنى: ثم تولى إلى ظل الشجرة ليستريح من وعثاء الطريق ومشقته وهو رجل دائم الصلة بربه يذكره ويتضرع إليه فلا ينساه أبداً، وبخاصة في هذا الوقت الشديد فقال: يا رب أعطني من فضلك وأسبغ علي من نعمتك فإني إلى ما أنزلت إليّ من طعام فقير.

٢٥ ـ ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

﴿فجاءته إحداهما﴾ بعد أن شربت غنمهما وذهبت هي وأختها إلى أبيهما وأخبرتاه خبر موسى ﴿تمشي

على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ لما سمع موسى هذا القول كرهه وأراد ألا يتبعها وللجهد الذي به تبعها، فقال لها، امشي خلفي ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾.

٢٦ ـ ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾.

القوي لرفعه الحجر عن البئر، والأمين في خلقه على العرض إذ لم يستغل وحدته مع المرأة بل طلب منها زيادة في الحيطة أن تمشي خلفه.

٢٧ ـ ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ أي أزوجك واحدة منهما ﴿على أن تأجرني ثماني حجج﴾ أي سنين ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ أي فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك، ثم أكد وعد المسامحة بقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ الوافين بالعهد.

٢٨ ـ ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

﴿قال﴾ موسى ﴿ذلك بيني وبينك﴾ أي ذلك الذي وضعت وشرطت علي، فلك، ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ يعني الثمان أو العشر ﴿فلا عدوان علي﴾ أي لا سبيل علي بأكثر منه ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ هذا وقد أتم موسى أكمل الأجلين كما في البخاري.

موسى يفارق مدين

٢٩ ـ ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾.

﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ العشر سنوات المتفق عليها وهي أطول الأجلين ﴿وسار بأهله﴾ زوجته ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ الطور اسم جبل في سيناء وآنس أبصر من بعيد ﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر﴾ عن الطريق ﴿أو جذوة﴾ وهي قطعة حطب فيها نار ﴿من النار لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون.

القـــراءة

﴿جذوة﴾ قرأ عاصم بفتح الجيم، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي بكسر الجيم، وقرأ حمزة وخلف والوليد عن ابن عامر بضمها جُذوة، وكلها لغات.

٣٠ - ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن﴾ أي من جانبه ﴿في البقعة المباركة﴾ لموسى لسماعه كلام الله فيها ﴿من الشجرة﴾ أي من ناحيتها، وهي شجرة غير معروفة ﴿أن يا موسى﴾ أن مفسرة ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾.

٣١ - ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾.

﴿وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ أي حية متوسطة تتحرك كأنها صغيرة من سرعة حركتها ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي هرب منها ولم يرجع فنودي ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾.

٣٢ - ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

﴿اسلك يدك في جيبك﴾ أي أدخلها ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ من غير مرض ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ عبر الله عن اليد بالجناح لأنها للإنسان كالجناح للطائر، ولما هاله بياض يده وشعاعها أمر أن يدخلها في جيبه، حالة كونه ضامها إليه ليسكن روعه، ويثبت جأشه، ويذهب عنه الفزع، ﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه﴾ يعني العصا واليد، حجتان من الله لموسى على صدقه ﴿إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

القـــراءة

﴿الرهب﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، بفتح الراء والهاء ﴿الرهب﴾ وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بضم الراء وسكون الهاء، وقرأ حفص وأبان عن عاصم بفتح الراء مع التشديد وسكون الهاء.

﴿فذانك﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿فذانك﴾ بالتشديد.

٣٣ - ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾.

﴿قال رب إني قتلت منهم نفساً﴾ هو القبطي السابق الذي تقاتل مع الإسرائيلي ﴿فأخاف أن يقتلون﴾.

٣٤ - ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾ أبين ﴿فأرسله معي ردءاً﴾ معيناً يصدقني إني أخاف أن يكذبون.

القـــراءة

﴿يصدقني﴾ قرأ عاصم وحمزة بضم القاف، وقرأ الباقون بسكون القاف. ﴿ردءاً﴾ قرأ نافع ﴿رداً﴾ بغير همز.

٣٥ ـ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

﴿قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ أي حجة بينة ﴿فلا يصلون إليكما﴾ بالأذى ﴿بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ أي تغلبون بآياتنا.

موسى يدعو فرعون

٣٦ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ وهي التسع الواضحات ﴿قالوا ما هذا إلّا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾[1].

٣٧ ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ أي هو أعلم بالمحق منا ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾.

القـــراءة

﴿وقال موسى﴾ قرأ ابن كثير ﴿قال موسى﴾ بغير واو، ﴿من تكون له عاقبة﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿من يكون له عاقبة﴾ بالياء.

٣٨ ـ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

﴿وقال فرعون يا أيها المـلأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ أي أنه جعل لهم حرية ما يعبدون من الأوثان والأصنام لكنه جعل لنفسه الكبرياء فدعاهم إلى عبادته على أساس أنه رب الآلهة جميعاً، حيث قال أنا ربكم الأعلى، ثم أمر وزيره فقال ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي اطبخ لي الآجر بالنار لكي يكون لبناً صالحاً

---

(١) قد مر في سورة المؤمنين، الآية: ٢٤.

للبناء ﴿فاجعل لي صرحاً﴾ الصرح: هو القصر العالي أو كل بناء متسع مرتفع ﴿لعلّي أطلع إلى إله موسى﴾ أكون قريباً منه فأراه، لأقف على حقيقته، وبمجموع هذه الأشياء قرر أنه لا دليل على الصانع ثم رتب النتيجة عليه بقوله: ﴿وإني لأظنّه من الكاذبين﴾ في ادعائه إلهاً غيري أرسله.

٣٩ ـ ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾.

﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض﴾ أرض مصر ﴿بغير الحق﴾ بالباطل والظلم ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾.

القــــراءة

﴿يرجعون﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء.

٤٠ ـ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ البحر الأحمر المالح فغرقوا ﴿فانظر كيف عاقبة الظالمين﴾.

٤١ ـ ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

﴿وجعلناهم أئمة﴾ قادة في الدنيا يأتم بهم الأشرار ﴿يدعون إلى النار﴾ بدعائهم إلى الشرك والظلم لأن من أطاعهم دخلها من التابعين ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾.

٤٢ ـ ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾.

﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي طرداً وإبعاداً من الرحمة ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾.

إنه سبحانه بعد تتميم قصة موسى أراد أن يبين إعجاز نبينا ﷺ فذكر أولاً أنه أعطى موسى الكتاب بعد إهلاك فرعون وقومه فقال:

٤٣ ـ ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿بصائر للناس﴾ أي ليبصروا به ويهتدوا ﴿وهدى ورحمة لعلّهم يتذكرون﴾ يتعظون بما فيه.

ثم أجمل عظائم أحوال موسى عليه السلام وبين أنه ﷺ لم يكن هناك فقال:

٤٤ ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي بجانب المكان الواقع في شق الغرب بالنسبة لموسى، الذي فيه قضى إليه أمر الوحي ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين﴾ أي إذ أوحينا إلى موسى بالرسالة إلى فرعون

وقومه، وما كنت من الشاهدين يا محمد لذلك فتعلمه فتخبر به.

٤٥ ـ ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾.

﴿ولكنا أنشأنا قروناً﴾ أي خلقنا أمماً من بعد موسى ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ أي طالت أعمارهم فنسوا العهود وأندر العلوم وانقطع الوحي فجئنا بك رسولاً وأوحينا إليك خبر موسى وغيره ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين﴾ أي ما كنت يا محمد مقيماً في مدين فتعلم خبر موسى وشعيب فتتلو ذلك على أهل مكة ولكن نحن أوحينا إليك ذلك.

٤٦ ـ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى أن خذ الكتاب بقوة ﴿ولكن رحمة من ربك﴾ ولكن أوحيناها إليك وقصصناها عليك رحمة من ربك ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾.

٤٧ ـ ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ لولا حرف امتناع لوجود، وجواب لولا محذوف تقديره: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة ﴿بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾.

طلب الكفار آيات كونية مثل موسى

ثم بين أنهم قبل البعثة يتعلّقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون بأخرى فلا مقصود لهم إلّا العناد فقال:

٤٨ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ أي لما جاء محمد ﷺ أهل مكة ﴿قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ كالعصا واليد، فردّ الله عليهم أي اليهود الذين قالوا للكفار أن يسألوا النبي محمداً ﷺ بعض المعجزات والآيات الكونية مثل موسى فقال: ﴿أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾ حيث ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ أي تعاونا، ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾.

القــــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ساحران﴾ وقرأ عاصم وحمزة ﴿سحران﴾.

٤٩ ـ ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما﴾ أي قل لكفار مكة فليأتوا بكتاب أهدى من التوراة والقرآن ﴿أتبعه إن كنتم صادقين﴾ أنهما ساحران.

٥٠ ـ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

٥١ ـ ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾ القرآن مبيناً لكل شيء سألوا عنه وما لم يسألوا عنه ﴿لعلّهم يتذكرون﴾.

٥٢ ـ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾.

من آمن من أهل الكتاب بمحمد.

٥٣ ـ ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾.

أي من قبل نزول القرآن مخلصين لله موحدين مصدقين بمحمد، وذلك لأن ذكره كان في كتبهم.

لما بين أنهم آمنوا بعد البعثة وبيّن أنهم كانوا مؤمنين به قبل البعث ثم أثبت لهم الأجر مرتين فقال:

٥٤ ـ ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾.

﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ صبروا على الإيمان بالدينين والعمل بهما، وصبروا على أذى الكفار وكانوا من صبرهم وحسن خلقهم وقوة إيمانهم أنهم ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون كل ما يصيبهم من الأذى بالحلم والصبر ومكارم الأخلاق ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾.

٥٥ ـ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾.

﴿وإذا سمعوا اللغو﴾ الشتم والأذى من الكفار ﴿أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم﴾ لم يريدوا التحية وإنما أرادوا أن لنا حلمنا ولكم سفهكم، وبيننا وبينكم المتاركة والمفارقة، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال بعد أن قويت شوكتهم، وعزّ جانبهم، وهذا الموقف يتخذه من لا قدرة له على القتال ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نصحبهم.

ودعوى التعارض بآية السيف في غير محلها، فالآية محل عمل في المجتمعات الإسلامية، ولا يجوز إسقاط حكمها أو تعطيله، بدون دليل، وإذا كان المسلمون الأولون قد طبقوها لحاجتهم لها وهي من مكارم الأخلاق فإن الحاجة ماسة لتطبيقها اليوم حيث يعيش ملايين المسلمين في مجتمعات كافرة وظالمة فاسقة.

ثم ذكر أن الهداية إنما تتعلق بمشيئة الله فقال:

٥٦ ـ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾ هدايته لقرابة أو محبة ﴿ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ نزلت في عم النبي حينما طلب منه أن ينطق بالوحدانية عند الموت ولكن الكفار صرفوه عن ذلك فمات مشركاً، فقال النبي: والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله ﴿وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾[1].

وحيث بين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم إليه هداية الله سبحانه حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بالدنيا فقال:

٥٧ ـ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ قال ذلك ناس من قريش، ومعنى الآية: إن اتبعناك على دينك خفنا العرب لمخالفتنا إياها، والتخطف الانتزاع بسرعة، فردّ الله عليهم قولهم ﴿أولـم نمكّن لهم حرماً آمناً﴾ أي أولـم نسكنهم حرماً، مكاناً ذا حرمة ونجعله ملكاً لهم، ذا أمن يأمن فيه الناس، وذلك أن العرب في الجاهلية كان يغير بعضها على بعض، وأهل مكة آمنون في الحرم من القتل والسبي والغارة، أي فكيف يخافون إذا أسلموا وهم في حرم آمن ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ تجيء إليه الأرزاق والأنواع المختلفة من التجارة من كل النواحي، ويأتيه الحجاج من كل صوب ﴿رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن ما نقوله حق.

القــــراءة

﴿يجبى﴾ قرأ نافع ﴿تجبى﴾ بالتاء.

خذوا العبرة من الأمم السابقة

ثم خوفهم من عذاب الأمم السابقة:

٥٨ ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾.

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ البطر الطغيان في النعمة، أكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام، ومعيشتها منصوب بنزع الخافض ﴿في﴾ والمعنى بطرت في معيشها ﴿فتلك مساكنهم لم تسكَن من بعدهم إلّا

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

قليلاً﴾ لم يسكنها إلّا المارة المسافرون للاستراحة يوماً أو ساعة ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ بقيت خراباً وآثاراً غير مسكونة.

ثم كان لسائل أن يقول ما بال الكفرة قبل مبعث محمد ﷺ لم يهلكوا مع تماديهم في البغي فقال:

٥٩ ـ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴾.

﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ الكافر أهلها ﴿حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا﴾ أمها أي عاصمتها وأعظمها وغالباً ما تكون تلك التي يسكنها الأشراف والرؤساء والقادة المترفون وتسمى مكة أم القرى لهذا السبب ﴿وما كنا مهلكي القرى﴾ بعذاب الاستئصال ﴿إلّا وأهلها ظالمون﴾.

ثم أجاب عن شبهتهم بجواب ثالث وذلك أن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لأجل الدنيا فبين تعالى بقوله:

٦٠ ـ ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

القـــراءة

﴿أفلا تعقلون﴾ قرأ أبو عمرو ﴿أفلا يعقلون﴾.

ثم زاد البيان المذكور تأكيداً بقوله:

٦١ ـ ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾.

قال القرطبي: قال العشيري والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم.

ثم ذكر من وصف القيامة قائلاً:

٦٢ ـ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

﴿ويوم يناديهم﴾ ينادي الله المشركين يوم القيامة ﴿فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ الزعم ادعاء الشيء كذباً بالقول.

٦٣ ـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾.

﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ أي حان وقت عذابهم وهم رؤساء الضلالة ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم﴾ هم أي هؤلاء الذين ضللناهم بالوسوسة والتسويل بكل ما أمكن حتى غووا ﴿أغويناهم كما غوينا﴾

أي أضللناهم كما ضللنا، ﴿تبرأنا إليك﴾ أي تبرأنا إليك منهم والمعنى يتبرأ بعضهم من بعض حتى يصيروا أعداء ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ أي إنما كانوا يعبدون أهواءهم الفاسدة.

وحين حكى التوبيخ المذكور ثم ما يقوله الشياطين أو أئمة الكفر اعتذاراً ذكر ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم:

٦٤ ـ ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي أصنامكم وأئمة الكفر لكم ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فلم يجيبوهم لنصرهم، ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾.

ثم بكتهم بالاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل فقال:

٦٥ ـ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿ويوم يناديهم﴾ أي الكفار ويسألهم ﴿فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾.

٦٦ ـ ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ﴾ خفيت عليهم الحجج وسميت أنباء لأنها أخبار يخبر بها، عموا عنها من شدة الهول فلم يجيبوا ﴿فهم لا يتساءلون﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً من ذنوبه فهم متساوون في العجز عن الجواب.

وحين فرغ من توبيخ الكفار وتهديدهم أتبعه ذكر التائبين فقال:

٦٧ ـ ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾.

ثم إن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى وهي قولهم ﴿لولا نزل القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ فأجاب الله تعالى عنها بقوله:

٦٨ ـ ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ قال ابن كثير والصحيح أن مـا نافيـة، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾.

الله يعلم ما في صدور الكفار

ثم أكد مضمون الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال بقوله:

٦٩ ـ ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم.

٧٠ ـ ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

﴿وهو الله لا إله إلّا هو له الحمد في الأولى﴾ الدنيا ﴿والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾.

لما بين سبحانه حقيقة ألوهيته واستحقاقه للحمد المطلق وأن مرجع الكل إلى حكمته وقضائه أتبعه بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه أحد سواه فقال:

٧١ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة﴾ السرمد، الدائم، ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ الضياء، هو نور الشمس تتعلق به المنافع المتكاثرة وليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء ﴿أفلا تسمعون﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه، ثم وصف فوائده وقرن بالليل فقال:

٧٢ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة؟ ثم أخبر أن الليل والنهار رحمة منه.

٧٣ ـ ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

٧٤ ـ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

٧٥ ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي أخرجنا من كل أمة رسولها يشهد عليهم بما قالوا وبما بلغ لهم، فقلنا لهم هاتوا حجتكم على ما كنتم تعبدون من دوني ﴿فعلموا أن الحق لله وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي غاب عنهم كل ما كانوا يتذرّعون به في الدنيا من الحجج، وما كانوا يقولونه من الافتراء والكذب الذي يزعمونه من الشركاء لله.

ثم عقب حديث أهل الضلال بقصة قارون فقال:

قارون

٧٦ ـ ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾.

﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ هو من بني إسرائيل آمن بموسى قال ابن كثير: قال ابن جريج: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، ﴿فبغى عليهم﴾ بالكبر والعلو ولم يعمل بعلمه ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ﴾ تثقل ﴿بالعصبة أولي القوة﴾ أي إن من كثرة خزائنه كانت الجماعة القوية تثقلهم وتميلهم حمل مفاتيحها ﴿إذ قال له قومه﴾ المؤمنون العاملون من بني إسرائيل ﴿لا تفرح﴾ أي لا تفرح فرح بطر ﴿إنّ الله لا يحب الفرحين﴾.

٧٧ ـ ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الجنة وذلك بإنفاق المستحق عليك في رضى الله تعالى وشكراً للمنعم ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي افعل ما بدا لك من اللذات المباحة ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أحسن إلى خلق الله كما أحسن هو إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض إنّ الله لا يحب المفسدين﴾.

لكنه تلقى النصح بكفران النعمة قائلاً:

٧٨ ـ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال ابن كثير: لولا رضى الله ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ للأموال ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لا يسأل الله المجرمين يوم القيامة عن تفاصيل ما فعلوا سؤال استيقان وذلك لعلمه تعالى بها فيدخلون النار، وإن سئلوا فسؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة[1].

٧٩ ـ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

﴿فخرج على قومه في زينته﴾ أي خرج قارون على بني إسرائيل ذات يوم بأتباعه الكثيرين متحلين بملابس الزينة ولا فائدة من ذكر نوع الملابس وألوانها ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا﴾ الراغبون في العاجلة أكثر من الآخرة ﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ ذو نصيب وافر من الدنيا.

٨٠ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾.

(١) راجع الآية: ٦ من سورة الأعراف.

﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم﴾ الأحبار من بني إسرائيل، ويلكم كلمة زجر ﴿ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾ ممّا أعطي قارون، أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون، وكما جاء في الحديث الصحيح يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ أي لا يوفق لها ويرزقها إلا الصابرون على طلب زينة الحياة الدنيا وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال، على لذات الدنيا وشهواتها فجدوا في طاعة الله.

٨١ ـ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾.

٨٢ ـ ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

﴿وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾ أي وأصبح الذين تمنوا مكان قارون وموضعه من الدنيا بالأمس يقولون لما عاينوا ما حلّ الله به من نقمته: ألم تر يا هذا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسع عليه لا لفضل منزلته عنده ولا لكرامته عليه، كما كان بسط من ذلك لقارون، ويضيق على من يشاء من خلقه ويقتر عليه لا لهوانه ولا لسخطه عليه ﴿لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ لنقمة الله كقارون.

القـــراءة

قرأ حفص ﴿لخسف بنا﴾ بفتح الخاء والسين وقرأ الباقون ﴿لخسف بنا﴾ بضم الخاء على ما لم يسم فاعله.

٨٣ ـ ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

﴿تلك الدار الآخرة﴾ يعني الجنة ﴿نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض﴾ تكبراً وتجبراً بغير الحق ﴿ولا فساداً﴾ العمل بالمعاصي ﴿والعاقبة للمتقين﴾ العاقبة المحمودة.

٨٤ ـ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي مثله.

ثم أراد أن يسلي رسوله ﷺ في خاتمة السورة فقال:

٨٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ مقام الفناء في الله والبقاء به ﴿قل ربي أعلم من جاء

بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾.

ثم ذكر رسوله بما أنعم به عليه فقال:

٨٦ ـ ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي أن تكون نبياً، وأن يوحى إليك القرآن ﴿إلّا رحمة من ربك﴾ إلا أن ربك رحمك فأنزله عليك ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾، أي ألا تكون عوناً لهم على دينهم، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فأمر بالاحتراز منهم، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أهل دينه لئلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم.

٨٧ ـ ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي لا ترجع إليهم في ذلك ﴿وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين﴾.

ثم بين أن مرجع الكل إليه فقال:

٨٨ ـ ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

له الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره، وإليه المرجع في الآخرة.

تم تفسير سورة القصص ولله الحمد



سورة العنكبوت سميت لورود كلمة العنكبوت في السورة.

إنّه سبحانه لما قال في خواتيم السورة المتقدمة إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد أي إلى مكة ظاهراً ظافراً وكان في ذلك الرد من احتمال مشاق الحوادث ما كان قال بعده في مفتتح هذه السورة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓمٓ ﴾. سبق تفسيرها.

٢ ـ ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾.

كلمة الناس إذا أطلقت في القرآن يراد بها الكفار، وقد تطلق ويراد بها الكفار والمسلمون عامة مثل قوله تعالى في سورة الناس ﴿قل أعوذ برب الناس﴾، ولكنّها في هذه الآية قيدت بالمسلمين الذين آمنوا، فهي تعني المسلمين في مكة، والعبرة بعموم اللفظ، فتعم جميع المسلمين، ﴿وهم لا يفتنون﴾ أي: لا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم من كذبه، والاختبار يكون بشتى الأنواع.

ثم مثّل حال هؤلاء بحال السلف منهم قائلاً:

٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

أي ابتليناهم واختبرناهم بشتى أنواع الابتلاء من القتل والعذاب والأمر والنهي وغير ذلك، ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي فليظهرن ذلك حتى يوجد معلوماً للعيان ويتميز الصادق من الكاذب لأن الله قد علم ذلك من قبل.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة التوبة الآية (١٧) ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾، وفي سورة البقرة الآية (٢١٤) ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾.

ثم بين قوله:

٤ ـ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

أي يفوتونا فلا ننتقم منهم ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس ما حكموا لأنفسهم حين ظنوا ذلك.

٥ ـ ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

أي من كان يخاف ويخشى مواجهة الله يوم الحساب في الآخرة فإن الأجل المضروب للبعث آت لا محالة، فليعمل لذلك اليوم، قال الله تعالى في سورة الكهف الآية (١١٠) ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلٰهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

ثم بيّن قوله:

٦ ـ ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي أن منفعة ذلك الجهاد سواء بالنفس أو المال أو اللسان راجع إليه، وثوابه له.

٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

وحين بيّن حسن التكاليف ووقوعها وذكر ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها أشار بقوله:

٨ ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

معناه: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما هو حسن، مما يرضيانه وتطيب به أنفسهما، وإن طلبا منك وألزماك أن تشرك بي إلٰهاً ليس لك علم بكونه إلٰهاً فلا تطعهما في ذلك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ويلحق بطلب الشرك سائر المعاصي فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله.

ثم أكّد جزاء من آمن وعمل صالحاً بتكرير قوله:

٩ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿في﴾ بمعنى ﴿مع﴾.

ثم بيّن حال أهل النفاق بعد تقرير أهل الكفر والوفاق فقال:

١٠ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ومن الناس من يقول ءآمنا بالله فإذا أوذي في الله﴾ أي ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه، بأن نزل به شيء من الدائرة التي تسيطر على الإنسان من قضاء الله وقدره، جعل ما يصيبه من عذاب الناس له في الدنيا

كعذاب الله في الآخرة، وإنما ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في سبيل الله ﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ للمؤمنين على الكافرين فغنموا ﴿ليقولن﴾ يعني المنافقين للمؤمنين ﴿إنا كنّا معكم﴾ على دينكم فكذبهم الله عز وجل وقال: ﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ من الإيمان والنفاق.

قال ابن كثير: يقول الله تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذّبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ ثم قال: قال ابن عباس: يعني فتنة أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله، أي في شأن الله ولأجله.

ثم أخبر أنّه سبحانه أعلم بما في صدور العالمين فقال:

١١ ـ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.

علم ظهور، واللام لام قسم.

١٢ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

قال مجاهد: هذا قول كفار قريش لمن آمن من أهل مكة، أي إن اتبعتم سبيلنا أي ديننا حملنا خطاياكم ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنّهم لكاذبون﴾ أي فيما ضمنوا من حمل خطاياهم.

١٣ ـ ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

أي أوزاراً مع أوزارهم، وهي أوزار الذين أضلّوهم، وهذا كقوله تعالى في سورة النحل ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾[1]، وهم الذين قلدوهم واتبعوهم، كما سيحملون أوزاراً أخرى كذلك بقولهم للمؤمنين اتبعونا ﴿وليسألن يوم القيامة﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كانوا يفترون﴾.

نوح عليه السلام

ثم أجمل قصة نوح عليه السلام تصديقاً لقوله في أول السورة ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾.

١٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

قال السيوطي في (الدّر)[2]، أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو

(١) الآية: ٢٥.
(٢) مجلد: ٥ ص ١٤٣.

الشيخ، والحاكم وصححه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا.

﴿فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾، قال الزجاج: الطوفان من كل شيء: ما كان كثيراً مطيفاً بالجماعة كلها، بالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة: طوفان، وكذلك القتل الذريع، والموت الجارف: طوفان.

١٥ ـ ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وجعلناها بعدهم أي السفينة آية للعالمين.

إبراهيم عليه السلام

١٦ ـ ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم بين بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾.

١٧ ـ ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

الأوثان هي الأصنام، واحدها وثن، و(إفكاً) أي كذباً في زعمكم أنها آلهة، ثم بين عجزهم بقوله: المعنى: إنّ الذين تعبدونهم لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق فاصرفوا رغبتكم في إرزاقكم إلى الله، فهو الذي عنده الرزق كله، فاسألوه من فضله إن أعطاكم القوة والصحة التي تعينكم على جلب الرزق.

١٨ ـ ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

والمعنى: فأهلكوا وفيه تهديد.

وحين بيّن التوحيد والرسالة شرع في بيان المعاد، فإن هذه الأصول الثلاثة لا تكاد تنفصل في الذكر الإلهي فقال:

١٩ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

أي كيف يخلقهم من نطفة، ثم علقه، ثم من مضغة، إلى أن يتم الخلق ﴿ثم يعيده﴾ يعني الخلق الأول والثاني.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿تروا﴾ بالتاء، وقرأ الباقون بالياء.

٢٠ ـ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وفيه إشارة إلى البحث والتنقيب عن آثار الماضين لأخذ العبرة والعظة، فهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي أحياهم قادر على أن ينشئهم عند البعث نشأة أخرى.

القـــراءة

﴿النشأة﴾ أكثر القراء قرؤوا بتسكين الشين وترك المد، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿النشآءة﴾ بالمد.

٢١ ـ ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ هذا في الآخرة، لأن عذاب الدنيا مؤخر عن أمة محمد.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي أن الله قادر على إدراككم سواء أكنتم في الأرض أم كنتم في أفلاك أخرى غير الأرض كالقمر والمريخ والزهرة، وغيرها من الكواكب التي تعتبر لنا في السماء، ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي لا قريب ولا معاون ينفع إذا حلّ العذاب.

٢٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿آيات الله﴾ هي القرآن، ﴿ولقائه﴾ البعث يوم القيامة، وعني بالرحمة هنا الجنة.

٢٤ ـ ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

كان جواب قومه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الكفر وعبادة الأصنام لبعضهم ﴿اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار﴾ التي قذفوه فيها بأن جعلها الله برداً وسلاما، وفي إنجاء الله لإبراهيم آيات عظيمة.

ثم حكى أنه بعد أن خرج من النار عاد إلى النصيحة والدعاء لقومه إلى التوحيد والإخلاص فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

قال إبراهيم: إنما اتخذتم هذه الأصنام لتتوادوا بها، ويوم القيامة يتبرأ القادة من الأتباع ويلعنونهم لأنّهم زينوا لهم الكفر.

القـــراءة

﴿مودة﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، بالرفع على إضمار (هي) كأنّه قال تلك هي مودةُ، وقرأ نافع، وابن عامر،

وأبو بكر عن عاصم بنصب مودَة، وبينَكم على الظرفية، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم ﴿مودةَ بينِكم﴾ بنصب مودة مع الإضافة.

٢٦ ـ ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

﴿فآمن له لوط﴾ ابن أخ إبراهيم هارون، ﴿وقال﴾ إبراهيم ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾ أي إلى حيث أمرني فهاجر من سواد العراق إلى الشام. ﴿إنّه هو العزيز الحكيم﴾.

٢٧ ـ ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

إسحاق بعد اسماعيل، ويعقوب من إسحاق ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ يعني بالكتاب، التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وذلك أن الله تعالى، لم يبعث نبياً بعد إبراهيم إلاّ من ذريته، ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ الثناء والذكر الحسن والولد الصالح ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ الذين لهم الدرجات العلا[1].

لوط

٢٨ ـ ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

قال المفسرون المراد بالفاحشة هنا، أدبار الرجال، وهذا التفسير يؤيد رأي القائلين بأن المراد بقوله تعالى في سورة النساء[2] ﴿والّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً﴾ هم الرجال بعد أن ذكر عقوبة النساء بقوله ﴿واللاتي يأتين الفاحشة﴾.

٢٩ ـ ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

قطع السبيل في الأصل هو التعرض للمارة من المسافرين من النهب والسلب والأذى، واستعمل هنا للتعرض بالأذى والفاحشة لكل من يمرّ بهم، أو يدخل مجالسهم، وقد يطلق على قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال لأن الفرج سبيل التوالد المشروع.

﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ النادي هو المكان الخاص للاجتماعات واللقاءات، والمنكر يجمع الفواحش من القول والفعل ﴿فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾.

---

(١) سبق تفسيره في سورة البقرة، الآية: ١٣٠.
(٢) الآية: ١٦.

٣٠ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

٣١ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾.

أي الملائكة تبشر إبراهيم بالذرية ومنهم إسحاق ويعقوب، ﴿وقالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ قرية لوط قرب البحر الميت، وهذه القرية عاصمة المكان المسمى السديم وسبق تفسير ذلك بسورة الأعراف[1] ﴿إن أهلها كانوا ظالمين﴾.

ثم إنّ إبراهيم لما سمع إنذار الملائكة أظهر الإشفاق على لوط والحزن له قائلاً:

٣٢ ـ ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾.

﴿قالوا﴾ رسل الله وهم الملائكة ﴿نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلّا امرأته كانت من الغابرين﴾ الباقين في العذاب.

القـــراءة

﴿لننجينه﴾ قرأ نافع وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، بالتشديد، وخفف حمزة والكسائي.

٣٣ ـ ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾.

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ كأن الأرض لم تسعه على وسعها، لأنه ظن أنهم ضيوف مارّون به.

القـــراءة

﴿وقالوا إنّا منجوك﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن كثير بالتخفيف.

٣٤ ـ ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

الرجز: معناه العذاب الذي يوقع صاحبه في القلق والاضطراب.

٣٥ ـ ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

الضمير في منها يعود على الفعلة وليس على القرية، فالقرية ليست لها آثار تذكر لتكون عبرة، والتفسير

(١) الآية: ٨٠.

الذي يتفق مع سياق الآية. وختام القصة، أن الله تعالى قص علينا في القرآن بعضاً من خبر قوم لوط وما أصابهم ليكون هذا الخبر الموجز آية واضحة في أذهاننا لنعقل ونتدبر ما فعله بالماضين، ولم يشأ الله سبحانه أن يقص علينا كل خبرهم فترك ذلك لحكمة هو أعلم بها، وكلمة يعقلون، تدل على التفكر للمعاني دون السير والبحث عن المباني.

مدين وشعيب[1]

٣٦ ـ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

مدين ماء، ومدين هو ابن إبراهيم عليه السلام، ثم أطلق على القبيلة والمدينة، والمدينيون عرب، وأرضهم كانت تمتد من خليج العقبة إلى طور سيناء، وشعيب من أبناء العرب المنحدرين من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣٧ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

عاد

٣٨ ـ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾.

أي وأهلكنا عاداً وثموداً، وهما بمعنى القبيلة، ومساكنهم التي أهلكت بالحجر، بين الشام والحجاز إلى وادي القرى، وثمود عاد الثانية، وسميت بذلك لأنها عمرت خراب مساكن عاد، وقد أظهر الله من منازلهم بالحجاز واليمن آية في هلاكهم ﴿وكانوا مستبصرين﴾ كانوا يصرّون أنهم على حق، مع علمهم أن عاقبة أمرهم العذاب.

قارون

٣٩ ـ ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾.

أي ما كانوا يفوتون الله أن يفعل بهم ما يريد، قارون من قوم موسى من بني إسرائيل كان غنياً، فخسف الله به الأرض، وأما هامان فكان وزيراً لفرعون.

ثم قرر أمر المذنبين بإجمال آخر فقال:

---

(١) راجع قصة شعيب في سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

٤٠ ـ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

الحاصب هو الرمي بالحجارة المحرقة، وأرسلها الله على قوم لوط، وأما الصيحة: هي صوت الصاعقة العظيم، وقد تكون الصيحة مصاحبة للرجفة، وقد شرحنا ذلك في سورة هود آية (٦٧)، وأما الذين خسف بهم الأرض فهم قارون وأصحابه، والذين أغرقوا هم قوم نوح بالطوفان.

العنكبوت

٤١ ـ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

هذا مثل ضربه الله للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون إليها نصرهم ورزقهم ويتمسكون بها في الشدائد، وينسحب ذلك على المنافقين الذين يوالون الكفار من دون المؤمنين، فهم في ذلك كبيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنهم شيئاً.

٤٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

ثم إن الجهلة من قريش كانوا يسخرون من ضرب المثل بالذباب في العنكبوت ونحوهما فقال:

٤٣ ـ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

الأمثال التي في القرآن، والعالمون هنا هم المتدبّرون.

٤٤ ـ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

إرشاد وتوجيه

سلّى رسول الله ﷺ بقوله:

٤٥ ـ ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

المراد بالصلاة هنا على الحقيقة الصلاة المعهودة، ولما كان القرآن يتلى في الصلاة فإنّ النهي عن الفحشاء والمنكر وغيرها من السيئات ثابت فيها بالآيات التي تتلى والخشوع والأفعال والأقوال، كل ذلك ينهى عنهما، والإنسان إذا أدى الصلاة كما ينبغي وتدبر ما يتلو فيها، نهته عن الفحشاء والمنكر.

وذكر الله هو اسم الله تعالى الذي يجب أن يعلو على كل اسم، وذكر الله إذا بدأ يجب أن تصمت دونه الأفواه، وتخرس جميع الألسن، وتصغي إليه جميع الآذان والأسماع فإنه أكبر، وهكذا نرى أن الأذان حين يرتفع كان على الجميع أن يسمع له ويردد ذكر الله، فالله سبحانه وتعالى غير خاف عليه ما يصنع العباد.

دعوة أهل الكتاب للإسلام

وحين بيّن طريقة إرشاد المسلمين ونفع من انتفع واليأس ممن امتنع أراد أن يبيّن طريقة إرشاد أهل الكتاب فقال:

٤٦ ـ ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾.

﴿بالتي هي أحسن﴾ في الأسلوب واختيار الألفاظ، ومناسبة الحال والمقام والمقصود بها المجادلة، كالدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه، والذين ظلموا هم الذين أبوا الدعوة إلى الله، ونصبوا الحرب، وأبوا أن يؤدوا حق الله عليهم، فجادلوهم بآلة الحرب حتى يسلموا، وقد علمنا الله طريقة المجادلة والمناقشة، إذ أن الدعوة الإسلامية دعوة سلام وعلم وهي الجهاد في سبيل الله فلا تستعمل القوة في الإسلام إلاّ لمن يقف حاجزاً مانعاً، فلا بد من إزاحته وإزالته، ولو أدّى ذلك إلى استشهاد عدد غير قليل، والسكوت على الكفر والمنكر حرام.

ثم ذكر دليلاً قياسياً فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾.

وكذلك أنزلنا إليك القرآن كما أنزلنا إليهم التوراة من قبل، ومن أهل الكتاب من آمن بالقرآن، أي أن من أهل مكة من آمن بالقرآن وهم الذين أسلموا، والجحد يكون بعد المعرفة وهم اليهود.

ثم ذكر الجامع بقوله:

٤٨ ـ ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾.

أي ما كنت تقرأ قبل الوحي بالقرآن كتاباً، ولا كنت قارئاً ولا كاتباً، وهكذا كانت صفته ﷺ في التوراة والإنجيل، أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.

أي لو كنت قارئاً كاتباً لشك اليهود فيك، ولقالوا: ليست هذه صفته في كتابنا، والمبطلرن: الذين يأتون بالباطل، وهم الكفار والمنافقون.

ثم أكّد إزالة ريبهم بقوله:

٤٩ ـ ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

الضمير في هو يعود على القرآن، والذين أوتوا العلم: المؤمنون الذين حملوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ، وحملوه بعده.

ذكر بعض الشبه والردّ عليها

ولما بيّن الدليل من جانب النبي ﷺ ذكر شبهتهم وهي الفرق بين المقيس والمقيس عليه وذلك أن موسى أوتي تسع آيات من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها فأرشد الله نبيه إلى الجواب فقال:

٥٠ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أرادوا آيات كآيات الأنبياء السابقين، والقادر على إرسالها هو الله، وليست بيد النبي ﷺ.

القــــراءة

قرأ ابن كثير، وحمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿آية﴾ على الإفراد.

٥١ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

والمعنى: أو لم يكفهم فيما طلبوا، أنا أنزلنا عليك القرآن يتلى عليهم آية مستمرة لا انقضاء لها بخلاف ما ذكر في الآيات.

ثم ختم الدلائل بأن أمر نبيه ﷺ بكلام منصف فقال:

٥٢ ـ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

يشهد لي أني رسوله، ويشهد عليكم بالتكذيب، وشهادة الله له: إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه.

لا عذاب على أمة محمد في الدنيا

٥٣ ـ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

روى البخاري عن أنس قال: قال أبو جهل: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم

يستغفرون﴾[1]، والأجل المسمى هو يوم القيامة، بدليل قوله تعالى ﴿ليوم تشخص فيه الأبصار﴾.

٥٤ ـ ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

٥٥ ـ ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

القـــراءة

﴿يقول﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: بالنون ﴿نقول﴾ فيكون القائل هو الله، ومن قرأ بالياء أراد الملك الموكل بهم.

توجيهات إلهية للمسلمين

وحين ذكر أحوال أهل الكتاب والمشركين وجمعهم في الإنذار وجعلهم من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المؤمنين أمرهم بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله إلى حيث تتهيأ لهم العبادة، وذكرهم بالموت لتهون عليهم الهجرة، فقال:

٥٦ ـ ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

٥٧ ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

فلا تقيموا في دار الشرك خوفاً من الموت فإلى الله المرجع فيجازيكم بأعمالكم، وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء ﴿يرجعون﴾ والآيات تنطبق على المسلمين في مكة وغيرها من بقاع الأرض.

ثم بين أن للمؤمنين الجنان فقال:

٥٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾.

القـــراءة

﴿لنبوئنهم﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف ﴿لنثوينهم﴾ بالثاء وهو من المثوى.

ثم مدح بقوله:

٥٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

ثم ذكر ما يعين على الصبر والتوكل وهو النظر في حال الدواب فقال:

٦٠ ـ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قال ابن قتيبة: ومعنى الآية: كم من دابّة لا ترفع شيئاً لغد.

ثم عجب من حال المشركين من أهل مكة وغيرهم لم يعبدوا الله مخلصين مع علمهم أنّه خالقهم فقال:

٦١ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

المخاطب هم كفار مكة، وغيرهم من الكفار في هذا الزمان ممن كانوا يقرون بأنه الخالق والرازق، إذا فلماذا يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك.

وحين ذكر الخلق أتبعه ذكر الرزق وحكمة البسط والقبض فقال:

٦٢ ـ ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

أي يوسع رزقه لمن يشاء امتحاناً، ويضيق بعد البسط لمن يشاء ابتلاءاً لأنّه هو المتصرّف بالبسط والتضييق.

ثم احتجّ على المشركين بوجه آخر فقال:

٦٣ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

إنما أمر الله رسوله أن يقول الحمد لله على إقرارهم، لأن ذلك يلزمهم الحجة، فيوجب عليهم التوحيد.

٦٤ ـ ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

والمعنى وما الحياة في هذه الدنيا إلّا غرور ينقضي عن قليل، وإن الدار الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان أي الحياة وهما بمعنى واحد، والمعنى لهي دار الحياة التي لا موت فيها، ولا تنغيص يشوبها كما يشوب الحياة الدنيا واللام للتوكيد في ﴿لهي﴾، ولو علموا ما فيها لرغبوا عن الفاني في الباقي، ولكنهم لا يعلمون علم إيمان.

بيان حال الكفار في الشدة والرخاء

٦٥ ـ ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

أي أفردوه بالدعاء، فلا يدعون من دونه شريكاً له، ﴿فلما نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ به، وهذا إخبار عن عنادهم.

٦٦ ـ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من النعمة، وهذه لام الأمر، ومعناه التهديد والوعيد، كقوله تعالى في سورة فصلت ﴿اعملوا ما شئتم﴾ آية (٤٠) ﴿وليتمتعوا﴾ بأعمارهم في ظل الدنيا الزائل ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة ذلك.

القــــراءة

﴿ليتمتعوا﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي بإسكان اللام على معنى الأمر، وقرأ الباقون بكسر اللام، فجعلوا اللامين بمعنى ﴿كي﴾ فتقديره: لكي يكفروا، ولكي يتمتعوا، فيكون معنى الكلام: إذا هم يشركون ليكفروا وليتمتعوا، أي لا فائدة لهم في الإشراك إلاّ الكفر والتمتع بما يتمتعون به في العاجلة من نصيب لهم في الآخرة.

ثم بيّن أن نعمة الأمن يجب أن تقابل بالشكر لا بالكفر فقال:

٦٧ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً﴾ ألم يعلم كفار مكة أن الله جعلهم في مكان آمن يأمن فيه الناس، وذلك أن العرب كان يغير بعضها على بعض، وأهل مكة آمنون في الحرم من القتل والسبي والغارة، أي فكيف يخافون وهم في حرم آمن؟، ﴿ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾[1].

٦٨ ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾.

والمعنى: لا أحد أكثر وأعظم ذنباً ممن زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش وكذب بالنبي محمد ﷺ وأنكر القرآن الذي جاء به.

ثم ختم السورة بآية جامعة فيها تسلية قلوب المؤمنين فقال:

٦٩ ـ ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

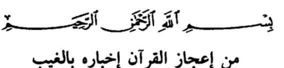
﴿والذين جاهدوا فينا﴾ أي قاتلوا أعداءنا لأجلنا ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ نشرح صدورهم لمعرفة طريق السير لنا ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ بالنصرة والعون.

---

(١) وقد مرّ مثله في القصص، الآية: ٥٧.



سورة الروم سميت لورود كلمة الروم في أول السورة.



من إعجاز القرآن إخباره بالغيب

أجمل في آخر العنكبوت ذكر المجاهدين ثم فصّل في هذه السورة فقال:

١ - ﴿ الٓمٓ ﴾. سبق تفسيره في سورة البقرة وسورة آل عمران.

٢ - ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾.

كان بين فارس والروم حرب فانتصرت عليهم فارس في إحدى المعارك، فبلغ ذلك المؤمنين فشق عليهم وفرح المشركون بذلك لأن فارس لم يكن لهم كتاب، وكانوا يجحدون البعث ويعبدون الأصنام، فقال المشركون لأصحاب رسول الله إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، وقالوا نحن نغلبكم كما غلبت فارس الروم.

٣ - ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾.

أي أن الغلب كان في أدنى الأرض ولم يحط بأكملها، وقد اختلف المفسرون في تحديد المكان الذي وقعت فيه المعركة، واحتلته الفرس.

٤ - ﴿ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

٥ - ﴿ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

البضع ما بين الثلاثة إلى التسع من السنين، وخلالها التقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأول، وغلبت الروم الفرس ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي من قبل غلب الروم ومن بعده، وكل ذلك بإرادة الله ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون﴾ هذا وعد من الله بفرحهم يوم ينصرهم على المشركين وقد تحقق ذلك في بدر وقد صادف هذا النصر الكبير للمؤمنين على المشركين انتصار الروم على فارس.

٦ - ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

وعد الله مصدر مؤكد، لما نزلت هذه الآية صدق بها المسلمون وكذب بها المشركون، حتى تراهن بعض

المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله انتصر الروم على الفرس وأجلوهم عن البلاد التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ما وعد الله به رسوله حق.

٧ ـ ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

أي ينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية للوجود شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها، لأنهم عن الآخرة هم غافلون، وقد توجهت قلوبهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت، ومن العجيب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منه الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول، ويدهش الألباب وأظهروا من العجائب والاختراعات في البر والبحر والجو، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، قال الحسن (ولقد بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أن ينقر الدرهم بظفره فيخبرك بوزنه، ولا يحسن يصلي)، وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرقي العالي والحياة السعيدة ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد والكفر لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير.

لفت أنظار المشركين

ثم أشار إلى وجه التفكر بقوله:

٨ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾.

التفكر التأمل، والنظر العقلي، وأصله إعمال الفكر، والفكر حركة النفس في المعقولات، وأما حركتها في المحسوسات فهو تخييل[1].

والمعنى: أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، فيعلموا ما بها من الآيات، وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فيتدبّروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الأحوال وعجائب الحكم، قال الله في سورة الذاريات: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[2].

﴿وأن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ لقاء الله هو البعث بعد الموت، وهم ينكرونه ولكن لأجل محدود مسمى عند الله.

(١) أضواء البيان للشنقيطي ج ٦ ص ٤٨٠.
(٢) الآيتان: ٢٠ و ٢١.

ثم أتبعه دليل الآفاق الذي يتوقف على السير والتحوّل ليقفوا على أمر أمثالهم فقال:

٩ - ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

والمعنى: بعد أن دعاهم الله سبحانه للتفكر في أنفسهم وهي أقرب الأشياء إليهم فيعلموا أنه ما خلق السموات والأرض إلّا بالحق، وحكمة بالغة إلى أجل ينتهي إلى قيام الساعة، انتقل بعد ذلك إلى الدلائل المحسوسة، والشواهد الناطقة بهلاك أمثالهم، فدعاهم للسفر والنظر إلى آثار من هم أشدّ منهم قوة وأكثر مالاً، وإثارة للأرض بالحرث للزراعة حتى عمروها بالزرع والبناء لعلّهم يعتبرون، وقد جاءتهم رسلهم بالدلائل فلما كذبوا رسلهم أخذهم الله.

١٠ - ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

السوآى، هي تأنيث الأسوأ، ومعناها الأقبح أي النار، ونصبت على خبر كان، أو مصدر مثل التقوى[1].

وحين ذكر أن عاقبتهم النار وكان في ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بيّنة فقال:

١١ - ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

القــــراءة

﴿ترجعون﴾ قرأ ابن كثير، ونافع وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم بالتاء، وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم بالياء، ﴿يرجعون﴾.

ثم بيّن ما يكون وقت الرجوع فقال:

١٢ - ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

أي يسكتون وتنقطع حجتهم، والإبلاس اليأس.

ثم ذكر وجه الإبلاس بقوله:

١٣ - ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾.

والمعنى: لا يكون لهم يوم القيامة من أوثانهم التي عبدوها من يشفع لهم عند الله يوم القيامة لأنهم يوم القيامة سوف يتبرؤون من أصنامهم ومعبوداتهم، وتتبرأ منهم.

---

(١) الأخفش ج ٢ ص ٤٣٧.

١٤ ـ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾.

وذلك بعد الحساب ينصرف قوم إلى الجنة، وقوم إلى النار.

١٥ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾.

الروضة هي الجنة، ويحبرون: ينعمون ويسرون، من الحبور، وهو السرور.

١٦ ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾.

لقاء الآخرة هو البعث، ومحضرون هنا معناها: حاضرون العذاب أبداً لا يخفف عنهم، ثم أخبر سبحانه عن تنزهه وتقدسه عن السوء والنقص، وبين ما تدرك به الجنة ويتباعد به من النار فقال:

١٧ ـ ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾.

والمعنى: سبحوا الله حين تدخلون في المساء، وفيه صلاتان المغرب والعشاء، وحين تصبحون فيه صلاة الصبح.

١٨ ـ ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾.

والمعنى: سبحوا الله كذلك في وقت العشي وهو مقربة صلاة العصر، والظهيرة وفيه وقت صلاة الظهر فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد.

١٩ ـ ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

والمعنى: يخرج النبات الحي من الأرض الميتة، والنبتة من الحبة، والشجرة من النواة، كما يخرج الثمرة الجافة الميتة كالجوزة والتمرة من الشجرة الحية، وينزل المطر على الأرض وهي ميتة، هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

القـــراءة

﴿تخرجون﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿تخرجون﴾ بفتح التاء وضم الراء.

بعض آيات الله الناطقة بقدرته ووحدانيته

ثم أراد أن يذكر الحجج الباهرة على استحقاق التسبيح والتحميد له فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾.

هذا شروع في تعدد آياته الدالة على انفراده بالألوهية، وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجميل صنعه، وسعة رحمته.

روى الإمام أحمد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض،

فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر، والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن[1] وبين ذلك» أخرجه أبو داود والترمذي.

وحين بيّن خلق الإنسان ولم يكن مما يبقى على مر الزمان منّ عليهم بأن جعل نوع الإنسان باقياً بتعاقب الأشخاص فقال:

٢١ - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

أي من علاماته ودلائله الدالة على البعث والخلق، أن خلق لكم من جنسكم في البشرية والإنسانية نساء تتزوجون بهن، تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن، وذلك لتألفوا وتميلوا إليها، خلق الله تلك الزوجة ليسكن إليها الرجل والسكن أمر نفساني، وسر وجداني يجد فيه المرء سعادة لشمل المجتمع وأنس الخلوة التي لا تكلف فيها ولا عناء، وذلك من الضرورات المعنوية التي لا يجدها المرء إلا في ظل المرأة، فألقى الله سبحانه في كل منهما سر الحنين إلى صاحبه فهو يدلي إليها بمودته ورحمته، وهي تدلي إليه بمثل ذلك، وفي ذلك آيات عظيمة الشأن، بديعة البيان على قدرته وحكمته سبحانه.

٢٢ - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾.

اختلاف ألسنتكم يعني اللغات من العربية والعجمية والإنجليزية والهندية وغيرها، ﴿وألوانكم﴾ لأن الخلق بين أسود وأبيض وأحمر، وهم من ولد رجل واحد وامرأة واحدة، بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عن غيره من الأفراد، فلا يشتبه صوت أخوين من أب وأم، ولا تشتبه صورتان حتى ولو كانا توأمين، إن في ذلك دلائل واضحة على قدرة الله عز وجل، وآيات لأولي العلم والبصائر.

القـــراءة

روى حفص عن عاصم بكسر اللام، ﴿للعالمين﴾ وقرأ الباقون بفتحها.

وحيث ذكر بعض الفرضيات اللازمة أراد أن يذكر الأعراض المفارقة بعضها فقال:

٢٣ - ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

تنامون بالليل وتنامون بالنهار وابتغاؤكم من فضله فيهما طلب الرزق بالنهار، وهل يستطيع الإنسان الاستغناء عن النوم، أو هل يستطيع أن يرد النوم إذا جاءه، فهو شبيه بالموت، وهو شيء يغلب الإنسان فهو آية

(١) الحزن: ما غلظ من الأرض.

من آيات الله عز وجل في مخلوقاته لقوم يسمعون سماع تعقل وتدبر لمعاني الآيات.

ثم أشار إلى عوارض الآفاق فقال:

٢٤ ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

يريكم البرق خوفاً من الصاعقة، وطمعاً في المطر، أو خوفاً لأهل السفر بالجو والبحر، وطمعاً لأهل البر والزراعة، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، يحييها بالنبات بعد موتها باليبس، وإنها لآيات لمن يستدلون بها على القدرة الباهرة.

ثم ذكر بعض لوازم الآفاق قائلاً:

٢٥ ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾.

من آيات الله الباهرة دوام قيام السماء والأرض بأمره، فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها على أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون، وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الأخيرة في الصـور بأمر الله عز وجل و﴿من الأرض﴾ أي من قبوركم.

وحين فرغ من تعداد الآيات وكان مدلولها الوحدانية التي هي الأصل الأول والقدرة على الحشر التي هي الأصل الآخـر أكّد الأول بقوله:

٢٦ ـ ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾.

الكل خلقه ومماليكه، وهو المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم مطيعون خاضعون لكماله.

ثم أكّد الأصل الآخر بل كلا الأصلين بقوله:

٢٧ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي إن إعادة الخلق بعد موتهم أهون عليه من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة للأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت قدرته على الإعادة التي هي أهون أولى فأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعتبرون ويتذكر المتذكرون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير فقال: وله المثل الأعلى وهو صفة كمال، والكمال من تلك الصفة والمحبة والإنابة التامة الكاملة في قلوب

عباده المخلصين، فالمثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه، ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوقات، فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى ﴿وهو العزيز﴾ أي له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة.

٢٨ ـ ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

هذا مثل ضربه الله لقبح الشرك وتهجينه، والمعنى: بين لكم أيها المشركون شبهاً منتزعاً ومأخوذاً من أنفسكم فإنها أقرب شيء منكم على بطلان الشرك، ثم بينه فقال: ﴿هل لكم من ما ملكت أيمانكم﴾ أي من يشارككم في رزقكم وترون أنكم وهم فيه على حد سواء، وكما تخافون أمثالكم وأقرباءكم والأبناء، قال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً؟ أو يقاسموكم أموالكم كما يفعل الشركاء، والمعنى هل يرضى أحدكم أن يكون خادمه شريكه في ماله وأهله، حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء الآخرين، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟ ﴿كذلك﴾ أي كما بينا هذا المثل ﴿نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾، ثم بين أنهم إنما اتبعوا الهوى في إشراكهم فقال:

٢٩ ـ ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

أي اختار الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وشركهم أهواءهم فاتبعوا ما زين لهم الشيطان، دون أن يكون ذلك الاتباع والاختيار مؤسساً على علم أو منقاداً لبرهان، وما دام هذا شأنهم واختيارهم للشر، دون الخير فلا أحد يستطيع هدايتهم، ولا التأثير عليهم، لأن الله سبحانه وتعالى قد علم وعلمه سابق بأن هؤلاء من الضالين فمن يستطيع أن يهدي من أضل الله، وسجله في عداد الكافرين غير المنصورين، ولا أحد يستطيع أن ينقذه ويحول بينه وبين عذاب الله.

الإسلام دين الفطرة

ثم قال لرسوله ﷺ ولأمته تبعية إذا تبيّن الحق وظهرت الوحدانية.

٣٠ ـ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي انصب وجهك ﴿للدين﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبة

والخوف والرجاء والإنابة، وخص الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ﴿حنيفاً﴾ أي مقبلاً على الله في ذلك مائلاً إليه، مستقيماً عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان والمذاهب الباطلة، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾ والفطرة: الخلقة التي خلق الله عليها البشر؛ وفطرة منصوب بمعنى: اتبع فطرة الله، أي دين الله قال عليه الصلاة والسلام (كل مولود يولد على الفطرة)[1] أي على الإيمان بالله، ولا تبدلوا خلق الله بعبادة غير الله، بل ابقوا على فطرة الإسلام والإيمان والتوحيد، ولا تهودوا أو تنصروا أو تمجسوا أحداً من خلق الله، واتركوا الناس على تلك البداية التي أقروا لله فيها بالوحدانية حين أخذ عليهم الميثاق بقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾[2]، ولزوم الفطرة هو الدين المستقيم، ولكن أكثر الناس لا يعترفون للدين القيم بذلك، وإن عرفوه لم يسلكوه.

٣١ ـ ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

منيبين إليه، راجعين إليه في كل ما أمر فلا يخرجون عن شيء من أمره، واتقوه باجتناب معاصيه، وأقيموا الصلاة التي أمرتم بها. ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ رغم ارتباطها فيما بعدها إلّا أن النهي عن الإشراك يقتضي التوحيد والإخلاص في العبادة، ومن أبرزها الصلاة، التي يتميز فيها المجتمع الإسلامي عن مجتمع الشرك ويدخل في ذلك كل مجتمع كافر.

٣٢ ـ ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾.

تفرقوا فرقاً في الدين يشايع بعضهم بعضاً من أهل البدع والأهواء واليهود والنصارى، وكل فريق بما لديهم من الدين الباطل يظنّون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شيء.

بيان طبيعة الناس مع توجيهات لهم

لما بيّن التوحيد بالدلائل وبالأمثال بيّن أنّه أمر وجداني يعرفونه في حال الضر والبلاء وإن كانوا ينكرونه في حال الرحمة والرخاء فقال:

٣٣ ـ ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

إذا ابتلى الناس بما يسيطر عليهم، من مرض أو فقر أو قحط أو إشراف على هلكة في البحر أو الجو، لجأوا إلى الله لكشفه وإزالته حالة كونهم راجعين إلى الله، ثم إذا كشف عنهم ذلك الابتلاء بإجابة دعائهم ورفع تلك الشدائد عنهم، تجد فريقاً منهم بربهم يشركون، ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم ويسعون فساداً.

٣٤ ـ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

هذه اللام لام الأمر ومعناه التهديد والوعيد كقوله تعالى ﴿اعملوا ما شئتم﴾، وكفروا بنعمة الله ليتمتعوا بأعمارهم القصيرة في ظل الدنيا الزائل نعيمها، فسوف يعلمون ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم، و﴿فتمتعوا﴾ خطاب لهم بعد الإخبار عنهم.

ثم استفهم على سبيل الإنكار قائلاً:

٣٥ ـ ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾.

بل هل أنزلنا عليهم برهاناً ظاهراً حجة وكتاباً من السماء، وذلك السلطان ينطق فيأمرهم بالشرك؟ وهذا استفهام إنكار، معناه ليس الأمر كذلك.

من القضاء والقدر

وحين ذكر الشرك الظاهر أتبعه ذكر الشرك الخفي فقال:

٣٦ ـ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حال الرخاء والشدة أنّهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحة وغنى ونصر ومطر وخير، وهو من الدائرة التي تسيطر على الإنسان فرحوا بها فرح بطر، الذي لا شكر فيه ولا حمد ولا ابتهاج بنعمة الله، ثم انتقل الكلام على الدائرة التي يسيطر عليها الإنسان وله فيها كسب واختيار فقال ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي شر بسبب فعلهم ومن كسب أيديهم تراهم يقنطون أي ييأسون من فضل الله ورحمته، وهذا خلاف وصف المؤمنين، فإنه يشكر عند النعمة، ويرجو عند الشدة.

ثم أشار بقوله إلى أن الكل من الله.

٣٧ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أو لم يعلموا بعقولهم أن الله هو الذي يوسع الرزق ويضيق على من يشاء من عباده وذلك كله في الدائرة التي تسيطر على الإنسان فيجعل هذا غنياً وذاك فقيراً، وهذا صحيحاً وذاك مريضاً، لأنه هو المتصرف في ملكه.

لما بيّن كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى الشفقة على خلق الله قائلاً:

٣٨ ـ ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

هذا أمر من الله للناس وأولياء الأمور بإعطاء الحقوق لأصحابها، فالقريب له حق في مال القريب، والمسكين الفقير والمسافر المنقطع ذلك المشار إليه، يعني إعطاء الحق أفضل من الإمساك للذين يطلبون بأعمالهم ثواب الله.

ثم أراد سبحانه أن يعظّم شأن الصدقة فضم إلى ذلك تقبيح أمر الربا استطراداً فقال:

٣٩ ـ ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾.

المراد به هنا العطية يعطيها الرجل لأخيه بطلب المكافأة منه بأفضل منها، وذلك لتزيد عطيته أو هديته في أموال الناس ثم يرد له الهدية بأزيد منها، كالذي يهدي للرؤساء والمدراء والوزراء والحكام، ابتغاء التقرب منهم والحصول على أكثر من ذلك منهم بطرق أخرى، فحكم ذلك عند الله أنه لا يربو عند الله، وليس له ثواب لكونه معدوم الإخلاص لله. وإن جر للحرام فهو حرام، وإن لم يقصد منه الحرام، فهو حلال لا ثواب له كأي عمل من المباحات، ثم بين الوجه الصحيح الذي يؤدي للثواب عند الله فقال:

﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله﴾ أي وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها مرضاة الله، فالله سبحانه يعطي في هذه الحالة بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والمضعفون ذوو الأضعاف من الحسنات كما يقال رجل مقو أي صاحب قوة، وموسر: أي صاحب يسار.

القـــراءة

﴿ليربو﴾ قرأ نافع ويعقوب ﴿لتربو﴾ بالتاء وسكون الواو.

من دلائل التوحيد ونتائج الأعمال

ثم عاد إلى بيان التوحيد مرة أخرى بتذكير الخلق والرزق والإماتة والإحياء فقال:

٤٠ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوها المشركون، من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء، فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه، فسبحانه وتعالى وتقدّس وتنزّه وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك وإنما وباله عليهم.

القـــراءة

﴿يشركون﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿تشركون﴾ بالتاء.

ثم بيّن أنّ الشرك وسائر المعاصي سبب ظهور الفساد في البر والبحر فقال:

٤١ ـ ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

أي استعلن الفساد من المعاصي والكفر والشرك، في البر والبحر، بالمدن والقرى، والسفن والبيوت العائمة في الأنهار والبحار، أو التي على ضفافها، وسبب ظهور هذه المعاصي والمفاسد والمجاهرة بها، نهاراً جهاراً هو ما كسبت أيدي الناس، أي اختيارهم للشر دون الخير، واقتناعهم بأن فيها مصالح مادية لهم، وما زينه الشيطان لهم وأغواهم به، وأيديهم التي كسبت المال للفساد كأنها تناولت الإثم والجزاء وذلك ليذيقهم الله، أي ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فأراهم نماذج من جزاء أعمالهم في الدنيا، كالذي أصاب الأمم السابقة، وذلك لعلهم يرجعون، فتصلح أحوالهم ويستقيم أمرهم، فسبحان الله على حلمه، وسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلّا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة.

القـــراءة

﴿ليذيقهم﴾ قرأ ابن كثير في رواية القواس ﴿لنذيقهم﴾ بالنون.

ثم أمرهم بالنظر في حال أشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم كقوم نوح وعاد وثمود فقال:

٤٢ ـ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾.

أمرهم بأن يسافروا لينظروا آثارهم ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة، كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ فعلنا ذلك بهم، لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله.

٤٣ ـ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾.

والمعنى: إذا ظهر لك أن الفساد بالسبب المتقدم، فأقم وجهك يا محمد، أي اجعل جهتك اتباع الدين القيم، وهو الإسلام المستقيم، قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا سبيل إلى رده ومنع حصوله عند أجله، فعندئذ يفترق الناس فيه فأهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار.

ثم بيّن وجه تفرق الناس بقوله:

٤٤ ـ ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾.

من، يقع على الواحد والاثنين، والجمع من المذكر والمؤنث، وهنا جاءت للجمع، والمعنى: من كفر فعليه كفره أي جزاء كفره، ويعاقب هو بنفسه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾[1]، ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ أي من عمل من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبة فلأنفسهم لا لغيرهم ﴿يمهدون﴾ أي يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلها وغرفها.

٤٥ ـ ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

جزاءهم ليس مقصوراً على أعمالهم بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنّه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صبّ عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذا بخلاف الكافرين فإنّ الله لما أبغضهم ومقتهم عاقبهم وعذبهم وترى عيشهم نكداً وإن تراءى حسناً إنما هو فتنة واختبار.

آيات في الريح والمطر

وحين ذكر ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح وبيّن أنّه من دلائل الوحدانية بقوله:

٤٦ ـ ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

أي ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود أن يرسل الرياح قبل المطر مبشرات بإثارتها للسحاب لأنها تتقدمه، وذلك ليذيقنا من رحمته الغيث والخصب، والسفن تجري في البحر بأمره، وذلك لتبتغوا بالتجارة في البحر الرزق كل ذلك من فضل الله، ولعلّكم تفهمون ذلك فتشكرون من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور.

ثم أشار إلى أهل النبوة مع تسلية النبي ﷺ بقوله:

٤٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أرسل رسلاً في الأمم السالفين جاؤوهم بالدلالات على صدقهم، فانتقم الله من المكذبين بأن عذّبهم ونصر أتباع الرسل، بأن أنجاهم مع الرسل من عذاب المكذبين، وذلك واجب أوجبه الله على نفسه.

ثم أراد أن يشير إلى الأصل الثالث وهو المعاد فمهّد لذلك مقدمة منتزعة مما تقدم ذكره وهو بيان إرسال الرياح لأجل إحداث السحاب الماطر فقال:

٤٨ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته، أنه يرسل الرياح إلى طبقات الجو العالية الباردة، حيث يتجمع المطر المتبخر من الأرض بفعل حرارة الشمس على شكل سحب متكاثفة، ونتيجة لتهييج وتحريك الرياح للسحب تنبسط في السماء أي تتسع رقعتها وتوسع حسب إرادة الله عز وجل في أي بقعة يشاء ثم تكون قطعاً متفرقة، والودق: هو المطر ينزل من خلال السحاب، والناس دائماً يستبشرون ويفرحون بالمطر.

القـــراءة

﴿كسفاً﴾ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، بتسكين السين ﴿كسفاً﴾

٤٩ ـ ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾.

الهاء في قوله ﴿من قبله﴾ ترجع إلى الهدى وإن لم يتقدم له ذكر، فيكون المعنى: كانوا يقنطون من قبل نزول المطر، من قبل الهدى، فلما جاء الإسلام بالهدى زال القنوط، والمبلسون: الآيسون من اليأس، ساكتين من شدة الحزن.

٥٠ ـ ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

انظر إلى أثر رحمة الله المترتبة بعد على إنزال المطر من النبات والأشجار، وأنواع الثمار، انظر نظر اعتبار واستبصار، نستدل بها على قدرة الله تعالى على البعث.

القـــراءة

﴿آثار﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم ﴿إلى أثر﴾ بغير ألف على الإفراد.

ثم أكّد تزلزل الإنسان وتذبذبه وأنه بأدنى سبب يكفر بنعمة الله فقال:

٥١ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشىء عن المطر وعلى زروعهم ريحاً مضرة متلفة أو منقصة، فرأوا زرعهم مصفراً قد تداعى إلى التلف لظلّوا من بعده أي من بعد اصفرار النبت يجحدون ما سلف من النعمة ثم بين أن هؤلاء لا ينفع فيهم وعظ ولا زجر فقال:

٥٢ ـ ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾.

إذا كان الموتى في قبورهم والصمّ في حياتهم لا يسمعون كلامك فبالأولى لا يسمع كلامك هؤلاء إذا ولوا مدبرين عن الحق، فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع في المذكورين عن سماع الصوت الحي.

القـــراءة

﴿ولا تسمع﴾ قرأ ابن كثير: ﴿ولا يسمع﴾ بالياء وفتحها، ﴿الصم﴾ رفع.

٥٣ ـ ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

وكما لا تستطيع إسماع كلامك للموتى والصم، كذلك لا تهدي العمي للإبصار لفقدهم الانتفاع به كما ينبغي، والتعبير هنا ﴿ضلالتهم﴾ فيه دلالة على أن المقصود بالعمي هنا عمي البصيرة، فهؤلاء قد أضلّوا أنفسهم باختيارهم الشر عن الخير، وإعراضهم عن الهدى جعلهم كالعمي الذين لا يبصرون، والذين اختاروا الخير وأقبلوا على سماع الهدى هم الذين يؤمنون بآيات الله وهم المهتدون المسلمون.

القـــراءة

قرأ حمزة: ﴿وما أنت تهدي﴾ بالتاء ﴿العمي﴾ نصب.

آيات الله في الإنسان

ثم أعاد من دلائل التوحيد دليلاً آخر من الأنفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله وأطواره وتقلبه من ضعف الطفولة إلى قوة الشباب والكهولة ومنها إلى ضعف الهرم فقال:

٥٤ ـ ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾.

استدلال آخر على كمال قدرته تعالى بخلق الإنسان على أطوار مختلفة، أي بدأكم على ضعف وهو حال الطفولة ثم حال الشباب ثم حال الكبر والهرم، وشيبة هي تمام الضعف ونهاية الكبر.

ثم عاد إلى ذكر المعاد وأحوال القيامة وذكر أن الكفار يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا فقال:

٥٥ ـ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾.

الساعة في القرآن على معنى الساعة التي تقوم فيها القيامة، لذلك لم تعرف أي ساعة هي، وسميت ساعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أي آخر وقت، ومن هول ذلك اليوم يقسم المجرمون بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة، وذلك اعتذاراً منهم، واستقلالاً لمدة لبثهم، ولما كان قولهم هذا غير مطابق للحقيقة، وحلفهم على شيء يبين للمؤمنين كذبهم فيه، قال الله تعالى ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي ما زالوا يأتفكون الكذب، في الدنيا كذبوا الحق الذي جاء به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم والعبد يبعث على ما مات عليه.

٥٦ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية: أن الكفار إذا بعثوا يوم القيامة، وأقسموا أنهم ما لبثوا غير ساعة، يقول لهم الذين أوتوا العلم والإيمان، ويدخل فيهم الملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحون، والله لقد لبثتم في كتاب الله، أي قضيتم حياتكم في دنياكم وفي قبوركم، كما في سابق علمه وقضائه وقدره المثبت في اللوح المحفوظ، إلى يوم القيامة الذي كنتم تنكرونه، وتتجاهلون عن العلم به.

ثم بين أن ذلك اليوم لا يقبل فيه عذر من أهل الشرك فقال:

٥٧ ـ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾.

أي لا ينفعهم عند ذلك الاعتذار، ولا يفيدهم علمهم بالقيامة، ولا يطلب منهم العتبى والرجوع في الآخرة، كالتوبة والطاعة كما دعوا إلى ذلك في الدنيا، والاستعتاب: الاسترضاء وطلب الموافقة، تقول: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني، وذلك إذا كنت جانياً عليه، قال ابن عباس: لا يقبل من الذين أشركوا عذر ولا توبة.

القـــراءة

﴿ينفع﴾ قرأ نافع، وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالتاء ﴿لا تنفع﴾.

ثم بين أن القرآن مشحون بالقصص والأخبار والمثل فقال:

٥٨ ـ ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾.

ضربنا الأمثال لكي تتضح بها الحقائق، وتعرف بها الأمور، وتنقطع بها الحجج، وهذا عام في الأمثال التي يضربها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وكأنها واقع ملموس، ومنه هذا الموضع ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب، ولكن أبى الظالمون الكافرون إلّا معاندة الحق الواضح ولهذا قال ﴿ولئن جئتهم بآية﴾ أي، أي آية تدل على صحة ما جئت به، يقولون للحق إنّه باطل وهذا من كفرهم وجرأتهم وجهلهم المفرط بسبب إعراضهم عن الهدى واختيارهم الشر ولذلك قال:

٥٩ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

بسبب اختيارهم للشر وميلهم للباطل، وإصرارهم وعنادهم، وإعراضهم عن الحق الواضح بعد أن وضع أمامهم، فتعاموا عنه وكانوا كمن لا يسمع ولا يرى، أو كالميت الذي لا يدري ما يدور حوله، وكانوا بهذا الصنيع بأنفسهم قد تسببوا بالختم عليها، والطبع عليها، كما يطبع الشيء المفتوح ليغلق، والطبع على القلوب طبع معنوي نفسي، أي أن حالهم أصبحت تشبه في عدم تقبل الهدى، حال من أغلق قلبه، وسد على عقله وسمعه وبصره وجميع حواسه، وإلّا فإنّهم يأكلون ويشربون ويحسون ويمارسون ما يمارسه الشخص العادي ولا ترى أثراً على قلوبهم، بل إنهم من أذكى الناس وأصحهم ولكن الله سبحانه أراد أن يعذّبهم بهذا عذاباً نفسياً في الدنيا قبل الآخرة.

٦٠ ـ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

يخاطب الله نبيه محمداً ﷺ فيأمره بالصبر على ما أمر به، وعلى دعوتهم إلى الله ولو رأيت منهم إعراضاً فلا يصدّنّك ذلك إن وعد الله بالنصر حق لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع وأنه سيجده كاملاً هان عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسّر عليه كل عسير، ﴿ولا يستخفنك الذين لا يؤمنون﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق ولا يستفزنك عن دينك، وما أنت عليه، يقال استخف فلان فلاناً، أي استجهله حتى حمله على اتباعه في الضلال.



سورة لقمان سميت لورود قصة لقمان وابنه.

لما قال في آخر السورة المتقدّمة ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ وكان فيه إشارة إلى إعجاز القرآن ودلّ ما بعده إلى تمام السورة على أنّهم مصرّون على كفرهم أكّد تلك المعاني في أول هذه السورة فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓمٓ ﴾.

سبق تفسيره كما هو معروف غالباً في السور المكية التي تبدأ بأحرف هجائية، للتنبيه ولفت الأنظار لسماع القرآن.

٢ ـ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

الإشارة إلى آيات السورة، والمعنى: هذه الآيات آيات من الكتاب الحكيم الصنع، أي أن آياته محكمة صدرت من حكيم خبير، ومن إحكامها أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها، ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، والواقع مطابق لها، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلٰهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه، ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلّا هو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته، ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالحزم، ومن إحكامها أنك تجد آياتها المتكررة، كالقصص والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وتعمق فيها الحكيم تفكراً، انبهر عقله وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمترى فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد، ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به معرضون عن الإيمان والعمل بما فيه، إلّا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق فإنها ﴿هدى﴾ لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم ﴿ورحمة﴾ لم تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير

والثواب الجزيل والفرح، وتدفع عنهم الضلال والشقاء، ثم وصف المحسنين بالعلم التام وهو اليقين الموجب[1] فقال:

٣ ـ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي أن تلك الآيات في حال الهداية والرحمة مصدر خير وبركة للناس جميعاً، أما كونها هدى ورحمة، فيشهد بذلك الواقع الذي ينطق بأن الرسالة الإسلامية كانت فاتحة خير للعلم، ومبدأ عصر للعلم والنور في مشارق الأرض ومغاربها، والمحسنون هم من أحسنوا العمل والقصد، وأخلصوا النية لله، وراقبوه مراقبة من يعلم أنّه يسمعه ويراه فإن الإحسان مرتبة فوق التقوى لقوله ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2] ولقوله سبحانه: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[3].

القــــراءة

﴿رحمة﴾ قرأ حمزة بالرفع على إضمار هو هدى ورحمة، وقرأ الباقون بالنصب على الحال.

٤ ـ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

خص هذه العبادات لأنها عمدة العبادات وأثقلها على نفس المنافق، وضم إليها الإيمان بالآخرة عن يقين لأنه هو الذي يحمل صاحبه على تقوى الله واتباع هداه.

٥ ـ ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

أولئك إشارة إلى الجامعين بين العلم التام والعمل الصالح، على هدى عظيم، كما يفيده التنكير وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم من ربهم لم يزل يربيهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم، وقد أفلح هؤلاء لأنهم أدركوا رضى ربهم وثوابه في الدنيا والآخرة، وسلموا من سخطه وعقابه.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، وتعوض عنه كل باطل من القول فترك أعلى الأقوال وأحسن الحديث واستبدل به أسفل قول وأقبحه فلذلك قال:

٦ ـ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

أي أن بعض الناس من يختار لهو الحديث وهو: كل كلام محرم وكل لغو باطل، وكل كلام مرغب في الكفر والبعد عن الله، من غيبة ونميمة وكذب وشتم وسب ومن غناء بذيء، وبعض الناس يدفع الثمن المادي والمعنوي، أو يختار ويرغب رغبة من يبذل الثمن في الشيء، ﴿ليضل﴾ أي يتبع هذه الملاهي، قاصداً أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان ج ٦ ص ٧٣.
(٢) متفق عليه.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

يضل غيره بعد ما ضل هو عن طريق الهدى، ومنهج الحق، فهو يدعوهم إلى اللهو لئلا يستمعوا القرآن ويتدبروه.

﴿بغير علم﴾ أي وإضلاله هذا لغيره الذي هو مرتبة من مراتب البيان والإرشاد، ليس مستنداً إلى علم أي إلى وحي منزل كما قال الله عز وجل في سورة يونس، ﴿ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ وفي سورة يوسف ﴿وإنّه لذو علم لما علمناه﴾(١) وفي الإسراء ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾(٢).

وإنما استحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، فلم يكفه أنه يضل الناس بالجهل والسفه، وإنما اتخذ آيات الله هزءاً وسخرية فاستحق العذاب الذي في غاية الإهانة.

القـــــراءة

﴿يتخذها﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم برفع الذال ﴿يتخذها﴾.

قرأ ابن كثير وأبو عمر: ﴿ليضلّ﴾ بفتح الياء.

الغناء

وحول تفسير الآية قال الشيخ محمد محمود حجازي من علماء الأزهر في التفسير الواضح(٣). لهو الحديث هو السمر بالأساطير، والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات والخيال الكاذب، وبفضول الكلام، وبما لا ينفع في شيء أبداً، ولهو الحديث كالغناء الخليع، بالوضع المغري المثير للشباب المحرك للشيطان، فليس هو من باب اللهو فقط، بل الواقع أنه سم زعاف يسقى للناس من حيث لا يشعرون.

الموسيقى المهذبة، المروحة للنفس، المجددة للنشاط، والغناء الرفيع في لفظه ومعناه والكامل في شكله، وموضوعه لا يأباه الدين ما دام لا يشغلك عن حق، ولا يضيع منك فرضاً، والغناء الذي نسمعه من تلك النسوة بهذا الشكل المزري حرام بلا شك، ولا يفهمن أحد أن الدين جاف لا يتمشى مع العصر، إذ غرضه أن نرتفع بغرائزنا ونفوسنا عن مستوى الحيوانية البهيمية، وأن يغرس فينا معاني السمو الروحي بحيث نرضي أنفسنا مع العفة والقصد في المغريات المثيرات، والعناية بما يحبب مكارم الأخلاق، ويقوي الرجولة فينا.

ذكر القرطبي في تفسير هذه الآية «أن الغناء المعتاد عند المشتهرين به الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل والمجون، الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن، فهذا النوع إذا كان في شعر يشبب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن، وذكر الخمور والمحرمات لا يختلف في تحريمه.... فأما من سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة».

---

(١) الآية: ٦٨.

(٢) الآية: ٨٥.

(٣) الجزء ٢١ ص ٣٧.

وأما ما ابتدعه الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني، بالآلات المطربة من الشبابات ـ قصبة الزمر ـ والطار والمعازف والأوتار فحرام.

وليت شعري ماذا كان رأيه لو امتد به الزمن حتى رأى وسمع ما يحدث عندنا في المسارح والملاهي وعلى الشاشة؟ : لقد حدثني أستاذ فاضل حضر رواية في إنجلترا، ثم حضر عرضها في القاهرة، فوجد العجب إذ أنها في لندن تعرض باحتشام وبأدب مع إبراز معاني القوة والشجاعة والإقدام وحب الدفاع عن الوطن، وخلق المثل العليا في الشعب، أما إذا عرضت عندنا نزع منها ذلك كله، وظهر فيها معاني الحب العنيف، والدعوة إلى التحلل مع الخلاعة والفجور والرقص الداعر، والدعوة السافرة إلى المجون، واعتذارهم عن هذا كله، هو إرضاء رغبات الشعب، يالله من الشعب المسلم الذي تحلل من دينه واتبع نفسه وهواه.

وبعد فلنرجع إلى الآية التي نحن بصددها.

﴿أولئك﴾ الذين يشترون لهو الحديث، ويستبدلون بدل الخير والهدى الشر والإثم فضلوا عن سبيل الله، ويتخذون آياته هزوًا وسخرية ﴿لهم عذاب مهين﴾ غاية في الإهانة.

٧ ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً﴾ أي وإذا تتلى آيات القرآن على هذا المستهزىء، ولى مستكبراً أي أعرض عنها مبالغاً في التكبر ﴿كأن لم يسمعها﴾ مع أنه قد سمعها ﴿كأن في أذنيه وقراً﴾ الوقر الثقل أو الصمم، وكأن به صمماً لا يقرع مسامعه صوت.

وحين بين وعيد أعداء الدين بين حال أولياء الله فقال:

٨ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

٩ ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي وعد الله وعداً، وحق الله ذلك حقاً، ولا خلف فيه ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي لا يغلبه غالب.

١٠ ـ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾ والمعنى: جعل السماوات بلا دعامة تمسكها مثل الخيمة، كما تشاهدون من هذا الأمر العظيم يغنيكم عن إقامة الدلائل عليه ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ أي جبالاً ثوابت راسخات ﴿أن تميد بكم﴾ لئلا تتحرك وتضطرب بكم ﴿وبثّ فيها من كل دابة﴾ أي نشر وفرق من كل نوع من أنواع الدواب ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي من كل صنف، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه وكثرة منافعه، سبق تفسير مثل هذه الآية في سورة الرعد والحجر والنحل والنمل، وسيأتي شرح واف بمثل هذه الآية في سورة (ق).

١١ ـ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ من آلهتكم التي تعبدونها، فأروني أي شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله أو يقاربه ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾ فقرر ظلمهم أولاً وضلالهم ثانياً.

لقمان ووصيته لابنه

ثم بيّن فساد اعتقاد أهل الشرك بأنّه مخالف أيضاً لعقيدة الحكماء الذين يعوّلون على المعقول الصرف فقال:

١٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾.

أي وتالله لقد آتينا لقمان الحكمة، وهي هنا العقل الراجح، والفهم الصائب، والإصابة في القول والعمل، فكان بذلك حكيماً، والصحيح أنه ليس بنبي لأنه لم يذكر في جملة الأنبياء حين جاء ذكرهم في القرآن متكررين في عدة آيات، كما لم يصح شيء من الروايات في نبوته ﴿أن اشكر لله﴾ هذا الكلام ليس مباشراً إلى لقمان، وإنما هو على لسان الأنبياء والرسل في زمانه أو مما استنتجه لقمان من الحكمة التي أعطاها له الله عز وجل، فهو إلهام وليس وحياً، وقد أشكل ذلك على كثير من المفسرين فجعلوا الأمر موجهاً إليه فقالوا: قلنا له، ومنهم من فسّره أمرناه، وهذا لا يتفق مع اختيارهم بأنه ليس بنبي.

وقد ذكر المفسرون أنه عاش في أفريقيا، وأدرك داود عليه السلام.

وحين بين كماله شرع في بيان تكميله فقال:

١٣ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

يعظه أي يذكره بالخير، وقد وعظ لقمان ابنه بعشر مواعظ، ولما قدم الشكر بالنعمة أتبعه بالتنبيه على وجوب الشكر لكل منعم فبدأ بالوالدين فقال:

١٤ ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

هو كلام مستأنف معترض، مؤكد لما اشتملت عليه وصية لقمان لابنه من النهي عن الشرك، أي أمرناه أي الإنسان أن يبرهما، ويحسن إليهما، ويطيع أمرهما في المعروف.

﴿والوهن﴾ الضعف: والمعنى لزمها بحملها إياه أي الضعف مرة بعد مرة، أو ضعفاً متتابعاً، وهو ضعف الحمل، وضعف الوضع، وضعف النفاس، ﴿وفصاله﴾ فطامه عن الرضاع، والمراد التنبيه على مشقة الوالدة بالرضاع بعد الحمل.

﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ هذا تفسير قوله ووصينا الإنسان أي ووصيناه بشكرنا وشكر والديه و(أن) تفسيرية، فشكر الله سبحانه بالحمد والطاعة، وشكر الوالدين بالبر والصلة ﴿إلي المصير﴾ فيه تهديد أي إلي مرجعكم فأجازيكم حسب أعمالكم.

١٥ - ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وإن جاهدك والداك أيها الإنسان أن تعبد شريكاً لله، ليس لك به علم أي لا وجود لهذا الشريك فلا تطعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي عاملهما في أمور الدنيا بالحسنى، وأما الدين فلله سبحانه، واتبع سبيل الصالحين المقربين، ثم مرجعكم جميعاً إليّ يوم القيامة، فأجازيكم بالإحسان إحساناً.

قال ابن جرير الطبري: وجه اعتراض هذه الآيات بين الخبرين عن وصية لقمان، أن هـذا مما أوصى به لقمان ابنه.

ثم عاد سبحانه إلى الإخبار عن لقمان ووصيته لابنه وأنه قال له:

١٦ - ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾.

أي إن فعلة الإنسان من خير أو شر، إن كانت مقدار ﴿وزن﴾ حبة خردل، وهي أصغر الحبوب، ولا يدرك بالحس ثقلها، ولا يرجح ميزاناً ﴿فتكن في صخرة﴾ قد صارت في أخفى مكان وأحرزه، ولم يعين مكان هذه الصخرة، قد تكون في الأرض أو في أي جرم من الأجرام الأخرى في السماوات ﴿أو في السموات أو في الأرض﴾ أو حيث كانت من بقاع السماوات أو من بقاع الأرض ﴿يأت بها الله﴾ يحضرها ويحاسب فاعلها عليها، إذ هو يعلم الغيب والشهادة، لأنه لطيف باستخراجها وخبير بمكانها، وهذا مثل لأعمال العباد، والمراد أن الله تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[1].

وحين منع ابنه عن الشرك وخوّفه بعلم الله وقدرته أمره بمكارم الأخلاق والعادات فقال:

١٧ - ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

صغر اسمه في هذه المواضيع ﴿يا بني﴾ للرقة والشفقة لا للتحقير، ووجه تخصيص هذه الطاعات التي أشار إليها أنها أمهات العبادات وعماد الخير ﴿إن ذلك﴾ أي الطاعات المذكورة آنفاً ﴿من عزم الأمور﴾ أي

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٧ و٨.

اصبر على ما أصابك في الدعوة من الأذى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، وقيل العزم بالقوة، والحزم: الحذر، ومنه المثل (لا خير في عزم بغير حزم)، وقيل الحزم: التأهب للأمر والعزم، النفاذ فيه ومنه روّ بحزم فإذا استوضحت فاعزم.

١٨ ـ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾.

﴿أي لا تعرض عن الناس تكبراً، يقال أصاب البعير صعره إذا أصابه داء يلوي منه عنقه.

﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي خيلاء وبطراً، والمختال: المتكبر، يختال في مشيته.

القــــراءة

﴿تصعر﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، بألف من غير تشديد ﴿ولا تصاعر﴾.

١٩ ـ ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾.

أي تواضع في مشيك واعتدل فيه لا تخيلاً ولا إسراعاً، بين البطء والإسراع من القصد وهو العدل، ﴿واغضض من صوتك﴾ انقص منه ولا تتكلف رفعه، اجعله طبيعياً فإن الرفع أكثر من الحاجة يؤذي السامع، ﴿إن أنكر الأصوات﴾ أي أقبح، تقول أتانا فلان بوجه منكر أي قبيح، والمراد به طول الصوت والإيذاء للسامعين.

قال المبرد[1]: تأويله: إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل في باب الصوت المنكر، شبه قبح رفع الأصوات في المخاطبة والمخاصمة والمنازعة بقبح أصوات الحمير لأنها عالية، أولها زفير وآخرها شهيق، قال «صوت» ولم يقل «أصوات» مع أنها جمع، فالجواب: أن لكل جنس صوتاً، فكأنه قال: إن أنكر أصوات الأجناس صوت هذا الجنس، ثم ذكر سبحانه نعمه على خلقه ونبههم على معرفتها فقال:

كيف تكفرون بالله وهو صاحب النعم

٢٠ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾.

هذا خطاب للمشركين وتوبيخ لهم على الإصرار على الشرك مع مشاهدتهم دلائل التوحيد والمعنى: ألم تروا أيها الناس دلائل التوحيد، الناطقة بوحدانية الله سبحانه في كل شيء، فهو الذي سخر لكم، أي جعل ما في السماوات وما في الأرض، وذلّل لكم كل شيء، وخلق لكم ما في هذا الكون، وآية ذلك ما نرى من استخدام قوى الطبيعة، وتسخير الماء والهواء والبخار والمعادن والذرات لمصلحتك أيها الإنسان، وهو الذي أسبغ عليكم نعمه أي أتمها وأكملها سواء منها الظاهرة أو الباطنة، ونعم الله لا تعد ولا تحصى، ومع هذا كله

---

(١) هو محمد بن يزيد أبو العباس المبرد، ولد بالبصرة، ثم رحل إلى بغداد فأخذ عن أبي عمر الجرمي، وأبي عثمان المازني، انظر التعريف به في مقدمة كتاب الكامل في اللغة والأدب. لأبي العباس المبرد.

فمن الناس من يجادل في الله وفي صفاته، ويخاصم في شأنه بغير علم، ولا حجة ولا هدى من رسول أو نبي، ولا كتاب أنزله الله عليه ينير له الطريق الحق، وإنما مصدر هذا الخصام ومبعث هذا الجدال المؤدي إلى الشرك بالله هو التقليد الأعمى واتباع الهوى والشيطان.

القـــراءة

﴿نعمه﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ﴿نعمة﴾ على الإفراد.

ثم ذكر أن بعض الناس يجادلون في الله بعد ظهور الدلائل على وحدانيته فقال:

٢١ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله على محمد ﷺ من القرآن وشرائع الإسلام ﴿قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ ذمهم على التقليد ثم قال منكراً عليهم ﴿أو لو كان الشيطان يدعوهم﴾ إلى تقليد آبائهم واتباع ما يدعونه، وهو متروك الجواب، تقديره: أفتتبعونه؟، أدخل على واو العطف، همزة الاستفهام، على وجه الإنكار، والمعنى: أن الشيطان يدعوهم إلى تقليد آبائهم وترك ما جاءت به الرسل، وذلك موجب لهم عذاب النار، فهو في الحقيقة يدعوهم إلى النار.

المؤمن والكافر

ثم أراد أن يفصّل حال المؤمن والكافر بعض التفصيل فقال:

٢٢ ـ ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

أي من يفوض جميع أموره إليه تعالى ويقبل عليه بكليته، مخلصاً دينه له بقصد التقرب في أفعاله وأقواله ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي تعلق أقوى تعلق بأوثق الأسباب، شبه المتوكل على الله في جميع أموره المحسن في أعماله، كمن أراد الترقي في جبل شاهق فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه، والوثقى تأنيث الأوثق، وإلى الله ترجع أواخر الأمور على وجه لا يكون لأحد التصرف فيها بالأمر والنهي.

٢٣ ـ ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

أي ومن كفر من هؤلاء الناس فلا يحزنك يا محمد كفره، فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب وإلى الله المرجع والمآب فينبئهم بما عملوا، ويجازيهم على ما اجترحوا، إن الله عليم بذات الصدور.

٢٤ ـ ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

أي نعطيهم من متاع الدنيا ونعيمها ما يتمتعون به مدة قليلة ثم نضطرهم في الآخرة إلى عذاب غليظ، أي ثم نصيرهم مكرهين إلى عذاب يغلظ عليهم ويصعب.

الله هو الخالق وهو الحق وما دونه هو الباطل

ثم بيّن أنّهم معترفون بالمعبود الحق فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي يعترفون بأن الله خالقهما، ﴿قل﴾ يا محمد ﴿الحمد لله﴾ على اعترافكم، فكيف تعبدون غيره، وتجعلونه شريكاً له؟ ﴿بل أكثرهم﴾ لا ينظرون ولا يتدبّرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره، ثم أكّد ما تقدّم من خلقه السماوات والأرض بقوله:

٢٦ ـ ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

أي ولو أن أشجار الأرض كلها عملت أقلاماً، والبحر المحيط بالأرض كان مداداً أي حبراً، يمده بعد نفاده سبعة أبحر من المداد، ما نفدت كلمات الله، ونفدت الأقلام والمداد، ونصب البحر على معنى والبحر هذه حاله، وقال في سورة الكهف ﴿قل لو كان البحرمداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ فليس المراد بقوله ﴿بمثله﴾ أو ﴿سبعة﴾ بالعدد بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، وسبعة وسبعة وسبعة، وهلّم جرا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته بالنسبة لدينا وكوكبنا ومفهومنا.

القــــراءة

﴿والبحر﴾ نصبه أبو عمرو ﴿والبحر﴾ عطف على ﴿ما﴾، والمعنى ولو أن ما في الأرض، ولو أن البحر.

٢٨ ـ ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾.

أي ما خلقكم أيها الناس جميعاً في القدرة إلّا كخلق نفس واحدة، ولا بعثكم جميعاً في القدرة إلّا كبعث نفس واحدة، والله سبحانه سميع بقولهم أي الكفار فيما يقولونه بصير بما يضمرونه.

ثم أعاد طرفاً من دلائل قدرته مع التذكير ببعض نعمه قائلاً:

٢٩ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

ألم تر أن الله يولج الليل في زمان النهار، أي يجعل الليل في الزمان الذي كان فيه النهار وهذا الإدخال قد يكون جزئياً يدخل الليل في ساعتين أو ثلاث على حساب النهار وبالعكس، يطيل النهار ويقصر الليل، وقد يستغرق النهار الليل كله وبالعكس، وذلك في المناطق التي لا تغيب فيها الشمس عدة أشهر من السنة، كما في شمال الدول الاسكندنافية، وقد شاهدت ذلك بنفسي في السويد، حيث أن الشمس لا تغيب في الشهر السابع من السنة الشمسية، وعشت ليلتين كانت الشمس طالعة فيهما، ولم أستطع تمييز الليل من النهار إلّا بانخفاض درجة حرارة الشمس، وهي مقدرة ربانية ناتجة من دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، اقترابها وابتعادها، له تأثير مباشر في هذه الظاهرة العجيبة، وقد شرحنا ذلك في سورة يس.

٣٠ - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾.

ذلك الذي وصف من عجائب قدرته وحكمته والذي تلي من الآيات السابقة بسبب أنه تعالى هو الحق الثابت الألوهية وأنه لا معبود بحق إلّا هو، وأن ما يدعون من دونه من أصنام وأوثان هو الباطل الواضح البطلان، وأن الله هو العلي الكبير السلطان المتعالي.

ذكر الله سبحانه آية سماوية تدل على أنه سخر لكم ما في السموات بولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل، وفي الآية القادمة يبين لنا أنه سخر لنا ما في الأرض جميعاً بقوله:

٣١ - ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾.

أي ألم تعلم أيها الإنسان أن السفن تجري في البحر بنعمة الله عليكم ﴿ليريكم من آياته﴾ أي بعض أدلته الدالة على وحدانيته، ووجه الدلالة من ذلك، أن الله تعالى يجري السفن بالرياح التي يرسلها في الوجوه التي يريدون السير فيها، إن في ذلك كله لآيات لكل صبار في الشدة شكور في النعمة.

ثم ذكر أنّ بعض الناس لا يخلص لله إلا عند الشدائد فقال:

٣٢ - ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴾.

ذكر الله حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج، كالظلل فوقهم، شبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب، أو غيرها، هذا يكون عند اضطراب البحر، إذا غشيهم هذا الموج وعلاهم خافوا الغرق والهلاك، رجعوا إلى الفطرة، ودعوا الله مخلصين له الدين.

﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾، أي فلما خلصهم إلى الأمان وسلمهم من أهوال البحر فمنهم مقتصد متأثر بما رأى، لكنّه لم يقم يشكر الله على الوجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفريق كافر بنعمة الله جاحد لها، وهؤلاء الذين عبر الله عنهم بقوله ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ والختار هو

الغدار، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشاكرين، فغدر هذا الفريق ولم يف بذلك، وهو مع ذلك كفور بنعم الله.

ثم خاطب سبحانه جميع المكلفين فقال:

وعظ وإرشاد

٣٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾.

يوم القيامة لا يغني فيه أحد عن أحد، لا والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، كل امرىء تهمه نفسه، لأن وعد الله بالبعث والجزاء حق لا خلاف فيه، فلا يغرنكم إمهال الله لكم عن الانتقام ولا تلهيكم الأموال والآمال عن الإسلام، والمعنى: لا تغتروا بطول السلامة وكثرة النعمة، ولا يغرنكم الشيطان.

٣٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾.

الساعة هي يوم القيامة أي متى تقوم الساعة؟ ومعناها: وحده يعلم وقتها، وهو سبحانه الذي ينزل الغيث (المطر) على من يشاء من عباده وبالقدر الذي يريده لا يعلم أحد سواه، وإلّا لما حصلت الفيضانات وتخربت السدود، ولله حكمة في خلقه، ويعلم سبحانه ما في الأرحام أي أرحام النساء ما تحمل كل أنثى في بطنها وبين أحشائها، من حلال جاء أم من حرام، من حين العلوق إلى زمن الولادة، كما بيناه في أول سورة الرعد، ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ أي ماذا تعمل في المستقبل، أو ماذا يحصل لها من خير أو شر، ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ أي لا يدري أحد من الأحياء ماذا يخبئه له القدر، وفي أي مكان يقضي الله عليه بالموت.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ (مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلّا الله، ولا متى تقوم الساعة إلّا الله، ولا ما في الأرحام إلّا الله، ولا متى ينزل الغيث إلا الله) وما تدري نفس بأي أرض تموت إلّا الله، وقد شرحنا ذلك في سورة الأنعام الآية: (٥٩) عند الكلام على قوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾.



سميت سورة السجدة لوجود سجدة تتجافى جنوبهم عن المضاجع حيث غطت السورة لقصرها بالنسبة لجاراتها.

لما ذكر في السورة المتقدمة دلائل الوحدانية ودلائل الحشر وهما الطرفان بدأ في هذه السورة ببيان الأمر الأوسط وهو الرسالة الصحيحة ببرهان القرآن فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ - ﴿ الٓمٓ ﴾.

٢ - ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

لا شك فيه أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الأولين.

٣ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

أي بل يقولون اختلق القرآن وافتعله من تلقاء نفسه و(أم) بمعنى بل، وهمزة الاستفهام للإنكار، إنكاراً لقولهم على معنى: لا يصح ولا يليق منهم هذا القول بعد قوله تعالى: تنزيل من رب العالمين، وبعد ما ثبت عجزهم عن الإتيان بمثله مع التحدي السافر لهم، وبل هنا للانتقال من عنصر إلى عنصر في الكلام، وبل الثانية للإضراب وإبطال الكلام السابق قبلها، لا بل هو أي القرآن الحق الثابت - لا شك فيه - من ربك جل وعلا، أنزله عليك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك رجاء الهداية لهم.

دلائل وحدانيته

٤ - ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

الأيام ليست كأيامنا، وبذلك تكون ستة مراحل زمنية، واستواؤه على العرش استواء يليق بجلاله سبحانه بلا كيف ولا تمثيل في خلقه والآية سبق تفسيرها في البقرة آية (٢٩) والأعراف ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لكم إذا جاوزتم رضاه ولي أي ناصر ينصركم إن أراد بكم ضراً، ولا شفيع يشفع لكم عنده،

الشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له سائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في الانضمام لمن هو أعلى حرمة ومرتبة ينضم إلى من هو أدنى، والمعنى: ليس لكم من دون عذابه من ولي، أي قريب يمنعكم فيرد عذابه ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لكم، ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتؤمنوا.

٥ ـ ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾.

والمعنى: أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض في تدبير شؤون الدنيا ثم ترفع الأعمال من قبل الملك إلى حيث أمره الله بالعروج إليه، وهو الصعود، وذلك في يوم لو ساره غير الملك كان ألف سنة مما يعدّه البشر، وهذا يدل على بعد المسافة واختلاف المعارج بين السماء والأرض، وفي تفسير قوله تعالى في سورة المعارج ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ قال الشيخ حسنين محمد مخلوف في تفسيره ﴿صفوة البيان﴾ بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على سبيل التمثيل أي أنها من الارتفاع بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا، أو بيان لسرعة العروج، أي أنهم يقطعون فيه في يوم من أيامكم ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة، لو فرض سيره فيها، ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه، الرحيم بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته، وهذا هو الكمال.

ثم أكد سبحانه ما تقدم من دلائل وحدانيته وإعلام ربوبيته فقال:

٦ ـ ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي الذي يفعل ذلك ويقدر عليه هو العالم بما يشاهد وما لا يشاهد، وبما غاب عن الخلق وما حضر.

٧ ـ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾.

أي الذي أحكم كل شيء، فكل شيء في الكون له مكانه ونظامه، وترتيبه، حتى الكلب العقور والثعبان والحية، فالله سبحانه خلق هذا العالم كله، على نظام دقيق، وترتيب محكم، وما يعقل هذا إلّا العالمون، الذين يكتشفون في كل يوم آية من آيات الله في مخلوقاته، فسبحانه الذي خلق آدم من طين فصار على صورة بديعة وشكل حسن.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمر وابن عامر: ﴿أحسن كلّ شيء خَلْقه﴾ بسكون اللام.

٨ ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾.

٩ ـ ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

أي جعل نسل آدم ﴿من سلالة﴾ وهي الصفوة التي تنسل من غيرها، ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه ﴿من ماء مهين﴾ أي ضعيف حقير لا قيمة له، وإنما يصير ذا قيمة بالعلم والعمل ﴿ثم سوّاه﴾ أي جعله بشراً سوياً وعدّله ورتب جوارحه ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ أضاف الروح إلى نفسه إضافة اختصاص وملك على وجه التشريف، ثم قال سبحانه مخاطباً ذريته ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ أنعم الله سبحانه عليهم بهذه النعم تكميلاً لنعمته عليهم، وتتميماً لتسويته لخلقهم حتى تجتمع لهم النعم، فيسمعون كل مسموع، ويبصرون كل مبصر، ويعقلون كل متعقل، ويفهمون كل ما يفهم ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ هذا بيان لكفرهم لنعم الله، وتركهم لشكرها إلّا فيما ندر من الأحوال.

إنكارهم للبعث

١٠ ـ ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

يقول الكفار أنبعث خلقاً جديداً بعد أن نموت، وندفن في الأرض وتتحلل أجسامنا وتفنى وتختلط بالتراب؟ وضلال الشيء في التراب معناه هلاكه وفناؤه، وهو الموت بالنسبة للإنسان، والكفار يقولون هذا وينكرونه، وليس ذلك منهم إنكاراً لقدرة الله، ولكن إنكار للبعث والحساب والثواب والعقاب، ثم أمر الله نبيه أن يرد على هؤلاء المنكرين للبعث فيقول لهم:

١١ ـ ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾.

أي أن ملك الموت الموكل بقبض أرواحكم يتوفاكم جميعاً، وفي يوم القيامة ترجعون إلى الله مبعوثين خلقاً جديداً.

ثم بين ما يكون في حالهم عند الرجوع بقوله:

١٢ ـ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾.

أي ما هو موقفك أيها الإنسان لو قدر لك فرأيت المجرمين مطأطئين الرؤوس خجلاً وحياء وندماً على ما فرطوا في الدنيا وما موقفك حينما ترى بعينيك وتسمع بأذنيك وهم يقولون ربنا رأينا بأعيننا صدق وعدك ووعيدك، وسمعنا صواب ما كنا نكذبه، ولا نؤمن به، ثم يسألون الله أن يعيدهم إلى الدنيا ليحيوا فيها حياة جديدة، يتداركون فيها ما فاتهم، فيؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، ويعملون صالح الأعمال، لأنهم أيقنوا إيقاناً لا يداخله أي شك في أن ما أتى به رسل الله صحيح وأن البعث حق، والحساب حق، وأن الجنة والنار حق، وأن الثواب والعقاب حق.

١٣ ـ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ أي بأن نفعل أمراً من الأمور يلجئهم إلى الإقرار بالتوحيد، ولكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف لأن المقصود به استحقاق الثواب، والإلجاء لا يثبت معه استحقاق الثواب قال الجبائي: ويجوز أن يكون المراد به: ولو شئنا لأجبناهم إلى ما سألوا من الرد إلى دار التكليف ليعملوا الطاعات، ولكن حق القول مني أن أجازيهم بالعقاب ولا أردهم. ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي ولكن حق الخبر والوعيد مني لأملأن جهنم من كلا الصنفين لكفرهم بالله سبحانه وجحدهم وحدانيته وكفرانهم نعمته وينزل القول من جانب الله سبحانه منزلة القسم ولذلك أتى بجواب القسم وهو قوله: ﴿لأملأن جهنم . . الخ﴾.

ثم حكى سبحانه ما يقال لهؤلاء الذين طلبوا الرجعة لدار التكليف وهو قوله:

١٤ ـ ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم﴾ أي ذوقوا بما فعلتم فعل من نسي جزاء هذا اليوم فتركتم ما أمركم الله به وعصيتموه والنسيان هنا معناه الترك لا ضد التذكر لذلك فعلنا معكم فعل من ترككم وحرمكم من ثوابه ونعيمه جزاء على ترككم طاعتنا. ﴿وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ أي فذوقوا العذاب الذي لا يفنى جزاء إصراركم على الكفر وعكوفكم على المعاصي رغم ما سمعتم من ترغيب وترهيب.

ثم أخبر الله سبحانه عن حال المؤمنين فقال:

١٥ ـ ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾.

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خرّوا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ أي إنما يصدق بالقرآن وسائر حججنا المؤمنون الذين حقاً تذكروا واتعظوا بمواعظها بأن خروا ساجدين شكراً لله سبحانه على أن هداهم لمعرفته وأنعم عليهم بفنون نعمته ونزهوه عما لا يليق به من الصفات وعظموه وحمدوه وهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستنكفون من طاعته ولا يأنفون أن يعفروا وجوههم صاغرين له. ثم قال سبحانه يصف المؤمنين المذكورين:

١٦ ـ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي هؤلاء المؤمنون الملتزمون الصادقون ترتفع جنوبهم عن مواضع اضجاعهم لصلاة الليل وهم المتهجدون الذين يقومون عن فرشهم للصلاة وقيل هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة، وقيل هم الذين يصلون ما بين المغرب

والعشاء الآخرة وهي صلاة الأوابين، وهؤلاء يدعون ربهم خوفاً من عذابه وطمعاً من رحمته وينفقون مما رزقهم الله في طاعة ربهم وسبيل ثوابه ولقد مدحهم الله في هذه الآية لأن الاشتغال بالصلاة والدعاء اقتطعهم عن طيب المضجع ولين المفرش لانقطاعهم إلى طاعة مولاهم عز وجل فآمالهم مصروف إليه واتكالهم في كل الأمور عليه، ثم ذكر سبحانه جزاءهم فقال:

١٧ ـ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ أي لا يعلم أحد ما خبىء لهؤلاء الذين ذكروا ووعدوا بما تقرّ به أعينهم وقد ورد في الصحيح أن الله يقول: (أعددت أي لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بل هو ما اطلعْتم عليه اقرؤوا إن شئتم قول الله سبحانه: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾ وذلك جزاء عملهم الطاعات والتسابق إلى الحسنات ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾

القـــراءة

قرأ حمزة ويعقوب ما أُخْفِي لهم ساكنة الياء والباقون بفتحها وروي في الشواذ: قرات أعين.

ثم فصل عدم استوائهما بقوله:

١٨ ـ ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾.

هذا استفهام يراد به التقرير، أي أيكون من هو مصدق بالله على الحقيقة عارفاً بالله وبأنبيائه، عاملاً بما أوجبه الله عليه وندبه إليه مثل من هو فاسق خارج عن طاعة الله مرتكب لمعاصي الله ثم قال ﴿لا يستوون﴾ لأن منزلة المؤمن درجات الجنان، ومنزلة الفاسق دركات النيران، والمراد بالفاسق في الآية الكافر المكذب، ثم فسر ذلك بقوله:

١٩ ـ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

المأوى: هو الذي يأوون إليه، فالجنات هي المأوى الحقيقي معدة لهم عند نزولهم وهذا معنى ﴿نزلاً﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾.

النار مأوى الذين فسقوا عن طاعة الله وتمردوا عليه وعلى رسله، فمنزلهم الذي يصيرون إليه ويستقرون فيه هو النار ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ أي أن لهب النار يرفعهم حتى يكاد يرميهم خارجها، فيحاولون أن يخرجوا من النار فيضربهم خزنة جهنم بمقامع الحديد وهي المطارق فتردهم في قعرها، وقد فسرناه في سورة الحج الآية (٢٢).

ثم حتم على نفسه أنّه يذيقهم فقال:

٢١ ـ ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

العذاب الأدنى أي الأقرب في الدنيا، وهو تطبيق العقوبات على المجرمين، الحدود والتعزيرات، وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة، وأما العذاب الأكبر فلم يختلف فيه أحد أنه عذاب جهنم في الآخرة، ومن أفلت من العذاب الأدنى في الدنيا فإن العذاب الأكبر له في الآخرة بالمرصاد ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾[1] ﴿لعلّهم يرجعون﴾ عما هم فيه من الشرك والكفر والمعاصي، وفي الآية تهديد لهم.

ثم بين أنهم إذا ذكروا بالدلائل من النعم أولاً، والنقم ثانياً، ثم لم يؤمنوا فلا أحد أظلم منهم فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾.

أي لا أحد أظلم لنفسه ممن نبّه على حجج الله التي توصله إلى معرفته وثوابه ﴿ثم أعرض عنها﴾ أي جعل الإعراض مكان السمع والانتباه ولم ينظر فيها ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾ بأن نحل العقاب بهم.

موسى وبنو إسرائيل

ثم عاد إلى تأكيد أصل الرسالة مع تسلية للنبي ﷺ فقال:

٢٣ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

الكتاب هو التوراة، والمخاطب في ذلك هو النبي محمد ﷺ وأتباعه ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ قال الشيخ محمد حسنين مخلوف في صفوة البيان في تفسير الآية، فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بقبول ورضا وتحمل لشدائد الدعوة به، فكن مثله في ذلك، ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ أي وجعلنا التوراة هادياً لهم.

ثم حكى أن منهم من اهتدى حتى صار من أئمة الهدى لصبرهم على متاعب التكليف ومشاق الدعاء إلى الدين فقال:

٢٤ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

قال ابن كثير: لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره، وتصديق رسله وأتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدّلوا وحرّفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً، ولهذا قال تعالى ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب﴾.

القــــراءة

﴿لما صبروا﴾ قرأ حمزة والكسائي وأويس[2] عن يعقوب: ﴿لما صبروا﴾ بكسر اللام، وقرأ الباقون بالتشديد.

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٦.
(٢) هو محمد بن المتوكل أبو عبد الله اللؤلؤي البصري ٢٣٨ هـ مقرىء حاذق ضابط مشهور جليل.

٢٥ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

أي يحكم بين المؤمن والكافر والفاسق فيما اختلفوا فيه من الاعتقادات والأعمال.

ثم أعاد أصل التوحيد مقروناً بالوعيد قائلاً:

٢٦ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾.

أي أولـم يبين لهم ويبصرهم ﴿كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ الماضية التي أخذت بعذاب الاستئصال جزاء كفرهم بالله وارتكابهم المعصية، كعاد وثمود، كانوا ﴿يمشون في مساكنهم﴾ ويشاهدونها، وينظرون ما فيها من العبر وآثار العذاب.

وحين ذكر الإهلاك والتخريب أتبعه ذكر الإحياء والعمارة فقال:

٢٧ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

الأرض الجرز هي الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، وهي تشمل كل أرض تحتاج إلى الماء وسوق الماء إليها بالأنهار والسيول والمطر وغيره، فتنبت تلك الأرض ما يأكله الناس والأنعام ﴿أفلا يبصرون﴾ نعم الله تعالى عليهم.

ثم حكى نوع جهالة أخرى عنهم وهو استعجالهم العذاب فقال:

٢٨ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً ينتقم لك منا، قال الله ﴿يوم الفتح﴾ أي إذا حلّ بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة.

٢٩ ـ ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

أي لا يؤخر عنهم العذاب.

ثم أمر نبيه ﷺ بالإعراض عنهم وانتظار النصرة عليهم فقال:

٣٠ ـ ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

هذا خطاب للنبي محمد ﷺ ولأمته، والمعنى: أي أعرض عن وعظهم فإنّه قد قست قلوبهم فلا ينجع فيهم الدعاء والوعظ، وابتعد عن أذاهم وانتظر أنت حكم الله فيهم ﴿وانتظر﴾ موعدي لك بالنصر على أعدائك ﴿إنهم منتظرون﴾ بك حوادث الزمان، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم وحسبنا الله ونعم الوكيل.



سميت سورة الأحزاب لورود كلمة الأحزاب فيها وهي قوله تعالى ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ ومن مضامين السورة مبحث واقعة غزوة الأحزاب، وتسمى غزوة الخندق التي تحزب فيها الكفار ضد المسلمين وغزوا المدينة المنورة وحاصروها عدة أيام.

لما أمر ﷺ في آخر السورة المتقدمة بانتظار الفرج والنصر أمره في أول هذه السورة بأن لا يتقي غير الله ولا يطيع سواه فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

فيما يفهم من سياق الآية وبعض الروايات أن الكفار أتوا رسول الله ﷺ وعرضوا عليه أشياء كرهها، فنزلت هذه الآية، والفائدة في أمر الله تعالى رسوله بالتقوى، وهو سيد المتقين، تذكيره بذلك لاستدامة ما هو عليه، وأنه خطاب وجه له، والمراد أمته، والمعنى: إني أعلم منك بما فيه مصلحة دينية، فلا تفعل ما فيه مرضاة الكافرين والمنافقين، بل افعل ما فيه رضاي، فإني أحق منهم أن تخشاني، والآية مقدمة لقصة زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش، وما أثاره المشركون من زواجه بأكثر من أربع.

وحين نهاه عن اتباع الغيّ أمره باتباع ما هو رشد وصلاح وهو القرآن فقال:

٢ ـ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

﴿اتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ الخطاب موجه للنبي ﷺ والمعنى: ﴿إنّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي إنّ صبر النبي ومن معه من المؤمنين الثابتين على الإيمان على أذى الكفار وتحمل تشنيعهم بالتشهير، وصبرهم عليهم واستقامتهم على الحق، واتباع الوحي المنزل من الله الذي هو خير ورشد لهم ولنبيهم، لا يخفى كل ذلك على الله تبارك وتعالى، وكذلك الذين يقفون في الشبهات والريب لا يخفى حالهم على الله كما لا يخفى عليه تبارك وتعالى سعي الكفار والمنافقين لتشويه سمعة النبي ﷺ، فليس إذاً ثمة ما يدعو للفزع والخوف فكل واحد ينال ما يستحق من أجر أو عقاب على ما قدّمت يداه.

القـــراءة

﴿تعملون﴾ قرأ أبو عمرو ﴿يعملون﴾ بالياء.

٣ ـ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

يأمر الله نبيه أن أدِّ ما فرض عليك وأنت متوكل على الله واثق به، ولا تبال إذا خالفك العالم كله.

٤ ـ ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾.

كان المشركون يزعمون أن بعض الناس له قلبان، وكانوا يقولون أن جميل بن معمر الفهري له قلبان في جوفه، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فأكذب الله عز وجل هذا الرجل الذي قال: لي قلبان وغيره، والمعنى: أن الإنسان لا يمكن أن يكون في آن واحد مؤمناً ومنافقاً، صادقاً وكاذباً، وحسناً ومسيئاً، لأنّه ليس له قلبان في جوفه، أحدهما فيه الإخلاص والآخر فيه الجرأة على الله ورسوله، فالإنسان له صفته الأصلية، لا بد وأن تكون واحدة لا غير، وفي هذه الآية رد على المنافقين الذين كانوا يقولون إنّ لمحمد قلبين، قلباً معنا، وقلباً مع أصحابه، فأكذبهم الله تعالى.

ثم قرر الله بهذا الكلام أن ما يقوله المشركون وغيرهم، لا حقيقة له موطئاً قبل المقصود المعنوي، أمراً معروفاً حسياً، وهو أنّه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، لا تصير زوجته التي يظاهر منها أماً له، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له فقال: ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾.

الظهار

الظهار اصطلاح خاص عند العرب في الجاهلية، فكان الرجل منهم في قديم الزمان إذا اختلف مع امرأته أو غضب عليها قال لها: ﴿أنت علي كظهر أمي﴾ وبذلك تصير عليه حراماً لأنّه شبهها بأمه، فالله يقول عن هذا أنّكم إذا دعوتم أزواجكم أمهاتكم، أو شبهتموهن بهن فلن يصبحن أمهاتكم حقاً إنما أمهاتكم اللائي ولدنكم، ثم قال: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ نزل في زيد بن حارثة أعتقه رسول الله ﷺ وتبنّاه قبل الوحي، فلما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، قال اليهود والمنافقون: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها.

والمعنى: ما جعل من تدعونه ابناً ـ وليس بولد في الحقيقة ـ ابناً، وهذا هو الهدف ومقصود الحديث، والجملتان الأوليان إنما سيقتا كدليل لتثبيت هذه الجملة الثالثة في الأذهان، الأولى ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ والثانية ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ أول إصلاح تم لتنفيذ هذا الأمر، أن الناس أخذوا ينسبون زيداً ابن الرسول عليه الصلاة والسلام بالتبني، إلى أبيه الحقيقي، ويدعونه زيد بن حارثة بدلاً من زيد بن محمد، وبعد نزول هذه الآية حرم الإسلام أن ينسب أي إنسان نفسه لأحد غير أبيه الحقيقي، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال (من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام).

والمعنى: نسب من لا حقيقة لنسبه قول بالفم لا حقيقة له، لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق

من صلب رجل آخر، كما لا يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ أي والحق هو الصراط المستقيم.

القـــراءة

﴿اللائي﴾ قرأ أبو عمرو وورش عن نافع والبزي عن ابن كثير ﴿اللاي﴾ بغير مد ولا همز في كل القرآن، وقرأ نافع والقواس عن ابن كثير ﴿اللاء﴾ مهموزاً ومقصوراً، وقرأ أهل الشام ﴿اللاء﴾ والكوفة ﴿اللائي﴾ بهمزة بعدها ياء ووزنها فاعل.

﴿تظاهرون﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿تظّهرون﴾ بغير ألف وتشديد الظاء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تظاهرون﴾ بفتح التاء وتخفيف الظاء وقرأ ابن عامر: ﴿تظّاهرون﴾ بالألف والتشديد.

ثم بين ما هو الحق والهدى عند الله فقال:

٥ ـ ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

قال ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلّا زيد بن محمد، حتى نزلت ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ أي أعدل فإن لم تعلموا آباءهم فليقل أحدكم: يا أخي ﴿ومواليكم﴾ أي بني عمكم ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ أي فيما أخطأتم به سهواً، أو من جهلتم ذلك دون تعمّد، ويدخل فيه رفع الجناح ما جرت به العادة قبل النهي في زمن النبي ﷺ ﴿ولكن ما تعمّدت قلوبكم﴾ أي بعد النهي، أو ما تعمّدت في دعاء الرجل إلى غير أبيه مع العلم بذلك ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ هذه العبادة تعني أن الله قد غفر تلك الأخطاء التي ارتكبت في هذا الشأن قبل ذلك، كما تعني أيضاً أن الله لا يحاسب على الأفعال التي تصدر عن المرء عفواً ومن غير قصد، فالأصل هو القصد والنية.

حب الرسول وطاعته واجبة

فإنّه سبحانه لما بيّن أن التبني عليه لا يجوز، بين عقبه أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم من حيث أنه ولاه الله أمرهم فيلزمهم طاعته والانقياد له فقال:

٦ ـ ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾.

﴿النبي أولى﴾ أي أحق إذا دعاهم إلى شيء ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعته أولى من طاعة أنفسهم، فإن أنفسهم قد تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، والرسول يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، فهو صلوات الله

وسلامه عليه أكثر رحمة وأوفر شفقة على المسلمين من آبائهم وأمهاتهم، وأكثر حباً لخيرهم من أنفسهم، فقد يضرهم أولادهم وأزواجهم أو آباؤهم، ويفضلون أنفسهم ومصالحهم عليهم، وقد يضلّونهم ويدفعونهم إلى ارتكاب الأخطاء التي قد تؤدي بهم إلى الهلاك في الدنيا والآخرة ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾[1] ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ أي في تحريم نكاحهن على التأبيد، ووجوب إجلالهن وتعظيمهن، ولا تجري عليهن أحكام الأمهات في كل شيء.

نسخ التوارث لغير الأقارب

﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ يعني أنّ علاقة المسلمين بالنبي ﷺ علاقة ذات طبيعة خاصة مستقلة عن سائر الصلات والعلائق، أما علاقة المسلمين ببعضهم فتقوم على أساس أن حقوق المرء تجاه أقربائه مقدمة على حقوقه تجاه الآخرين من بقية المسلمين، فلا يصح أن يذر المرء والديه وأولاده وإخوته وغيرهم من الأقارب في عوز ويتصدّق على الآخرين، والزكاة كذلك يصرفها المسلم أولاً في مساعدة الفقراء من أهله ثم يعطيها من يلونهم من المستحقين الآخرين والميراث أيضاً جعل لأقرب الأقربين ﴿إلّا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ كان نظام التوارث بين المهاجرين والأنصار، معروفاً في صدر الإسلام بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم، فكان الأنصاري يرث المهاجر وبالعكس، دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وهذه الآية وآيات المواريث ناسخة لذلك النظام، والاستثناء في الآية ليس من الأول، والمعنى: لكن فعلكم إلى أوليائكم وهم: المؤمنون المهاجرون ﴿معروفاً﴾ أي جائزاً وذلك أن الله سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة، أباح الوصية لغير الورثة، فللإنسان أن يوصي لمن يتولّاه بما أحبّ من ثلثه عن طريق الهبة أو الوقف أو الوصية، بحيث لا ينال الورثة الآخرون كل شيء، ويبقى الوارث القريب الغير الوارث محروماً ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي في اللوح المحفوظ مكتوباً.

ثم أكد الأمر بالاتقاء بقوله:

٧ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾.

في هذه الآية يذكر الله رسوله ﷺ بأنه تعالى قد أخذ منه مثل كل الأنبياء عليهم السلام ميثاقاً غليظاً، وهو عهدهم بأن يطيع الرسول كل أمر من أوامر الله ويجعل الآخرين يطيعونه وأن يبلغ كلمات ربه كاملة غير منقوصة، وأن يصبر على دعوته كما صبر أولوا العزم من الرسل وهم المذكورون في الآية.

وتخصيص الأنبياء الخمسة بالذكر تنبيه بذلك على فضلهم، لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وقدم نبينا محمداً ﷺ بياناً لفضله عليهم وقوله ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ أي شديداً على الوفاء بما حملوا.

ثم بين الغاية من إرسال الرسل فقال:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

٨ ـ ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾.

أي لا يكفي أخذ العهد والميثاق بل يحاسب عليه صاحبه ويسأله عن مدى التزامه به، و ﴿الصادقين﴾ هم الأنبياء ﴿عن صدقهم﴾ في تبليغهم الدعوة، ومعنى سؤال الأنبياء وهو يعلم صدقهم، تبكيت مكذبيهم، ثم أخبر بعد ذلك عما أعد للكافرين بالرسل فقال:

قصة غزوة الأحزاب

٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ حين ألب اليهود قريشاً ودعوهم إلى الخروج لقتال النبي فتجهزت قريش ومن تبعهم من القبائل فكانوا أربعة آلاف حتى وافتهم بنو سليم وبنو أسد وفزارة، وأشجع، وبنو مرة، فكان جميع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف وهم الأحزاب، فقام المسلمون بحفر خندق حول المدينة، وحصر رسول الله ﷺ وأصحابه بضع عشرة ليلة، حتى خلص إليهم الكرب، ودبَّ الخلاف بين اليهود والمشركين وبين القبائل مع بعضها ﴿وجنوداً لم تروها﴾ ذكر بعض المفسرين أنها الملائكة لم تقاتل، وقال الشيخ المودودي فقد يحمل لفظ ﴿جنوداً﴾ على الملائكة أنفسهم أيضاً وإن كان النص هنا لا يصرح بإرسال جنود من الملائكة.

القــــراءة

﴿تعملون﴾ قرأ أبو عمرو بالياء ﴿يعملون﴾.

١٠ ـ ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾.

﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم﴾ يعني أنّهم جاؤوا من كل طرف، أو من فوق الوادي ومن أسفله ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ أي مالت وعدلت فلم تنظر إلى شيء إلاّ إلى عدوها مقبلاً من كل جانب ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ وهي جمع حنجرة، والحنجرة جوف الحلقوم، يشعر الخائف وكأنّ نفسه ـ وقد كني بها عن القلب ـ وصلت إلى الحلقوم تحاول أن تخرج لولا أنه ضاق عنها، ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ قد ذكر الله في هذا الموضع المسلمين بشكل عام حيث اختلفت ظنونهم، فظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وظن المؤمنون الصادقون أنهم ينصرون.

القــــراءة

﴿الظنونا﴾ قرأ ابن كثير والكسائي وحفص عن عاصم بألف إذا وقفوا عليها وبطرحها في الوصل، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالألف فيها وصلاً ووقفاً.

١١ ـ ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾.

﴿هنالك﴾ أي عند ذلك بسبب الحصار المستمر والخوف الشديد من هجوم تلك الأعداد الكبيرة عليهم وهم قلة دون عتاد وفيهم المرجفون المنافقون ﴿ابتلي المؤمنين﴾ أي اختبروا بالقتال والحصر ليتبين المؤمن المخلص من المنافق المثبط ﴿وزلزلوا﴾ أي أزعجوا وحركوا بالخوف فلم يوجدوا إلّا صابرين.

١٢ ـ ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ المرض عذاب نفسي يكون في المنافق فهو من باب ذكر الخاص بعد العام ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً﴾ يعني ما وعدهم به من نصر الله وتأييده وأن ذلك حليف المؤمنين وأنّهم سينصرون على من سواهم، قالوا يومئذ إنّ محمداً يعدنا بالنصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله: هذا والله الغرور.

١٣ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾.

﴿طائفة منهم﴾ أي قالت جماعة من المنافقين للناس المرابطين في مواجهة الأعداء لسد بعض الثغرات التي ليس فيها حفر، ويقصدون بأهل يثرب أهل المدينة الأصليين ﴿لا مقام لكم فارجعوا﴾ أي ارجعوا إلى مكان آمن وابتعدوا عن المواجهة لتتميزوا عن أصحاب محمد فيعرفكم المشركون بأنّكم لستم منهم، وفيه احتمال ارجعوا عن دين محمد إلى الشرك ولا مقام لكم، أي على القتال فارجعوا إلى طلب الأمان كل ذلك محتمل.

ثم تتحدث الآية عن طبع هؤلاء المنافقين وكشف حالهم ﴿ويستأذن فريق منهم النبي، يقولون إن بيوتنا عورة﴾، فحين التقى المسلمون ببني قريظة راحوا يعتذرون للرسول ويستأذنونه في ترك جبهة القتال، ويقولون إنّ بيوتنا قد أحدق بها الخطر، وسنذهب لنجهز سبل الدفاع عنها وحمايتها، مع أن الرسول ﷺ هو المسؤول حينذاك عن حماية أهل المدينة كافّة، فلقد كان رسول الله ﷺ هو الذي يقوم بتدبير حماية المدينة وأهلها من الخطر الذي لاح إثر خيانة بني قريظة ونقضهم العهد ﴿وما هي بعورة﴾ لأنّ الله يحفظها ولكن يريدون الفرار.

القـــراءة

﴿لا مقام﴾ قرأ حفص عن عاصم بضمّ الميم، وقرأ الباقون ﴿لا مقام﴾ بالفتح.

ثم بين مصداق ذلك الفرار بقوله:

١٤ ـ ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾.

﴿من أقطارها﴾ يعني المدينة والأقطار النواحي والجوانب ﴿ثم سئلوا الفتنة لأتوها﴾ والمعنى: لو انتصر الكفار ودخلوا المدينة من جوانب ونواحي متعددة، وقالوا لهم هلموا إلينا لنقضي معاً على المسلمين لأجابوهم بلا توان أو تردد.

القــــراءة

﴿لأتوها﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بالقصر ﴿لأتوها﴾.

١٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

يعني أن التخاذل والضعف الذي أظهروه في معركة أحد خجلوا منه بعد ذلك، وندموا عليه وعاهدوا الله على أن لا يفعلوا ذلك وأن يثبتوا إذا تعرّضوا لبلاء وامتحان، فالذي يعاهد الله لا بد وأن يبتليه ربه ويمتحنه ليمحصه ويتبيّن إن كان كاذباً أم كان من الصادقين، لذلك لم يمض على وقعة أحد غير عامين حتى ابتلاهم الله بخطر أكبر وأعظم مما سبق ﴿وكان عهد الله مسئولاً﴾ أي يسألون عنه في الآخرة، ثم أخبر أن الفرار لا يزيد في آجالهم فقال:

١٦ ـ ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

يعني أن فراركم لن يطيل أعماركم ولن تكون نتيجته بأي حال من الأحوال خلودكم إلى يوم القيامة، فإن فررتم لتحيوا ولن تحيوا أكثر من سنوات قليلة، ولن تتمتعوا في الحياة الدنيا إلاّ بما هو مقدر لكم.

ثم أخبر سبحانه أن ما قدّره عليهم لا يدفع فقال:

١٧ ـ ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

﴿من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي يجيركم ويمنعكم منه ﴿إن أراد بكم سوءاً﴾ وهو الهلاك والهزيمة والبلاء، ﴿أو أراد بكم رحمة﴾ وهي النعمة والنصر والعافية والسلامة، فالأولى من الدائرة التي تسيطر على الإنسان بالشر، والثانية من الدائرة التي تسيطر عليه بالخير ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي: لا يجدون موالياً ولا ناصراً يمنعهم من مراد الله فيهم.

١٨ ـ ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

يعني بهم الذين يقولون ما لكم ولهذا الرسول اتركوه ولا تناصروه فأي شيء يجعلكم تتحملون المصائب من أجل الدين والإيمان ﴿ولا يأتون البأس إلاّ قليلاً﴾ أي لا يحضرون القتال في سبيل الله إلاّ قليلاً للرياء والسمعة من غير احتساب، ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً.

١٩ ـ ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

﴿أشحة عليكم﴾ منصوب على الحال، والمعنى: بخلاء ليسوا على استعداد لصرف جهودهم وأوقاتهم وفكرهم وأموالهم عن طيب خاطر، ثم أخبر سبحانه عن جبنهم فقال: ﴿فإذا جاء الخوف﴾ أي حضر القتال

﴿رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم﴾ أي تدور كدوران عين الذين يغشى عليه من الموت، وهو الذي دنا موته وغشيته أسبابه، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره فلا يطرف، فكذلك هؤلاء لأنّهم يخافون القتل، ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ آذوكم بالكلام في الأمن بألسنة سليطة فاحشة، وقال الزجاج: خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها في الغنيمة، ﴿أشحة على الخير﴾ أي خاطبوكم وهم أشحة على المال والغنيمة، إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق ﴿أولئك لم يؤمنوا﴾ أي هم وإن أظهروا الإيمان فليسوا بمؤمنين لنفاقهم ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أبطل جهادهم لأنه لم يكن في إيمان وإخلاص.

ثم أخبر سبحانه عنهم بما يدلّ على جبنهم فقال:

٢٠ ـ ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب بعد انهزامهم وذهابهم لم يذهبوا ﴿وإن يأت الأحزاب﴾ أي يرجعوا إليهم كرة ثانية للقتال ﴿يودّوا لو أنّهم بادون في الأعراب﴾ أي يتمنّوا لو كانوا في بادية الأعراب من خوفهم، ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أي ودّوا لو أنهم بالبعد منكم يسألون عن أخباركم، فيقولون: ما فعل محمد وأصحابه ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة، وربما يسألون عن أخبار المسلمين شماتة، وفرحاً بنكباتهم ﴿ولو كانوا فيكم﴾ أي لو كانوا يشهدون القتال معكم ﴿ما قاتلوا إلّا قليلاً﴾ أي إلّا رياء بالقدر الذي يشاهدون فيه في المعسكر.

ثم عاب الله سبحانه في الآية التالية على من تخلّف بالمدينة فقال:

٢١ ـ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

فالله يقول لهم لقد كنتم تدعون الإسلام والإيمان واتباع الرسول، فكان ينبغي عليكم إذن أن تنظروا كيف كان سبيل هذا الرسول الذي دخلتم في زمرة أتباعه في هذا الموقف ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾ والمعنى: أن الأسوة برسول الله إنما جعلها قدوة بإطلاق، لذلك فإن هذه الآية تقتضي المسلمين أن يجعلوا حياته الطاهرة وأفعاله وسيرته نموذجاً يحتذونه في كل أمر من الأمور، وهذه الأسوة إنما تكون لمن يرجو الله واليوم الآخر، أي يرجو ما عنده من النعيم والثواب، ﴿وذكر الله كثيراً﴾ أي ذكر كثيراً لأن ذاكر الله متبع لأوامره بخلاف الغافل عنه الناسي المتناسي.

قال ابن كثير: هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله الناس بالتأسي بالنبي يوم الأحزاب في صبره ومصابرته، ومرابطته، ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل، ولهذا قال لهم: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله.

القـــراءة

﴿أسوة﴾ قرأ عاصم بضم الألف وقرأ الباقون بكسر الألف في كل القرآن ﴿إِسْوَةٌ﴾ قال الفراء: أهل الحجاز وأسد يقولون بالكسر ﴿إسوة﴾ وتميم يقولون ﴿أسوة﴾ بالضم.

ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

هذه الصورة المشرقة اللامعة يضعها الله أمام تلك الصورة القاتمة، فالله يقول هنا لقد فهم أولئك المدعون الكاذبون وعد رسوله بالنصر بمعنى، وفهمه المؤمنون الصادقون بمعنى آخر ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي فلما عاينوا البلاء يومئذ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴿وما زادهم إلّا إيماناً وتسليماً﴾ يعني ما رأوه من المصائب تتدفق عليهم لم يهتز إيمانهم ولم تتزعزع عقيدتهم، وبدلاً من الفرار من طاعة الله، والهروب من الامتثال لأمره، توكلوا على الله وسلموا إليه كل أمورهم وهم أكثر يقيناً ورضاً واطمئناناً، وعلينا أن نفهم في هذا المقام، أن الإيمان والتسليم في حقيقته حالة من حالات النفس التي تمتحن عند كل أمر يأمر به الدين، وكل مطلب يطلبه، والإنسان في كل خطوة يخطوها في هذه الحياة الدنيا تظهر أمامه مواقف، إما يأمره الدين فيها بأمر من الأمور، أو ينهاه عن شيء من الأشياء أو يطلب منه التضحية بالنفس والمال والوقت والجهد ورغبات النفس.

٢٣ ـ ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾.

ومعنى الآية: أنّهم قوم لم يشهدوا بدراً، فعاهدوا الله أن لا يتأخروا بعدها، فوفوا الله بما عاهدوه عليه، ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ أي فمنهم من مات، ومنهم من ينتظر الموت ﴿وما بدّلوا﴾ أي ما غيّروا العهد الذي عاهدوا ربهم عليه، كما غير المنافقون عهدهم مع رسوله.

٢٤ ـ ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

الصادقون الذين صدقوا فيما عاهدوا الله عليه فيجازيهم الجزاء الأوفى، والمنافقون يعذبهم بنقضهم العهد ﴿إن شاء﴾ وهو أن يميتهم على نفاقهم ﴿أو يتوب عليهم﴾ إذا تابوا في الدنيا وأخلصوا فيخرجهم من النفاق إلى الإيمان فيغفر لهم.

٢٥ ـ ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾.

صد الله الأحزاب ومنعهم من الظفر بالمسلمين ﴿بغيظهم﴾ أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لم ينالوا خيراً﴾ بالنسبة لهم وأما بالنسبة للمسلمين فهو شر لم يصبهم، فخوطبوا على استعمالهم ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي لم يحتاجوا إلى القتال، ومنازلة الكفار، بل هبت الريح عليهم، ووقع الخلاف بينهم، ورحلوا فاشلين ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا شيئاً، وفي هذا يقول الرسول ﷺ «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده».

غزوة بني قريظة

٢٦ ـ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾.

﴿وأنزل الذين ظاهروهم﴾ أي الذين عاونوا الأحزاب، وهم يهود بني قريظة، وذلك أنهم نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد وصاروا مع المشركين يداً واحدة، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الخندق أمر أن ينادى في الناس: أن رسول الله يأمركم أن لا تصلوا العصر إلاّ ببني قريظة، ثم سار إليهم فحاصرهم نحو خمس وعشرين ليلة حتى سلّموا الأمر لرسول الله، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم فيهم أن يقتل كل من بلغ الحلم وتسبى النساء والذراري وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ «لقد حكمت بحكم الله ثم نفذ فيهم الحكم» ﴿من صياصيهم﴾ من حصونهم وأصل الصياصي قرون البقر، لأنها تمتنع بها، وتدفع بها عن أنفسها، فقيل للحصون الصياصي ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي ألقى فيها الخوف ﴿فريقاً تقتلون﴾ وهم المقاتلة ﴿وتأسرون فريقاً﴾ وهم النساء والذراري، قدم مفعول تقتلون لأن القتل وقع على الرجال وكانوا مشهورين، وكان الاعتناء بحالهم أشد ولم يكن في المأسورين هذا الاعتناء.

٢٧ ـ ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.

﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾ يعني عقارهم ونخيلهم ومنازلهم ﴿وأموالهم﴾ من الذهب والفضة والحلي ﴿وأرضاً لم تطئوها﴾ أي لم تطئوها بأقدامكم بعد، وهي مما سنفتحها عليكم.

زوجات النبي

ولما أرشد نبيه ﷺ إلى الشفقة على خلق الله بدأ بالزوجات فقال:

٢٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾.

ذكر المفسرون أن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه زيادة النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ شهراً ـ أي حلف أن لا يدخل عليهن ـ، وصعد إلى غرفة فمكث فيها،

فنزلت هذه الآية، وكانت أزواجه يومئذ تسعاً، سودة وعائشة وحفصة، وأم سلمة وزينب بنت جحش وأم حبيبة، وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية وجويرية بنت الحارث، فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن فبدأ بعائشة، فاختارت الله ورسوله، ثم تلتها جميع نساء النبي ﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن، لأنه ﷺ اختار البعد عن زينتها وإغرائها، والمراد بقوله، ﴿أمتعكن﴾ متعة الطلاق، والمراد بالسراح: الطلاق.

٢٩ ـ ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

لما خير ﷺ بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة، أمر بتخيير نسائه ليكنّ على مثل حاله، والمراد بالدار الآخرة الجنة، والمحسنات المؤثرات للآخرة: اللائي أحسن الاختيار.

وحين خيرهن النبي ﷺ واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهدّدهن على الفاحشة فقال:

٣٠ ـ ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

ليس ثمة خوف من أن تأتي أحدى زوجات النبي المطهرات بفاحشة، بل المراد إشعارهن بأن ما عليهن من مسؤوليات وأعباء ثقل عظيم كعظم قدرهن، وضخامة منزلتهن في المجتمع الإسلامي، والمهمة الدينية الملقاة عليهن، وهذا يبين السبب في زيادة عدد زوجات النبي على غيره من المسلمين ، فكل زوجة كان زواجها لسبب ديني، وغرض اجتماعي وهذا الخطاب شبيه بما خاطب به الله ورسوله ﷺ حيث قال ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾[1] ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ يعني لا تحسبن أن كونكن نساء النبي ﷺ سوف يسقط عنكن حساب الله ومؤاخذته، وأن ذلك أمر عسير، بل إنّ العقاب في هذه الحالة سيتضاعف وهذا من خصوصيات النبي وزوجاته وإنه يسير على الله.

القـــــراءة

﴿يضاعف﴾ قرأ أبو عمرو ﴿يضعف لها العذاب﴾ بالياء والتشديد ﴿العذاب﴾ رفع على ما لم يسم فاعله، وقرأ ابن عامر وابن كثير ﴿نضعف﴾ بالنون وتشديد العين وكسرها ﴿العذاب﴾ نصب.

وحين بيّن مضاعفة عقابهن ذكر زيادة ثوابهن في مقابل ذلك فقال:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

٣١ - ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾.

﴿ومن يقنت منكن﴾ أي من تداوم على طاعة ليس معها معصية، بينت الآية السابقة خصوصية من خصوصيات زوجات النبي بمضاعفة العذاب لهن في حال من أتت منهن بمعصية ظاهر قبحها وفحشها، لوجودهن في بيت النبوة، فالذنب الذي يقع منهن أقبح من نظيره من غيرهن، فكان من الطبيعي الذي يقتضيه العدل أن يكون الثواب على مداومة الطاعة، وحسن المعاشرة والرضى بما عند الله ورسوله مضاعفاً أيضاً، وأن يكون الجزاء في الآخرة النعيم المقيم الذي لا يفنى ولا يزول، زيادة على الأجر المضاعف.

ثم أظهر فضليتهن على النساء فقال:

٣٢ - ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾.

قال المفسرون فلما اخترنه ﷺ أثابهن الله عز وجل ثلاثة أشياء أحدها: التفضيل على سائر النساء بقوله ﴿لستن كأحد من النساء﴾ والثاني: أن جعلهن أمهات المؤمنين، والثالث: أن حظر عليه طلاقهن والاستبدال بهن بقوله ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ على ما سيأتي تفسيره ﴿لستن كأحد من النساء إن اتقيتن﴾ أي ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي، وثوابكن أعظم إن اتقيتن، فشرط عليهن التقوى مبيناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي لا تَلِنَّ بالكلام مع الرجال الأجانب ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فجور وطمع، والمعنى: أراد الله أن يجعل نساء النبي قدوة لغيرهن من النساء في الآداب، ومحاسن الأخلاق فخاطبهن بذلك ونهاهن أن يكون كلامهن ليناً، ناعماً رقيقاً عند مخاطبة الرجال الأجانب عنهن، ونهاهن أن يقلن قولاً يجد فيه منافق أو فاجر لا يعمر قلبه الإيمان سبيلاً إلى موافقتكن له، والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى التخشين في المقالة، لأن ذلك، أبعد من الطمع في الريبة ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾، أي عفيفاً بعيداً عن الريبة والأطماع، والمعروف لا يستنكر.

ثم أمرهن بلزوم بيوتهن بقوله:

٣٣ - ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

﴿وقرن في بيوتكن﴾ أي الزمن بيوتكن فلا تخرجن بغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد، ومن الحوائج الشرعية كذلك الخروج للحج والعمرة، وزيارة الوالدين وعيادة المرضى، ومن الآية الأمر لهن بالتوقر والسكون ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ التبرج: إظهار الزينة والمحاسن التي تستدعي بها شهوة الرجل، وإثارة الفتنة وتنبيه الغرائز الجنسية، كما كان النساء البغايا يفعلن إبان الجاهلية الأولى قبل الإسلام، وإنما قيل ﴿الأولى﴾ لأن كل متقدم أول، وكل متقدمة أولى ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس

أهل البيت﴾ لأن الله سبحانه يريد أن يكون أهل بيت النبي المثل الأعلى في الكمال، والقدوة الحسنة لغيرهم، فهو يبعدهم جميعاً عن كل قبيح، ويطهرهم من كل دنس وسوء وإثم ومعصية، قال الزجاج: الرجس كل مستقذر من مأكل أو مشرب أو عمل أو فاحشة.

أهل البيت

قال ابن كثير: وقوله تعالى ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا، لأنّهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً؛ لأن الله سبحانه أعقب ذلك كله بقوله ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أقول: يظهر من السياق الذي وردت فيه هذه الآية أن المراد بأهل البيت أزواج النبي الطاهرات، لأن الخطاب بدأ بقوله ﴿يا نساء النبي﴾ وهن بعينهن المخاطبات فيما قبل الآية التي بين أيدينا وما بعدها، كما أن لفظ ﴿أهل البيت﴾ علاوة على هذا يستخدم في اللغة العربية في نفس المعنى الذي نستخدم نحن فيه لفظ ﴿أصحاب البيت﴾ ويدخل بالطبع في هذا المعنى زوجة الرجل وأولاده، ولا يستطيع أحد أن يطلق لفظ ﴿أهل البيت﴾ مستثنياً منه الزوجة، بل إن هذا اللفظ جاء في موضعين آخرين من القرآن الكريم نفسه بمعنى يشمل ﴿الزوجة﴾ في قوله تعالى في سورة هود ﴿أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ والخطاب لزوجة نبي الله إبراهيم عليه السلام حين بشرت بولدها إسحاق، والثاني في سورة القصص حين احتاج موسى عليه السلام إلى مرضع وهو في بيت فرعون ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ وهو قول أخت موسى لآل فرعون.

وأما شمول الآية لعلي وفاطمة وأولادهما فإن اللفظ ﴿أهل البيت﴾ كما ثبت عن الرسول ﷺ أنه أطلقه على نسائه بقوله: «السلام عليكم أهل البيت» ثبت بأحاديث عديدة أن النبي ﷺ قرر أن علياً وفاطمة وولديهما رضي الله عنهم أجمعين هم أهل البيت، قال الزجاج: إنّهم نساء رسول الله ﷺ والرجال الذين هم آله، واللغة تدل على أنها للنساء والرجال جميعاً، لقوله ﴿عنكم﴾ بالميم، ولو كانت للنساء لم يجز إلا عنكن (ويطهركن) ونصب أهل على وجهين، أحدهما: على معنى: أعني، والثاني على النداء، يا أهل.

القـــراءة

﴿وقرن﴾ قرأ نافع وعاصم بفتح القاف ﴿وقرن﴾ وقرأ الباقون بكسرها، قال الفراء: بالفتح من القرار، وبالكسر من الوقار.

٣٤ ـ ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

أمرهن أن يذكرن ويتعظن بما يتلى في بيوتهن من آيات القرآن الكريم، وما يسمعن من سنة رسول الله ﷺ ليبلغن دعوة الله من بعده، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ إيذاناً بأن تلك الأوامر والنواهي لطف منه في شأنهن.

٣٥ - ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

قال المفسرون: إنّ سبب نزول هذه الآية أن بعض النساء قالت يا رسول الله ما بال الرجال يذكرون ولا تذكر النساء فنزلت الآية: وهؤلاء جميعاً أعدّ الله لهم ثواباً على طاعتهم، ومغفرة تمحو ذنوبهم، وأجراً عظيماً.

زواج زينب بنت جحش

وحين انجر الكلام من قصة زيد في الآية الرابعة عاد إلى حديثه فقال:

٣٦ - ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾.

سبب نزولها أن النبي ﷺ انطلق يخطب زينب بنت جحش ابنة عمته لزيد بن حارثة الذي أعتقه النبي ﷺ وتبناه قبل النبوة، وكان يطلق عليه زيد بن محمد، وكان من أوائل من آمن به، وكان رسول الله يعطف عليه، ويقدمه على كثير من الصحابة، لما آنس فيه من الإخلاص له، وبذل الجهد في رفع راية الإسلام وبلغ من شدة عطفه عليه، وعنايته بأمره، أنه في السنة الخامسة من الهجرة خطب له زينب، فأبت زينب، وكره أخوها عبد الله أنفة واستكباراً، استنكفت زينب لأنها من بيت النبوة، وزيد كان عبداً مملوكاً، لكن رسول الله ﷺ أراد القضاء على نظام الطبقات والتفرقة في الأنساب، فنزلت الآية فرضيا وسلما، ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ قال مقاتل: والمراد بالمؤمن عبد الله بن جحش، والمؤمنة: زينب بنت جحش، هذا سبب ولكن الحكم يعمّ كل مؤمن ومؤمنة بعدهما ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ أي حكما بذلك ﴿أن يكون لهم الخيرة﴾ والخيرة: الاختيار، فأعلم الله عز وجل أنه لا اختيار على ما قضاه الله ورسوله، وبنى زيد بزوجته زينب بعد أن دفع لها النبي ﷺ مهرها، ومكثت عنده حيناً، ولكنها كانت تتعاظم عليه، وتترفع بشرفها، وتفخر بنسبها عليه، وكان زيد يشكو إلى رسول الله ﷺ سوء معاملة زوجته زينب إياه، واستأذنه عدّة مرات أن يطلقها.

القــــراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿أن يكون لهم الخيرة﴾ بالياء، وقرأ الباقون ﴿أن تكون لهم﴾ بالتاء.

٣٧ - ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾.

بينا في الآية السابقة أن زيداً إثر الخلاف بينه وبين زوجته كان يشكو إلى النبي ﷺ وهو يستأذنه في طلاقها، وفي هذه الآية كان الرسول ﷺ يقول له ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ في أمر طلاقها، ربما كان في ذلك ظلم لها، ونعمة الله عليه بالإسلام، ونعمة الرسول عليه بالعتق ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ كان الله قد ألهم رسوله ﷺ بأنه سوف يتزوج زينب حين يطلقها زيد لكنه لما كان يعرف ما معنى الزواج من مطلقة المتبنى في مجتمع العرب آنذاك الذين كانوا يعتبرون المتبنى ابناً له حقوق الابن من حيث التصاق نسبه، لكن الله أراد أن يقضي على هذه الحقوق البالية الموروثة، والذي يخفيه النبي ﷺ في نفسه هو ذلك الوحي الذي عرفه مسبقاً ـ وليس كما يزعم بعض الناس حبه لها وما رآه فيها من جمالها وحسبها ونسبها ـ ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ أي تطبيق مبادىء الإسلام بالعدالة والمساواة وإزالة الفوارق التي أمر الله بها هي التي أحق أن تسود، لا ما يقوله ويفعله الناس، قال بعض المفسرين إنه خشي اليهود والمنافقين أن يقولوا: تزوج محمد امرأة ابنه، أو أن يقول الناس أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم نكحها من بعده ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ في كل الأحوال، قالت عائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية، وقالت كما في صحيح مسلم ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما نزل عليه لكتم هذه الآية، وقال ابن كثير: نقلت آثار عن بعض السلف أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها.

﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ الوطر كل حاجة لك فيها همة، فإذا بلغها البالغ قيل: قد قضى وطره ثم صار عبارة عن الطلاق، وإنما ذكر قضاء الوطر هاهنا ليبيّن أن امرأة المتبنى تحل، وإن وطئها وهو قوله ﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ والمعنى: زوجناك زينب ـ وهي امرأة زيد الذي تبنيته ـ لكي لا يظن ظان أن امرأة المتبنى لا يحل نكاحها، فكانت زينب تفاخر نساء النبي وتقول: زوجكن أهلوكن، وزوجني الله عز وجل كما في صحيح مسلم ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ يستفاد من هنا بأن الله سبحانه لم يجعل نبيه ﷺ يفعل ذلك إلّا لمصلحة وضرورة لا تتحقق إلا بإزالة تقاليد الجاهلية الأولى وهي أن يتقدّم رسول الله ﷺ بنفسه ويخطبها، ولم يزوج الله نبيه زينب ليضيف زوجة أخرى إلى أزواجه، بل من أجل ضرورة هامة وحاجة كبرى، وهكذا كل زوجاته كانت كل واحدة يتزوجها لمعنى في الدين لا لشهوة ولا لنزوة.

ثم نزه جانب النبي ﷺ عن قالة الناس بقوله:

٣٨ ـ ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾.

يظهر من هذه الآية أن مثل هذا الزواج مباح لبقية المسلمين، لكنّه كان فرضاً على النبي ﷺ لقوله ﴿فيما فرض الله له﴾ وأما قوله ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ يعني أن القاعدة التي تقررت للأنبياء عامة أن ما يصدر إليهم من أوامر إلٰهية لا بد لهم من تنفيذها، فهي لهم قضاء مبرم لا مهرب منه، وأن هذه السنة قد جرت في الأنبياء من قبل، وكان لبعضهم عدد كبير من الزوجات[1]، ولا حرج في ذلك عليك فيما فعلت ولا فيمن

(١) سيجيء قصتهم في سورة (ص).

تزوجت ما دام ذلك بأمر الله ورضائه، ونصبت سنة على المصدر، أي سنّ الله سنة، ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي أن قضاء الله هو قدر في الأزل مكتوب ينفذ في الأرض على من جرى عليه القلم، ثم أثنى على الأنبياء فقال:

٣٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

هؤلاء الأنبياء يبلغون رسالات الله ويخشونه وحده في كل ما يأتون وما يذرون، لا يخافون لائمة الناس فيما يخوضون به فيما أحلّ الله لهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ لا محاسب غيره ولا مسائل سواه.

أولاد النبي

ثم أكد مضمون الآية المتقدمة وهو أن زيداً لم يكن ابناً له فقال:

٤٠ ـ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

لما تزوّج رسول الله ﷺ زينب بدأ اللّغط، فإن النبي تزوج امرأة ابنه، فكان في هذه الآية رد عليهم وقطع لدابر التبني، والمعنى: ليس بأب لزيد فتحرم عليه زوجته، ونهى أن يقال بعد هذا: زيد بن محمد، وإن كان قد تبناه، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فقد ولد له القاسم والطاهر والطيب من خديجة رضي الله عنها، فماتوا صغاراً، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات رضيعاً، وكان له من خديجة أربع بنات، زينب، ورقية وأم كلثوم وفاطمة، رضي الله تعالى عنهن، فمات في حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ثم ماتت بعده لستة أشهر ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ نصب خبر كان فالمعنى: ولكن كان رسول الله وكان خاتم الأنبياء، قال ابن عباس يريد: لو لم أختم به النبيين، لجعلت له ولداً يكون بعده نبياً، وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده.

القـــراءة

قرأ عاصم ﴿وخاتَم النبيين﴾ بفتح التاء أي آخر النبيين، لأنه لا نبي بعده ﷺ، وقرأ الباقون ﴿وخاتِم النبيين﴾ بكسر التاء أي: ختم النبيين فهو خاتم.

ذكر الله

وقد مر أنه سبحانه بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي من الأخلاق والآداب مع الله وهو التقوى، وذكر ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله فأمر بعد ذلك عامة المؤمنين وبدأ بما يتعلق بجانب التعظيم لله وهو الذكر الكثير فقال:

٤١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾.

الذكر الكثير هو ألا ينساه أبداً، وأن يصلي الصلوات الخمس، ويسبح ويحمد، ويهلّل ويكبر على كل حال، والرسول ﷺ يقول كما في الصحيح يقول ربكم: (أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه).

٤٢ ـ ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

الأصيل ما بين العصر إلى الليل، والتسبيح في أول النهار وآخره، بأن تقولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، ونزهوه عن كل ما لا يليق به، وخص هذين الوقتين بالذكر، لأن ذكر الإنسان ربه وتسبيحه في بدء نهاره، يشعره بعظمة الله، فيرجو منه التوفيق في عمله أثناء النهار وذكره وتسبيحه في آخر نهاره، يشعره بعظمة القادر الذي غمره بفضله.

ثم حرض المؤمنين على ذكره قائلاً:

٤٣ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾.

﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ صلاة الله تعني رحمته وسكينته وتثبيته، وصلاة الملائكة، استغفارهم لهم، وبذلك يخرجهم من ظلمات الضلال والمعصية إلى نور الهدى والطاعة وهذه نعمة من أكبر النعم.

٤٤ ـ ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾.

أي تحيتهم بينهم يوم يلقون ربهم: سلام، وهو أن يحيي بعضهم بعضاً بالسلام كما قال الله في سورة يس، ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾[1].

ثم أشار إلى ما ينبغي أن يكون النبي ﷺ، عليه مع عامة الخلق فقال:

٤٥ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

أي شاهداً على أمتك بالبلاغ، ومبشّراً بالجنة لمن صدقك، ونذيراً أي منذراً بالنار لمن كذبكَ.

٤٦ ـ ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾.

أي أنت لمن اتبعك سراج، أي كالسراج المضيء في الظلمة يهتدى به.

٤٧ ـ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾.

٤٨ ـ ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿ودع أذاهم﴾ اصبر عليهم ولا تقابلهم بمثله، فإنّ الله كافيك شرهم، وسوف يجازيهم في الوقت

(١) الآية: ٥٨.

المناسب، إما في الدنيا على يد المسلمين أو في الآخرة بالنار.

ثم أمر المؤمنين بما يتعلق بجانب الشفقة على الخلق واكتفى بذكر الزوجات المطلقات قبل المسيس فقال:

حكم الطلاق قبل الدخول

٤٩ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾.

﴿إذا نكحتم المؤمنات﴾ هذا تخصيص بعد التعميم المذكور في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾[١]، أي إذا تزوجتم، والمراد به العقد في هذه الآية، فإنها أصرح آية في القرآن على إطلاق النكاح على العقد ﴿من قبل أن تمسّوهن﴾ أي من قبل أن تقربوهن بالجماع أو الخلوة ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ إذا كان الطلاق قبل الدخول، أي قبل المسيس فلا عدة، فإن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها، لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج من فورها من شاءت ومتى شاءت، ولا يستثنى من هذا الحكم إلّا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن قد دخل بها بالإجماع، وهنا عدة أحكام نود أن نقررها في هذه الآية:

إن كلمة المؤمنات في الآية لا يشمل الكتابيات، لكن انسحاب هذا الحكم على الكتابيات ثبت بدليل آخر، فإذا تزوج مسلم بكتابية فكل أحكام طلاقها ومهرها وعدتها، ومتعة طلاقها هي نفس الأحكام المقررة في حال زواجه بمؤمنة وهذا عليه إجماع العلماء، وشمول الآية له من باب خروجه مخرج الغالب.

الخلوة: نرى أن الخلوة توجب العدة وتقرر الصداق، ويكون الطلاق فيها رجعياً، للزوج حق مراجعة زوجته ما دامت في العدة، وأن كلمة ﴿من قبل أن تمسوهن﴾ تشمل النكاح ودواعيه من المساس بكل أشكاله بين الرجل والمرأة ما دام في خلوة، وليس بالضرورة أن يكون نكاحاً في الفرج، وقد يكون المساس بأنواع جنسية مختلفة، والأخذ بهذا الحكم أحوط للأنساب وأحفظ للفروج، والمس في اللغة اللمس باليد لكنه استعمل هنا في الآية كناية عن المعاشرة، وبهذا يكون مقتضى ظاهر الآية أن الزوج إذا لم يكن قد باشر زوجته واختلى بها خلوة صحيحة فلا عدة لها إذا طلقها، ومعنى العدّة في الطلاق قبل الخلوة أن لا يبقى للرجل حق مراجعة زوجته، ويحقّ لها أن تتزوج ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾ قبل الدخول أو الخلوة الصحيحة لها نصف المهر المسمى لقوله تعالى في سورة البقرة ﴿وإن طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾[٢] وفي هذه الآية يبين الله أن من لم يسم لها مهراً، لها متاع بعض الشيء، ثم يسرحها، وينبغي أن يتفق هذا المتاع ومقدرة الزوج كما في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ومتعوهن على الموسع قدره

(١) الآية: ٢٢٨.
(٢) الآية: ٢٣٧.

وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾[١] ﴿وسرّحوهن سراحاً جميلاً﴾ لا يقتصر ذلك على إعطائهن بعض المتاع أو المال عند طلاقهن، بل يعني أيضاً طلاقهن بالحسنى دون شتم أو ضرب، أو إساءة، وليكن طلاق المرأة طلاق الفضلاء، ولا يذكر عيوبها أمام الناس، ويعدد مثالبها فيصد نفوس الآخرين عنها.

القـــراءة

﴿تمسوهن﴾ قرأ حمزة والكسائي بألف ﴿تماسّوهنّ﴾.

تعليم النبي

ثم عاد إلى تعليم النبي ﷺ فقال:

٥٠ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ ذكر الله تعالى أنواع الأنكحة التي أحلها له فقال ﴿أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي مهورهن وهن اللواتي تزوجتهن بصداق، وفي هذا رد على الكافرين والمنافقين الذين كانوا يأخذون على النبي ﷺ الزواج بأكثر من أربع، ومعنى هذا الرد أن الله سبحانه الذي قيد زواج عامة المسلمين بأربع، هو الذي استثنى نبيه من هذا القيد، والغرض من هذا الرد كذلك شفاء صدور المسلمين الذين كان أعداء الإسلام يحاولون بث الوسواس في قلوبهم، وأن الاستثناء لم يكن من قبل النبي نفسه، بل كان من الله سبحانه حيث أنزل فيه قرآناً ﴿وما ملكت يمينك﴾ يعني الإماء اللاتي ملكتهن بالسبي في الحرب، وغنمتهن مهما كثر عددهن، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، التي سباها النبي ﷺ يوم خيبر في السنة السابعة للهجرة، واصطفاها لنفسه، وأسلمت وأعتقها، ثم تزوجها وجعل عتقها مهرها، وجويرية بنت الحارث التي سبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها وتزوجها سنة ست للهجرة ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ المراد به العموم، لا خصوص بني عمه ولا خاله بل المسلمات ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ إلى المدينة وهذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلّا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يحل عندهم زواج بنت الأخ وبنت الأخت ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي ان يستنكحها﴾

(١) الآية: ٢٣٦.

هي ميمونة بنت الحارث، تزوجها النبي ﷺ في شوال من العام السابع للهجرة، ومعنى ﴿يستنكحها﴾ إن آثر نكاحها ورغب فيها ﴿خالصة لك﴾ أي خاصة، وإنما قال ﴿للنبي﴾ ولم يقل ﴿لك﴾ لئلا يتوهّم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ بلا ولي ولا مهر ولا شهود، ومعنى خالصة، أي تملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين، فلا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل، لم تحل له حتى يعطيها شيئاً، ونصبت خالصة على الحال.

قال ابن كثير: اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، كما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم﴾ أي على المؤمنين غيرك ﴿في أزواجهم﴾ فلا يزيدون على أربع نسوة ﴿وما ملكت أيمانهم﴾ أي وما أبحنا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

ثم بيّن أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن من غير إيجاب فقال:

٥١ ـ ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾.

﴿ترجي من تشاء منهن﴾ والمعنى: أنه مخير فيهن إن شاء قسّم وإن شاء لم يقسم، أي أن لك أيها النبي الحرية المطلقة في معاملة زوجاتك ﴿وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فترجي من تشاء منهن عن نوبتها وتضم إليك من تشاء منهن في غير نوبتها، ولكن رسول الله ﷺ مع هذه الإباحة كان يقسم بين زوجاته تطيباً لنفوسهن، وكان يقول «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني قلبه ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن﴾ أي إذا علمن أن هذا أمر من الله، كان أطيب لأنفسهن.

القـــراءة

﴿ترجي﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: مهموزاً ﴿ترجىء﴾.

٥٢ ـ ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾.

﴿من بعد﴾ من بعد نسائك اللواتي خيرتهن فاخترن الله ورسوله، وهن التسع اللاتي في عصمتك، فصر مقصوراً عليهن، ممنوعاً من غيرهن، وإنه تعالى زاد في إكرامهن بقوله: ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ فإن ماتت واحدة منهن، فلا يباح لك أن تستبدل بها غيرها، ولو أعجبك حسن النساء اللاتي ترغب في التزوج منهن ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ من الإماء فيحل لك أن تتخذ منهن من شئت، وقد ملك بعد

نزول هذه الآية مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس حاكم مصر، فولدت له إبراهيم، وكان الله على كل شيء مراقباً، فلا تتخطوا ما حدده لكم.

قال ابن كثير: ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس، ومجاهد والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير وغيرهم، أنّ هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ، فلما اخترن رسول الله كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، أقول: ولم يثبت بعد نزول الآية أن تزوج عليهن أو استبدل بهن من أزواج.

القــــراءة

﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ قرأ أبو عمرو ﴿لا تحل لك النساء﴾ بالتاء.

حجاب زوجات النبي ﷺ

ثم عاد إلى إرشاد الأمة وحالهم مع النبي ﷺ فقال:

٥٣ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

سبب نزولها أنّ ناساً كانوا يتحينون طعام النبي فيدخلون بيوته ويرون نساءه فكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم، فقال له عمر رضي الله عنه، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، وهذه من موافقات القرآن لاقتراحات عمر على الرسول[1].

﴿إلّا أن يؤذن لكم﴾ أي أن تدعوا إليه، وقد كانت لكل زوجة حجرة حول المسجد، فلما توفين ضمت إلى المسجد، ﴿غير ناظرين إناه﴾ أي غير منتظرين نضج الطعام، والمراد إذا دعيتم إلى وليمة لا يليق بكم أيها المؤمنون أن تدخلوا قبل أن ينضج الطعام ويحين وقت تقديمه ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم﴾ والمعنى: ولا تدخلوا مستأنسين، أي طالبي الأنس لحديث لإضاعة الوقت، وذلك أنهم كانوا يحضرون قبل موعد الوليمة بمدة ثم يجلسون بعد الأكل فيتحدّثون طويلاً، وكان

(١) ثبت في الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي لما تمالأن عليه في الغيرة ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ فنزلت، وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر.

يؤذيه، ويستحيي أن يقول لهم: قوموا، فعلمهم الله الأدب في قوله تعالى ﴿والله لا يستحيي من الحق﴾. ﴿من وراء حجاب﴾ أي إذا سألتم زوجات النبي شيئاً تستعيرونه للانتفاع به، من مواعين وغيرها، فاسألوهن من وراء ستر، وذلك أطهر لكم ولهن من الريبة.

القـــراءة

﴿إناه﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿إناه﴾ بالإمالة.

عدم جواز نكاح زوجات الرسول ﷺ من بعده

﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ هذه الآية نزلت لقطع دابر من جال في نفسه من الصحابة رضوان الله عليهم أن يتزوج بعض نساء النبي بعد وفاته ﴿إن ذلك كان عند الله عظيماً﴾ يعني نكاح أزواج رسول الله ﷺ ذنب عظيم العقوبة.

٥٤ - ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾.

﴿إن تبدوا شيئاً﴾ كالعزم على زواج إحدى زوجات رسول الله ﷺ، أو تخفوه في صدوركم، ﴿فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾، فيجازيكم عليه.

لما أمر الله تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بين في هذه الآية حكم الأقارب فقال:

٥٥ - ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾.

وكما أن الأقارب في سورة النور قد استثناهم الله عز وجل في إبداء الزينة حيث قال: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلّا لبعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾[1].

﴿ولا نسائهن﴾ يعني نساء المؤمنين، لأن نساء الكفار يصفن نساء رسول الله ﷺ ان رأينهن هذا ما ذكرته آية سورة الأحزاب، وهي خاصة بنساء النبي، وآية سورة النور عامة في النساء جميعاً.

ويدخل في حكمهم كل ذي رحم محرم من نسب كزوج الأم، أو من رضاع محرم حيث ثبت بدليل آخر، ولم تذكر الآية العم والخال، لأنه اكتفى من ذكرهما بذكر أبناء الإخوة وأبناء الأخوات، فإن مناط عدم لزوم الحجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة، لما أنهن عمات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الأخوات ﴿واتقين الله إنّ الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي اتقين الله في أن يراكن غير

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

هؤلاء من المحارم، فإنّ هذا إذا خفي على الزوج، فلن يخفى على الله الذي لم يغب عنه شيء.

ثم كمّل بيان حرمة النبي بأنه محترم في الملأ الأعلى فليكن واجب الاحترام في الملأ الأدنى فقال:

٥٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾.

صلاة الله تعني رحمته وسكينته وتثبيته، وصلاة الملائكة استغفارهم للنبي ﴿صلوا عليه﴾ قال كعب بن عجرة كما في الصحيحين قلنا: يا رسول الله قد عرفنا التسليم عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال قولوا: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد) ومعنى قوله (قد علمنا التسليم عليك) ما يقال في التشهد (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين.

ثم رتّب الوعيد على إيذاء الله ورسوله فقال:

٥٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾.

الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذى نبيه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله كقوله تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾[1].

٥٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾.

هذه الآية تحدد معنى البهتان، وهو أن ينسب للمرء ما ليس فيه، أو قصور لم يأته، وليس هذا جرماً أخلاقياً يعاقب عليه في الآخرة، بل تقتضي الآية اعتبار التهم الباطلة جريمة تستوجب العقاب في الدنيا.

ثم أراد أن يدفع عن أهل بيت نبيه وعن أمته المثالب التي هي مظان لصوق العار فقال:

٥٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ يلبسن الأردية، وهي الجلابيب، والجلباب اللباس الواسع والرداء فوق الخمار، والإدناء يعني التقريب ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ ذلك الستر أقرب إلى أن يميزن عن غيرهن

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

من سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، فإذا عرفن بأنّهن شريفات عفيفات لا يزنين، ابتعد الذي في قلبه مرض عنهن، قال الشيخ المودودي (إن المرأة التي تتزين وتتهيأ قبل خروجها، ولا تخرج قدمها من منزلها قبل أن تكون قد وضعت أصنافاً وألواناً من المساحيق، والخطوط بين أحمر وأزرق وأسود وأبيض، لا يمكن أن يكون غرضها من هذا سوى أنها تريد أن تلفت إليها نظر الرجال، وتدعوهم هي نفسها إلى الالتفات إليها، والاهتمام بها والرغبة فيها، فإن قالت بعد ذلك إن النظرات الجائعة العطشى تؤذيها وتضايقها، وإن ادعت أنها تريد أن تعرف بأنها امرأة محبوبة مرغوب فيها، بل تحب أن تكون ربة بيت شريفة محترمة فليس ذلك منها غير خداع ومكر، إن قول الإنسان لا يحدد نيته، بل إن نيته الحقيقية هي التي تختار وتحدد شكل عمله)[1].

حين أرشدهم إلى هذا الأدب الجميل ولما أوعدهم بعذاب الآخرة خوّفهم بعقاب الدنيا قائلاً:

٦٠ ـ ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

لئن لم يرجع المنافقون عن كيدهم وعدوانهم ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ الذين في قلوبهم ضعف إيمان، من الفساق والزناة الذين يتتبعون الإماء ﴿والمرجفون في المدينة﴾ المراد بهم من كانوا يشيعون الشائعات وينشرون الأكاذيب بين المسلمين فيقولون: أتاكم العدو، وقتلت سراياكم وهزمت، ﴿لنغرينك بهم﴾ أي لنسلطنكَ عليهم ـ نكشفهم لك ـ ثم نأمرك بقتالهم حتى يضطرّوا إلى الجلاء عن المدينة ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلّا قليلاً﴾ أي لا يساكنوك فيها إلّا زمناً يسيراً بمقدار ما يحتاجون إليه من الوقت للجلاء، قال المفسرون: وقد أغري بهم فقيل له في سورة التوبة ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾[2].

٦١ ـ ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾.

مطرودين من رحمة الله، مبعدين عن عطفه، مقهورين مغلوبين على أمرهم، وإذا خرجوا يكونون أذلاء ضعافاً، لا يجدون ملجأ، فأينما يكونوا يتعرضون للظفر بهم، فيؤخذوا أسرى ويقتلوا أشنع تقتيل لإصرارهم على ما ارتكبوا من الإثم والكفر والفسوق والعصيان.

٦٢ ـ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾.

لقد سنّ الله ذلك في الأمم الماضية، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء، بالسعي في توهين دعوتهم، والمفسدون في الأرض الذين يذيعون مقالة السوء بين الناس، ولا يقدر أحد أن يبدل ما جرت عليه سنة الله في خلقه.

٦٣ ـ ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾.

---

(١) تفسير سورة الأحزاب تعريب أحمد إدريس ص ١٦٦.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ يسألك يا محمد المشركون: متى تقوم القيامة؟ ﴿وما يدريك﴾ أي: أي شيء يعلمك وقتها، ومتى تكون والمعنى: أنت لا تعرف ذلك ثم قال ﴿لعل الساعة تكون قريباً﴾ أي لعلّ وقت الساعة يكون قريباً، فلا تستبطؤوه أيها السائلون، وفي الرد تهديد ووعيد لهم، وإنما أخفى الله وقت الساعة ليكون المرء مستعداً لها في كل وقت، ولكيلا يفتر نشاطه في الدنيا فيما يزاوله من أعمال.

ثم أوعدهم بما أعدّ لهم من عذاب السعير فقال:

٦٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾.

إنّ الله أبعد الكافرين عن رحمته، وحرمهم عطفه، وأعدّ لهم في الآخرة ناراً متقدة.

٦٥ ـ ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

يخلدون فيها ولا يجدون لهم حافظاً يقيهم أوارها، ولا ناصر يدفعها عنهم، ويخلصهم منها، وعاد الضمير على ﴿سعير﴾ مؤنثاً، لأنه بمعنى النار.

٦٦ ـ ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾ من جهة إلى جهة، كاللحم الذي يشوى، وتتغير من حال إلى حال، وتتوارد عليها الهيئات القبيحة من شدة الأهوال ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ يقول الرؤساء نادمين متحسرين: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول، فنتخلص من هذا العذاب، وخصت الوجوه بالذكر مع أن العذاب يعم جميع البدن لأنها أكرم موضع على الإنسان.

القــــراءة

﴿الرسولا﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بألف فيها وصلاً ووقفاً وقرأ عاصم برواية حفص وابن كثير والكسائي بألف إذا وقفوا ويطرحها في الوصل.

٦٧ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾.

وقال أتباعهم تشفياً منهم، لأنهم هم الذين أوردوهم هذا المورد الوخيم: يا ربنا إنّا أطعنا رؤساءنا الذين اتخذناهم قدوة لنا، فانحرفوا بنا عن سبيل الهدى والرشاد.

القــــراءة

﴿سادتنا﴾ قرأ ابن عامر على الجمع مع كسر التاء ﴿ساداتنا﴾ وكذا قرأ يعقوب.

ثم يطلبون بعض التشفي بالدعاء قائلين:

٦٨ ـ ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾.

القـــراءة

﴿كبيراً﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالثاء ﴿كثيراً﴾.

٦٩ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

﴿يا أيها الذين ءآمنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسى﴾ أي لا تؤذوا نبيكم محمداً كما آذى بنو إسرائيل نبيهم موسى وذلك أن رسول الله ﷺ قسم بينهم غنيمة، فقال رجل منهم هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب رسول الله ﷺ، وقال يرحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر، وقد برأ الله موسى مما قاله بنو إسرائيل، وكان موسى عند الله رفيع القدر، عظيم المنزلة، ومن وجاهته أنه كلم المولى جل وعلا ولقب بكليم الله، ومن وجاهته عند ربه أنه كان مستجاب الدعوة.

ثم أشار إلى ما ينبغي أن يكون المؤمن عليه فقال:

٧٠ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾.

﴿وقولوا قولاً سديداً﴾ هو القول الصادق العادل الذي يستهدف به صاحبه الصواب والحق.

٧١ - ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

﴿يصلح لكم أعمالكم﴾ يتقبل حسناتكم ﴿فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ نال الخير وظفر به.

لما بين الله فيما سبق مآل الخارجين عن طاعته، واستحقاقهم لعنته، وإعداده السعير لهم يوم القيامة، وبين في الآية السابقة عظم شأن طاعته ورسوله، أعقب ذلك بعظم شأن ما يوجبه هذه الطاعات من التكاليف مبيناً.

صعوبة حمل أمانة التكاليف

الفوز العظيم بالطاعة المسماة بالأمانة فقال:

٧٢ - ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ الأمانة: هي تلك الحرية في الاختيار بين الخير والشر التي منحها الله للإنسان في هذه الدنيا وجعله مسؤولاً عن تصرفاته، إمّا شاكراً وإمّا كفوراً، والتي عبر عنها المفسرون بالتكاليف الشرعية أو الفرائض، عرضها على السماوات والأرض والجبال فكرهت ذلك، وهو مفهوم قوله تعالى ﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ أي خفن من هول أمرها ﴿وحملها الإنسان﴾ وهو آدم وذريته، وعبر الله سبحانه عن قبول الإنسان إياها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة فيها، وجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي تستعمل فيها القوى الجسمانية، والغرض من هذا: بيان أن هذه الأمانة في عظم الشأن، بحيث لو كلفت هذه الأجرام العظيمة التي

تمتاز بالقوة والشدة أن ترعى الأمانة حق رعايتها، وكانت ذات إدراك ولها تميز واختيار لأبين قبولها، وخفن أن يقصرن عن حملها، ولكن حملها الإنسان عند عرضها عليه، وقبل تكليفه أداءها يوم الميثاق، يوم أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ الإنسان بحسب غالب أفراده كان مفرطاً في الظلم لعدم وفائه بما تعهد به، فكان ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة أمره.

٧٣ ـ ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

قال ابن قتيبة: المعنى: عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذِّبهم الله ويظهر إيمان المؤمنين فيتوب الله عليهم، أي: يعود عليهم بالرحمة والمغفرة أو وقع منهم تقصير في الطاعات ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي مبالغاً في المغفرة والرحمة حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم فرطاتهم، وأثابهم بالفوز العظيم على طاعاتهم.

وبهذا تم تفسير سورة الأحزاب والحمد لله.



سميت بذلك لورود قصة أهل سبأ في هذه السورة.

إثبات البعث وبيان دواعيه والرد على منكريه

لما ختم الله سبحانه سورة الأحزاب ببيان الغرض في التكليف وأنه سبحانه يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، افتتح هذه السورة بالحمد له على نعمته وكمال قدرته فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

الحمد لله حمداً يوازي نعماءه، ويكافىء فضله لا إله إلاّ هو له الحمد المطلق في الأولى، وله الحمد في الآخرة الذي له ما في السماوات وما في الأرض من عوالم ملكاً وخلقاً وعبيداً، وتصريفاً، فهو وحده صاحب النعم لأنه خالقهم ومالكهم ورازقهم، فهو إذن المستحق للحمد في الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير، الحكيم في صنعه، الخبير بخلقه، يعلم ظاهرهم وباطنهم، ثم أكّد علمه بقوله:

٢ ـ ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

يعلم كل ما يلج في الأرض ويدخل فيها من بذور وماء وثمار وكنوز ودفائن وأجسام، ويعلم كل ما يخرج منها من نبات وأشجار، وحيوان ومياه، ومعادن وأحجار، ويعلم ما ينزل من السماء من مطر وثلوج وصواعق وأرزاق وما يعرج فيها ويصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد، أو أمور مادية كالدخان والبخار، وهو مع ذلك كله الغفور الرحيم، الرحيم بعباده، ينزل عليهم من السماء رزقاً، ويتجاوز عمّن فرط في أداء الواجب والشكر له، الغفور: لما يصدر منهم من زلات وهفوات.

ثم بين القرآن أن هذه النعمة التي يستحق بها الحمد، وهي نعمة الحياة الآخرة أنكرها قوم وكفروا بها فقال:

٣ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال الكفار استهزاءً برسول الله ﷺ منكرين للبعث لا تأتينا الساعة، أي لا نعترف بقيام القيامة التي تدعيها يا محمد، فردّ الله عليهم بقوله لنبيه: ﴿قل﴾ لهم ﴿بلى﴾، لتأتينكم الساعة حقاً، ثم أقسم على ذلك مؤكداً فقال: ﴿وربي لتأتينكم﴾ ثم برهن على ذلك بقوله ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾ عالم يعلم السر وأخفى، لا يغيب عن علمه وزن ذرّة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من الذرة بعد تحطيمها، ولا أكبر منها، وقد أثبت الله ذلك في اللوح المحفوظ الذي أبان كل شيء، ومن كان هذا شأنه كان قادراً على بعثكم يوم القيامة، وذكر السماوات والأرض هنا له مناسبة لطيفة، لأن أجزاء الأجسام في الأرض، وأن الأرواح في السماء.

القـــراءة

﴿عالم﴾ قرأ نافع وابن عامر: برفعها ﴿عالم﴾ وقرأ حمزة والكسائي ﴿علاّم الغيب﴾ بالكسر ولام قبل الألف.

﴿يعزب﴾ قرأ الكسائي: بكسر الزاي ﴿لا يعزِب﴾ وهما لغتان.

ثم ذكر غاية الإعادة بقوله:

٤ ـ ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال الزجاج: المعنى بلى وربي لتأتينكم المجازاة، وقال ابن جرير: المعنى أثبت مثقال الذرة وأصغر منه في كتاب مبين الذي هو التسجيل على ابن آدم ليجزي الذين آمنوا، وليرى الذين أوتوا العلم، والمعنى: لتأتينكم الساعة، لينال كل من المؤمن والكافر جزاءه، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة لما فرط منهم من زلّات لا يخلو البشر منها، ورزق حسن بدون تعب ولا انقطاع منه.

٥ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾.

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي سعوا جاهدين أنفسهم في محاولة إبطال آياتنا حالة كونهم معتقدين عجزنا وأننا لن نحبط أعمالهم، ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾ والذين هذا شأنهم لهم عذاب من رجز ـ وهو أسوأ العذاب ـ أليم غاية الألم.

القـــراءة

﴿معاجزين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿والذين سعوا في آياتنا معجزين﴾ بغير ألف، أي مثبطين مبطئين.

﴿من رجز أليم﴾ قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم، ويعقوب والمفضل ﴿أليم﴾ رفعاً نعتاً لـ ﴿عذاب﴾، وقرأ الباقون بالخفض ﴿أليم﴾ نعتاً لـ ﴿رجز﴾ وهو العذاب السيىء.

ثم بين أن الذين أوتوا العلم يفتنون بشبهات أهل العناد فقال:

٦ ـ ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾.

الذين أوتوا العلم من الصحابة ومن شايعهم، ومؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذي قرؤوا التوراة الصحيحة، ﴿الذي أنزل إليك من ربك﴾ هو القرآن، يرون أن الذي أنزل إليك إنما ﴿هو الحق﴾ من الله، وهو يهدي ويوصل إلى طريق دين الله، ونصب ﴿الحق﴾ على أنه مفعول ثان، وفيه الإخبار بالبعث وأحوال يوم القيامة فهو حق لا شك فيه، وهذه الآية وحدها في هذه السورة نزلت بالمدينة المنورة.

وينقل الله قول الكفار على سبيل الاستهزاء فقال:

٧ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

أي قال منكرو البعث، قال بعضهم لبعض ﴿ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق﴾ أي يقول لكم: إنكم إذا فرقتم كل تفريق والممزق ها هنا مصدر بمعنى التمزيق ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ أي يجدد خلقكم للبعث.

ثم ازداد التجاهل قائلاً:

٨ ـ ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾.

﴿أفترى على الله كذباً﴾ حين زعم أنا نبعث؟، وألف ﴿أفترى﴾ ألف استفهام، وهو استفهام تعجب وإنكار، ﴿أم به جنة﴾ أي جنون؟ فرد الله عليهم فقال: ﴿بل﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون من الافتراء، والجنون، بل الذين يجحدون البعث في العذاب إذا بعثوا في الآخرة، والعذاب هنا معناه: الكفر لأنه يفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿والضلال البعيد﴾ عن الحق في الدنيا.

وحين قرر دليل الحشر من جهة كونه علام الغيوب أراد أن يذكر دليلاً آخر على ذلك من قبل كمال قدرته فقال:

٩ ـ ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم، وما خلفهم من السماء والأرض﴾ وذلك أن الإنسان حيثما نظر رأى السماء والأرض قدامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله، فالمعنى: أنهم أين كانوا، فأرضي وسمائي محيطتان بهم، وأنا القادر عليهم، إن شئت خسفت بهم الأرض، وإن شئت أسقطت عليهم قطعة من السماء، ﴿إن في ذلك﴾ أي فيما يرون من السماء والأرض، الآية تدل على قدرة الله تعالى على بعثهم والخسف بهم ﴿لكل عبد منيب﴾ إنّ في ذلك التفكير والنظر في آثار قدرة الله تعالى لدلالة قاطعة لكل إنسان راجع إلى ربه مطيع له، متأمل لما يرى.

﴿إن نشأ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط﴾.

داود وسليمان

ثم ذكر من عباده المنيبين إليه داود وسليمان فقال:

١٠ ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾.

﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ أي فضلاً كبيراً يظهر في نواح كثيرة أظهرها أنا قلنا ﴿يا جبال أوبي معه﴾ أي رجعي معه، والمعنى: سبحي معه ورجعي التسبيح ﴿والطير﴾ عطف على قوله ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ والمعنى: وسخرنا له الطير، قال الزجاج: ويجوز أن يكون نصباً على النداء، كأنه قال: دعونا الجبال والطير، فالطير معطوف على موضع الجبال وكل منادى عند البصريين فهو في موضع نصب، فالمعنى: يا جبال رجعي التسبيح معه أنت والطير ﴿وألنّا له الحديد﴾ أي: جعلناه ليناً، سخر الله له الحديد بغير نار، وكان أول من صنع الدروع.

١١ ـ ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿أن اعمل سابغات﴾ المراد دروعاً سابغات أي الدروع الكوامل الواسعات الضافيات، فذكر الصفة لأنها تدل على الموصوف ﴿وقدر في السرد﴾ أي اجعله على قدر الحاجة، قال ابن قتيبة: السرد، النسج، ومنه يقال لصانع الدروع سراد، وزراد ﴿واعملوا صالحاً إنّي بما تعملون بصير﴾ خطاب لداود وآله، أضاف العمل الصالح والنية الصادقة للقوة المادية، إذ لا بد من العمل الصالح لتقويم النفوس وتطهير الأرواح وذلك لتحصينها حتى لا تكبو وتغتر.

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما السلام فقال:

١٢ ـ ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿ولسليمان الريح﴾ وسخرنا لسليمان الريح، تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ القطر هو النحاس، وهو الصفر، أجرى لله لسليمان عين الصفر حتى صنع منها ما أراد من غير نار، كما ألانَ لداود الحديد بغير نار، ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي: وسخرنا له من الجن من يعمل بأمره، سخرهم الله له، وأمرهم بطاعته، وهم جن مخصوصون، والآية تدل على أن من الجن الذين يعملون تحت إمرة سليمان كانوا مهدّدين بالعذاب، إن هم زاغوا أو تمردوا،وهذا العذاب قد يكون من سليمان نفسه، أو في الآخرة.

القــــراءة

﴿الريح﴾ روى أبو بكر والمفضل عن عاصم بالرفع ﴿الريح﴾ أي له تسخير الريح، وقرأ أبو جعفر ﴿الرياح﴾ على الجمع.

ثم فصّل عمل الجن بقوله:

١٣ ـ ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾ كان الجن يعملون لسليمان ما يشاء، فمنهم بناء وغواص ومثال وحداد، ومن جملة ما يعملون المحاريب وهي المساجد والقصور المرتفعة الحصينة، كما كانوا يعملون له تماثيل وصوراً من نحاس أو زجاج أو رخام لسباع أو لطيور، ولم يكن ذلك محرماً في شريعتهم، ﴿وجفان كالجواب﴾ الجفان جمع جفنة، وهي القصعة الكبيرة، والجوابي جمع جابية وهي الحوض الكبير يجبى فيه الماء، أي يجمع، كانوا يصنعون له القصاع كحياض الإبل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ﴿وقدور راسيات﴾ لطهي الطعام، وراسيات أي ثابتات لا تتحرك لعظمها، يصعد إلى أعلاها بالسلالم ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أنعم من النعم التي خصّكم بها عن سائر خلقه، مع الشكر له على سائر نعمه التي عمكم بها مع سائر خلقه، وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً.

القـــراءة

﴿الجواب﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو، بياء ﴿كالجوابي﴾ إلا أن ابن كثير يثبت الياء في الوصل والوقف، وأبو عمرو، يثبتها في الوصل دون الوقف، وأكثر القراء على الوقف بغير ياء.

وحين بيّن عظمة سليمان وتسخير الريح والجن له بيّن أنّه لم ينج من الموت فقال:

١٤ ـ ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾.

﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾ أي فلما حكمنا على سليمان بالموت وجاء أجله، استمر قائماً على عصاه، متكئاً عليها، والجن مستمرون على القيام بالأعمال الشاقة، التي كلّفهم إياها على عادتهم، لا يشعرون بموته، وما دل الجن على موته إلّا دابة الأرض وهي الأرضة، وهي حشرة من دويدات الأرض كانت تأكل منسأته وهي عصاه، وإنما سميت منسأة، لأنه ينسأ بها أي يطرد ويزجر ﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ كانت الإنس تقول إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في غد، فلما سقط سليمان تبينت الجن، أي ظهر وانكشف للناس أنهم لا يعلمون الغيب، ولو علموا ما لبثوا أي ما عملوا مسخرين وهو ميت وهم يظنونه حياً.

قصة سبأ وسيل العرم

ولما بيّن حال الشاكرين لأنعمه ذكر حال من كفر النعمة فقال:

١٥ ـ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية﴾ سبأ قبيلة من قبائل العرب العاربة، كانت تسكن بلاد اليمن أولاد

سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وتعتبر أصلاً، تفرّع منها عدة فروع في الجزيرة، وكانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم في قوله تعالى ﴿قوم تبع﴾ وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة ورغد في عيشهم واتساع في أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى و﴿آية﴾ رفع اسم كان ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ بدل من آية.

بلغت اليمن في أيام الدولة السبئية شأواً عظيماً فبنوا القصور الفخمة مثل مأرب وغمدان وناعط، وأقاموا سدوداً كثيرة لحجز السيول، وأشهر سدود اليمن سد مأرب، الذي يحبس سيول العيون والأمطار، ويقع في مضيق بين جبلين، وكان لهم مجموعتان من البساتين مجموعة عن يمين مأرب، ومجموعة عن شمالها، والبيوت تحيط بالبساتين، وبنيان السد ومجاريه وهندسته آية تشاهد آثاره إلى اليوم ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ أي هذه بلدة طيبة، ولم تكن سبخة، هواؤها طيب، ولا فيها ما يؤذي، ونظراً لاتساع النعمة، وفيضان الخير عندهم لا شك أن هذه الرقعة من الأرض بلدة طيبة الثمار والهواء، كثيرة الخيرات والبركات، والمنعم بها عليهم يستحق الشكر والحمد، ومن نعمائه أنه رب غفور لمن أطاعه وداوم على حمده وشكره.

القــــراءة

﴿مسكنهم﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ﴿في مساكنهم﴾ وقرأ الكسائي وخلف بكسر الكاف وهي لغة ﴿مسكنهم﴾.

قرأ أبو عمرو والبزي ﴿لسبأ﴾ بالفتح.

وحين بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال:

١٦ ـ ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾.

﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ أي أعرضوا عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام ﴿وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾ ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾[1]، كذبوا رسلهم وأعرضوا عن نصائحهم، فأراد ربك أن يذيقهم وبال أمرهم وأن يريهم عاقبة كفرهم ليكونوا عبرة لغيرهم، فأرسل إليهم سيل العرم، وهو الماء القوي الشديد الذي لا يطاق، قوض بناء السد الذي كان يحجز المياه لهم لوقت الحاجة، أغرق الله به جناتهم، وخرب به أرضهم وهدم منازلهم، وأتلفت المياه كل ما كان في طريقها، فتفرقت القبائل

(١) سورة النمل، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

التي كانت تقيم في اليمن في أنحاء الجزيرة العربية، ومنها إلى الخارج، حتى ضرب المثل بهم في التفرقة، فقالوا عند تبدد الشمل وضعف القوة ﴿تفرقوا أيدي سبأ﴾ وكان سيل العرم إبان ملك ذي الإزعار بن حسان، في الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط﴾ أبدل الله زرعهم وخيرهم بجنتين، أي منطقتين للزراعة فيهما مأكول من ثمر مر بشع، والخمط: هو شجر الأراك الذي يؤخذ منه السواك ﴿وأثل وشيء من سدر قليل﴾ الأثل هو الطرفاء، والسدر شجر النبق والمعنى: إنه كان الخمط والأثل في جنتيهم أكثر من السدر.

القـــراءة

﴿أكل﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أكل﴾ بالتنوين، وقرأ أبو عمرو ﴿أكل﴾ بالإضافة، وخفف الكاف نافع وابن كثير، وثقلها الباقون.

١٧ ـ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾.

أي ذلك التبديل جزيناهم به بسبب كفرهم النعمة التي أغدقناها عليهم، يقال للمؤمن، جزى الله المؤمن، لأنه يزاد في الثواب ويتفضل عليه، أما الكافر فيجازى بسيئة مثلها، مكافأة له يجازى بجميع الذنوب.

القـــراءة

﴿وهل نجازي﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿وهل نجازي﴾ بالنون وقرأ الباقون ﴿وهل يجازى﴾ بضم الياء وفتح الزاي.

وحين ذكر حال مسكنهم وجنتيهم وحكى تبديل الجنتين بما لا نفع فيه أراد أن يذكر حال خارج بلدهم وما يؤول إليه أمره فقال:

١٨ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾.

﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة﴾ هذا معطوف على قوله تعالى ﴿لقد كان لسبأ﴾ والمعنى: كان من قصصهم أنا جعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها وهي الشام وفلسطين ومكة والمدينة، ومما كانوا فيه من النعمة قبل تهدم السد وتفرقهم، العيش الهني الرغيد والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزرعها وثمارها بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سفرهم وسيرهم، ثم بيّن أمن تلك الطريق بقوله: ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي سيروا فيها ليلاً ونهاراً بين القرى آمنين من مخاوف السفر من جوع أو عطش أو سبع، أو تعب، وكانوا يسيرون أربعة أشهر في أمان، فبطروا بالنعمة وملوها كما مل بنو إسرائيل المن والسلوى فقالوا:

١٩ ـ ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ بعد أن كانوا آمنين مطمئنين يتنقلون بين قراهم ومدنهم وبساتينهم المتجاورة الآمنة بلا مشقة ولا خوف للرحلة والنزهة والتجارة القريبة، قالوا كفراً وبطراً، ربنا باعد بين أسفارنا وجناتنا، وذلك لما ذكرتهم الرسل ما فيها من النعمة أنكروا أن يكون ما هم فيه نعمة، وسألوا الله أن يباعد بين أسفارهم، فيكونوا بذلك قد ظلموا أنفسهم وما ظلمهم الله بإنزال العذاب بهم ومحو النعمة عنهم ﴿فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كل ممزق﴾ أحاديث لمن بعدهم يتحدّثون بما فعل بهم، وفرقناهم في كل وجه من البلاد أشنع التفرق، لأن الله لما أغرق مكانهم وأذهب جنتيهم تبددوا في البلاد فصارت العرب تتمثل في الفرقة والتفرق بسبأ، فكان منهم الغساسنة في الشام، وقبائل أنمار في يثرب وجذام في تهامة، والأزد في عمان، وغيرهم وغيرهم من تلك الموجات التي كانت تخرج من اليمن ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إنّ في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة، لعبرة ودلالة لكل عبد صبّار على المصائب شكور على النعم.

القـــراءة

﴿باعد﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿بعِّد﴾ بتشديد العين وكسرها.

ظن إبليس في أتباعه

لما ذكر الله تعالى قصة سبأ، وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

هذه الآية في أهل سبأ، وسائر المطيعين لإبليس، وعليهم في الآية بمعنى ﴿فيهم﴾ وصدقه في ظنه أنه ظن بهم أنهم يتبعونه إذا أغواهم، فوجدهم كذلك، وفي سورة النساء ﴿لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ ﴿ولأضلّنهم ولأمنينّهم ولآمرنّهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾(١)، والمعنى: وقد ظنّ أنه إن أغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه فصدق ظنه، وتحقق حدسه، واتبعوه في إغوائه إلّا فريقاً من المؤمنين ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين﴾(٢).

القـــراءة

﴿ولقد صدق﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف.

٢١ ـ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

(١) سورة النساء، الآية: ١١٨ ـ ١١٩.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

﴿وما كان له عليهم من سلطان إلّا لنعلم من يؤمن﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم، فلم يقهرهم على الكفر، وإنما كان منه الوسوسة والإغواء، وقد ابتليناهم بهما، ليتميز من يؤمن بالآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب، ممن هو منها في شك، وبهذه الآية قطع الله عليهم وعلى أمثالهم حجتهم في أن يقولوا: ماذا نفعل وقد أغوانا الشيطان وأضلّنا؟ لا، ما جعل الله لإبليس عليكم من سلطان، فالعيب عيبكم، والذنب ذنبكم وقد حذّركم ربكم منه مراراً فلم ترجعوا عن غوايتكم.

مناقشة المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله

لما فرغ من حكاية أهل الشكر وأهل الكفران تمثيلاً، عاد إلى مخاطبة كفار قريش وتقريعهم فقال:

٢٢ - ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾.

هذا رجوع إلى مخاطبة الكفار والمشركين التي مضت في أول السورة بعد ذكر طرف من قصة داود وسليمان، وما أنعم الله به عليهما، وذكر قصة سبأ، وما أنعم الله عليهم به فلم يشكروه ويقدروه حق قدره، وفي هذا من آيات القدرة ما فيه، ومن دلائل تفرد الله بالوحدانية، وهو خطاب توبيخ وتأنيب لهم، وخاصة بعد ما تقدّم، والمعنى: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لينعموا عليكم بنعمة، أو يكشفوا عنكم بلية، ثم أخبر عنهم فقال ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو شر في جميع السماوات وجهات الأرض ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ أي لم يشاركونا في شيء من خلقهما ﴿وماله منهم من ظهير﴾ أي وما لله من آلهتهم من معين على شيء وكانوا يقولون نحن نتخذهم شفعاء يوم القيامة فيردّ الله عليهم أبلغ رد بقوله:

الشفاعة لا تكون إلّا لمن أذن له الله

٢٣ - ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

أي لا تنفع شفاعة ملك ولا نبي حتى يؤذن له في الشفاعة، وفي هذا رد عليهم حين قالوا: إن هذه الآلهة تشفع لنا، ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا﴾ الكل يوم القيامة مشفقون من خشية الله حتى إذا خفّف عنهم، وكشف الله الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم من المؤمنين، وسري عنهم الخوف، وأذن الله بالشفاعة للشفعاء، سأل المشفوع لهم المحتاجون إلى الشفاعة المهتمون بأمرها، ماذا قال ربكم في الشفاعة؟ ﴿قالوا﴾ أي الشفعاء المأذون لهم، سواء من الملائكة أو الأنبياء قالوا: قال الله ﴿الحق﴾ أي العدل في الفصل بين عباده، لأنه هو العلي ذو العلو والكبرياء الذي لا يتكلّم أحد من ملك ولا نبي يوم القيامة إلّا بإذنه.

القـــراءة

﴿أذن له﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف برفع الألف ﴿أذن له﴾، ﴿فزع﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب وأبان عن عاصم ﴿فزع﴾ بفتح الفاء والزاي.

حين بين بقوله قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله أنه لا يدفع الضر إلاّ هو أشار إلى أن جلب النفع لا يكمل إلاّ به فقال:

٢٤ ـ ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

قل يا محمد للمشركين من يرزقكم من السماوات بالمطر والشمس والقمر والهواء، ومن الأرض بالماء والنبات والمعادن وغيرها، فإن لم يجيبوا ـ وإنما أمر أن يسأل الكفار عن هذا، احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة، وهم لا يثبتون رزاقاً آخر ـ فإن لم يجيبوا فقل لهم الرزاق هو الله وحده، وها هنا تمّ الكلام، ثم أمره أن يقول لهم ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ أو هنا بمعنى الواو، ومعنى الآية: وإنا لضالون أو مهتدون وإنّكم أيضاً لضالّون أو مهتدون. قال ابن كثير: هذا من باب اللف والنشر، أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدلّ على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى.

٢٥ ـ ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

قال ابن كثير: أي لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن براء منكم وأنتم براء منا، كما في قوله تعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾[1].

ثم أمر سبحانه أن يحاكمهم إلى الله لإعراضهم عن الحجة فقال:

٢٦ ـ ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

قل لهم يجمع بيننا يوم القيامة ثم يحكم ويفصل بيننا بالعدل والإنصاف، بلا جور ولا ميل، بعد ظهور حال كل منا، فيدخل المحق الجنة، ويدخل المبطل النار، وهو الحكم العدل، العليم بما ينبغي القضاء به.

ولما بين أن غير الله لا يعبد، لدفع الضر ولا لجلب النفع، أراد أن يبين أن غير الله لا ينبغي أن يعبد لأجل استحقاق العبادة فقال:

٢٧ ـ ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤١.

قل لهم: أعلموني الذين ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة، وجعلتموهم شركاء له، وجعلتموهم أنداداً، أروني أين هم؟ وفي هذا توجيه لهم ولفت لأنظارهم لعلّهم ينظرون إلى الحق فيتبعوه ﴿كلا﴾ ردع وتنبيه، والمعنى: ارتدعوا عن هذا القول، وتنبهوا عن ضلالتكم، فليس الأمر على ما أنتم عليه ﴿بل هو الله﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿العزيز الحكيم﴾ أي: ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره.

وحين فرغ من التوحيد شرع في الرسالة فقال:

٢٨ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

والمعنى: أن الله أرسل نبيه محمداً ﷺ إلى جميع الخلائق من المكلفين.

٢٩ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

يعنون بالوعد العذاب الذي يعدهم به يوم القيامة، وإنما قالوا هذا لأنّهم ينكرون البعث.

وحين ذكر الرسالة، ثم الحشر وذكر أنهم استعجلوه تعنتاً منهم، بيّن على طريق التهديد أنه لا استعجال فيه كما لا إمهال فقال:

٣٠ ـ ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾.

ذلك اليوم هو يوم الموت الذي هو آخر يوم للإنسان من الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، وهو الذي يعم كل إنسان فلا يتأخر عن أجله ولا يتقدّمه.

من مواقف المشركين

ولما بيّن الأصول الثلاثة التوحيد والرسالة والحشر، ذكر أنهم كافرون بالكل قائلين:

٣١ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴾.

وسأل الكفار أهل الكتاب عن النبي ﷺ في كتابهم، فأخبرهم أهل الكتاب أنهم يجدون نعته في كتابهم، فغضب كفار مكة وقالوا ﴿لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ يعنون التوراة والإنجيل، ثم أخبر الله سبحانه عن حالهم في القيامة فقال ﴿ولو ترى إذ الظالمون﴾ وقد وقفوا للحساب لو تراهم ﴿موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ في اللوم والجدل، فيقول ﴿الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع للأشراف والقادة، وهم الذين استكبروا ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ أي مصدقين بتوحيد الله والمعنى: أنتم منعتمونا عن الإيمان، فأجابهم المتبوعون فقالوا:

٣٢ ـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾.

هذا رد القادة والأشراف الذين استكبروا في الدنيا وقالوا ﴿أنحن صددناكم عن الهدى﴾؟، لا لم يحصل هذا أبداً ﴿بل كنتم مجرمين﴾ بترك الإيمان، فرد عليهم الأتباع فقالوا:

٣٣ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ وقال الذين استضعفوا، يردون مقالة قادتهم ورؤسائهم وأشرافهم بل مكركم الدائم ليلاً ونهاراً، هو الذي حملنا على الكفر، وأمرنا به، ودعايتكم المسمومة، وحيلكم الفتاكة، ووضعكم في موضع القيادة والتبع، كل هذا أثر فينا حتى كفرنا وأشركنا من حيث لا نعلم، فكان ما صنعتموه معنا أشبه شيء بالمكر والحيلة حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ من إضافة الفعل إلى غير الآدميين، كقوله ﴿من قريتك التي أخرجتك﴾، وأظهروا جميعاً الندامة لما رأوا العذاب محضراً، وأسر فعل يدل على الإخفاء والإظهار ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ إذا دخلوا جهنم غلّت أيديهم إلى أعناقهم.

ثم سلى نبيه ﷺ بأن إيذاء الكفار للأنبياء ليس بدعاً وإنما ذلك دأبهم من قديم فقال:

٣٤ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

النذير هو نبي أو رسول، والمترفون في الآية هم جبابرة القوم وقادتهم في الشر وغالباًما يكونون هم المسيطرون على النعمة والحشمة، والثروة والرياسة، وفي ذلك تسلية للنبي وأمر له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبر له بأنه غالباً ما بعث نبي في قرية إلا بادره المترفون بالتكذيب، وتبعه الضعفاء، وآمنوا به، والأمثلة في القرآن الكريم من الأقوام السابقة مع رسلهم كثيرة كقوم نوح، وقوم صالح.

ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد:

٣٥ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾[1].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٥.

رد الله اعتقادهم واغترارهم فأخبر أن بسط الرزق وإعطاء الولد ليس دلالة لكرامتهم فقال:

٣٦ ـ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

والمعنى: أن بسط الرزق وتضييقه ابتلاء وامتحان، لا أن البسط يدل على رضى الله ولا التضييق يدل على سخطه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك، ثم صرح الله تعالى بهذا المعنى فقال:

٣٧ ـ ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾.

قال الزجاج: المعنى وما أموالكم بالتي تقربكم ولا أولادكم بالذين يقرّبونكم، فحذف اختصاراً، وقال الأخفش ﴿زلفى﴾ ها هنا اسم مصدر، كأنه قال تقربكم عندنا ازدلافاً، وزلفى قربى ومنزلة عندنا ﴿إلّا من آمن وعمل صالحاً﴾ المعنى: ما تقرّب الأموال إلى الله وحدها ولكن من آمن وعمل بها في طاعة الله ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ والمراد به ها هنا عشر حسنات لهم جزاء الضعف الذي أعلمتكم مقداره ﴿وهم في الغرفات﴾ يعني في غرف الجنة، وهي البيوت فوق الأبنية.

القــــراءة

﴿الغرفات﴾ قرأ حمزة ﴿في الغرفة﴾ على الإفراد أراد اسم الجنس.

٣٨ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾.

والذين يسعون جاهدين أنفسهم ومنفقين أموالهم في إبطال آياتنا معاجزين الله على حسب ظنهم القاصر بأنهم يغالبون الله ورسوله، ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ وفي نار جهنّم ماكثون.

وحين بين أن حصول الترف لا يدل على الشرف ذكر أن بسط الرزق لا يختص بهم قائلاً:

٣٩ ـ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي يأتي ببدله، يقال أخلف الله له وعليه إذا أبدل ما ذهب عنه، والمعنى: مهما أنفقتم من شيء فيما أمر الله به، وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

ثم حكى عاقبة حال الكفار بقوله:

٤٠ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾.

يخبر الله تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدونهم على شكل صور مختلفة الأشكال فيقول للملائكة ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ استفهام تقرير وتوبيخ، أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، وكما يقول لعيسى عليه السلام، ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله﴾[1].

وهكذا تقول الملائكة إجابة للرب:

٤١ ـ ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾.

أي تنزيهاً لك مما أضافوه إليك من الشركاء ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ أي: نحن نتبرأ إليك منهم، ما توليناهم ولا اتخذناهم عابدين، ولسنا نريد ولياً غيرك، ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ أي يطيعون الشياطين في عبادتهم إيانا وأكثرهم بهم مصدقون لهم فيما يخبرونهم من الكذب أن الملائكة بنات الله، ويقال حينئذ توبيخاً وتأنيباً للكفار بقوله تعالى:

٤٢ ـ ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

اليوم يعني الآخرة لا يملك العابدون والمعبودون نفعاً لأحد بالشفاعة، ولا ضراً بالتعذيب ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ فعبدوا غير الله ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون، في الدنيا.

ثم أخبر أنهم يكذبون محمداً والقرآن بقوله:

٤٣ ـ ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾.

إذا تليت آيات القرآن الواضحات على الكفار كانوا يقولون ﴿ما هذا إلّا رجل يريد أن يصدّكم﴾ يقصدون النبي محمداً ﷺ فيقولون عناداً واستكباراً ﴿ما هذا﴾ أي الآيات التي تتلى عليهم من قبل النبي أو الصحابة أو غيرهم من المرشدين ﴿إلّا إفك مفترى﴾ أي ما القرآن إلّا كذب مختلق، ولما تبين عجزهم عن الإتيان بمثله وأنه حق قالوا عنه هذا سحر بين.

ثم أخبر سبحانه أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة، ولم يكذبوا محمداً عن يقين ولم يأتهم قبله كتاب ولا نبي يخبرهم بفساد أمرهم فقال:

٤٤ ـ ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ﴾.

أي ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد منذ إسماعيل عليه السلام.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

ثم أخبر عن عاقبة المكذبين قبلهم مخوفاً لهم فقال:

٤٥ ـ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

﴿وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ يعني أن الأمم الكافرة قبل كفار مكة، كانوا أولي قوة وشدة، كفرعون وكعاد وثمود وسبأ وغيرهم، ولم يبلغ كفار مكة معشار ما أعطاهم الله من القوة والشدة والمال وطول العمر والعمران وغيره، والمعشار هو العشر ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ فانظر كيف كانت عاقبتهم وإنكاري عليهم، فقد دمرنا قراهم واستأصلناهم من الأرض، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، فليحذر الكفار أن يعاقبهم الله بمثل ما عاقب غيرهم فإن بطشي لشديد وهذا تهديد لهم شديد، والأصل فكيف كان نكيري، وإنما حذفت الياء لأنه آخر آية.

ثم رجع القرآن يستدرجهم ويعرض عليهم الدين ويطالبهم أن يحكموا عقولهم، ينظروا ببصائرهم لعلهم يرشدون فقال:

٤٦ ـ ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله﴾ قل لهم يا محمد إنما أنصح لكم وأطلب منكم خصلة واحدة هي أن تقوموا لله قياماً خالصاً لوجه الله لتعرفوا الحق بعيداً عن التقليد والتعصب والعناد ﴿مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أي يتناقش الاثنان ويتشاوران في أمر رسول الله ﷺ إن كان به جنون حق، أو أن هذا الكلام الذي يأتي به من الجنون أم من الحق ﴿ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ وفيه اختصار تقديره: ثم تفكروا لتعلموا صحة ما أمرتكم به ووعظتم فيه، وأن الرسول ليس بمجنون إن هو إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ في الآخرة.

وحين ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبياً، ذكر وجهاً آخر يلزم منه صحة نبوته فقال:

٤٧ ـ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

قل لهم ما سألتكم من أجر على تبليغ الرسالة فهو لكم، فلست طالباً للدنيا وعرضها، ولست أبغي من دعوتي أجراً ولا مالاً ولا جاهاً، وما أجري للقيام بدعوة الله إلّا على الله وهو مطلع على كل شيء.

٤٨ ـ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾.

أي يلقي الوحي إلى أنبيائه، وفي هذا تطمين لقلوب المؤمنين وتثبيت لهم على الحق والدعوة، وفيه تهديد للمخالفين.

وحين ذكر أنه يقذف بالحق أخبر أن الحق قد جاء فقال:

٤٩ ـ ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾.

قل لهم جاء الحق وزهق الباطل بظهور الإسلام، وإنزال القرآن، ومعنى مجيء الإسلام أنه سوف ينتشر ولن يبقى من الباطل الذي تدفعون به الحق شيء، لأن الباطل لا يستطيع أن ينشىء خلقاً، أو يعيدهم بعد فنائهم، لكن الله هو القادر على ذلك وحده.

ثم قرر أمر الرسالة بوجه آخر فقال:

٥٠ ـ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

زعم الكفار أن النبي ﷺ قد ضلّ حين ترك دين آبائه، فرد الله عليهم بذلك، والمعنى: إن ضللت فإن إثم ضلالتي على نفسي وليس عليكم من شيء ﴿وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾ من الحكمة والبيان.

ثم عجب نبيه ﷺ أو كل راء من مآل حال أهل العناد بقوله:

٥١ ـ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾.

ولو ترى هؤلاء الكفار المعاندين في الدنيا، لو تراهم في الآخرة حين البعث من القبور وما أصابهم من الذعر والفزع والخوف، حيث يؤخذون إلى النار من مكان قريب من الموقف، ولا يمكنهم أن يفوتونا.

ثم بين أنهم سيؤمنون بمحمد ﷺ أو بالقرآن أو بالحق حين لا ينفع الإيمان قائلاً:

٥٢ ـ ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

حين يعاين الكفار العذاب يوم القيامة يقولون آمنا أي بما جاء به القرآن ﴿وأنى لهم التناوش﴾ كيف يتناول الكفار الإيمان في الآخرة في يسر وسهولة من مكان بعيد عن محله في الدنيا، فقد فات أوان الإيمان، فلا ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴿من مكان بعيد﴾ وهو الموضع الذي تقبل فيه التوبة، أي أنى لهم يتناولون الإيمان والتوبة، وقد تركوا ذلك في الدنيا، والدنيا قد ذهبت.

القـــراءة

﴿التناوش﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي والمفضل عن عاصم بالهمز، قال الفراء: من همز جعله من ﴿نأشت﴾ ومن لم يهمز جعله من ﴿نشت﴾ وهما متقاربان.

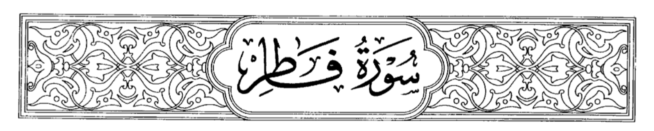
والمعنى: تناوشت الشيء، وقد تناوشت القوم في القتال: إذا تناول بعضهم بعضاً بالرماح وآلات الحرب، ولم يتدانوا كل التداني، وقد يجوز همز ﴿التناؤش﴾.

٥٣ ـ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

وهم قد كفروا به أي بالقرآن من قبل، ويقذفون بالغيب من مكان بعيد أي يرمون بالظن، وهو بعدهم عن العلم فيقولون سحر، وأساطير الأولين، وغير ذلك من التهم التي تلقى على النبي محمد ﷺ مثل الكفر بالقرآن والكتب السماوية الأخرى.

٥٤ - ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾.

أي منع هؤلاء الكفار مما يشتهون ويرغبون فيه من الإيمان ثانية والرجوع إلى الدنيا للعمل الصالح والفرار من العذاب والخلوص من الموقف وفعل بهم كما فعل بأشباههم ونظرائهم من الأمم السابقة، ولا تعجب من هذا لأنهم كانوا في الدنيا في شك من أمر البعث ومبدأ الثواب والعقاب، كانوا في شك منه مريب أي موقع للريبة والتهمة.



سورة فاطر سميت لورود كلمة ﴿فاطر السماوات﴾.

لما بين في آخر السورة المتقدمة انقطاع رجاء الشاك وعدم قبول توبته في الآخرة، ذكر في أول هذه السورة حال المؤمن الموفق، وبشر بإرسال الملائكة إلى الناس مبشّرين وبين أنّه يفتح لهم أبواب الرحمة فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

الشكر الخالص، والثناء التام لله المعبود بحق، خالق السماوات والأرض ومنشئهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ يرسلهم إلى الأنبياء، وإلى ما شاء من الأمور ﴿أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ أي أصحاب أجنحة فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ الله الذي خلق السماوات والأرض وخلق الملائكة، وجعل لها أجنحة مختلفة قادر أن يزيد خلقها وتعداد أجنحتها أكثر من ذلك، حسب مشيئته وإرادته.

ثم أكّد نفاذ أمره وجريان الأمور على وفق مشيئته بقوله:

٢ ـ ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

والمعنى: ما يرسل الله للناس من خزائن رحمته، من نعم من رزق وخير ومطر في السماء أو في الأرض، فلا ممسك لها، ولا مانع لها عن عباده، لا مانع لما يعطي، ولا معطي لما يمنع، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وحين بيّن أن الحمد لله وبيّن وجوه النعمة المستدعية للحمد على التفصيل أمر المكلفين بتذكر النعمة على الإجمال فقال:

٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾ التي لا تعد ولا تحصى، اذكروها باللسان وبالقلب شاكرين للمنعم بها، ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم﴾ هذا استفهام تقرير وتوبيخ، والمعنى: لا خالق سواه يرزقكم المطر من السماء والنبات من الأرض ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تصرفون عن توحيد خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضركم؟ وكيف تسوون بين الصنم المنحوت، ومن بيده الملكوت؟ عجباً لكم!

القــــراءة

﴿غير﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿غيرِ الله﴾ بالخفض للراء.

وحين بيّن الأصل الأول وهو التوحيد، ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله:

٤ ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

وإن يكذبك الكفار فيما أرسلت به فقد كان شأن أولي العزم من الرسل مع قومهم كذلك، فتأس واصبر كما صبروا، ومرجع الأمور في النهاية إلى الله وحده يوم القيامة فيجازي المكذبين على تكذيبهم.

وعظ وإرشاد

ثم بين الأصل الثالث وهو الحشر بقوله:

٥ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾.

أي أن وعد الله بالبعث والثواب والعقاب حق فلا تشغلنكم الحياة الدنيا بنعيمها ولذاتها عن العمل للآخرة ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان فلا يخدعنكم ويمنيكم وتنسون ربكم، وقد مرّ مثل هذه الآية في آخر سورة لقمان.

٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

﴿فاتخذوه عدواً﴾ أي أنزلوه من أنفسكم منزلة الأعداء، وتجنبوا طاعته، ثم صرح بوجه اتخاذه وبعاقبة دعوته فقال: ﴿إنما يدعوا حزبه﴾ أي يدعو من شايعه وتبعه إلى الكفر والهلاك.

ثم فصل مآل حزبه وحزب الله بقوله:

٧ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾.

٨ ـ ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

﴿أفمن زين له سوء عمله﴾ أي زين له الشيطان فغلب عليه هواه وركب رأسه فرآى عمله حسناً، رأى الباطل حسناً، والقبيح حسناً، فتركه الله في ضلالته، وجواب ﴿أفمن زين له﴾؟ كمن هداه الله، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ ومعنى قوله ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي لا تغتم

ولا تهلك نفسك وتتعبها حسرة وتأسفاً على ترك هؤلاء الإيمان وعدم هدايتهم فالذي عمل السوء حتى أظلم قلبه وفرغ من خشية الله حتى أصبح لا يميز بين القبيح والحسن، والشر والخير، هذا الصنف لا يعبأ به الله بل يخذله ويتركه يهيم في الضلالة ولا يمن عليه بالهداية.

ثم أكّد كونه فاعلاً مختاراً قادراً قهاراً مبدئاً معيداً بقوله:

٩ ـ ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾.

هذا دليل حسي على إمكان البعث يدل على قدرة الله وبالغ حكمته ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ تحمل الريح الأبخرة المتصاعدة من الأرض والبحار والأنهار إلى السماء فتحركها، تجمعها وتفرقها، وتحملها إلى حيث يشاء الله ﴿إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ أي يسوقه الله إلى الأرض التي لا نبات بها ولا زرع فيحيي الله به تلك الأرض حتى تصبح ذات زرع وشجر، ومثل ذلك ـ أي إحياء الأرض بالخضرة بعد موتها ـ نشر الأموات وإحياؤها للبعث والثواب والعقاب.

القـــراءة

﴿الرياح﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿أرسل الريح﴾ بغير ألف.

كان المشركون يعبدون الأصنام يطلبون بها العزة، وكان المنافقون يبتغون عند الكفار عزاً لهم فبين الله أن العزة لله ولأوليائه فقال:

١٠ ـ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾.

أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فيلزم طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً، ثم إنّ الكفار كأنّهم قالوا نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده فإن البعد من الملك ذل فقال: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ الكلم الطيب هو الذكر والتلاوة والدعاء، والعمل الصالح الذي يرفعه الله ويتقبله هو ما كان من قلب مخلص ونية صادقة لله، وعكسه العمل الخبيث وما كان للنفاق والرياء لا يرفعه الله ولا يتقبله، ويرد على صاحبه ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾ هم المراؤون بأعمالهم، يعني يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عز وجل، يراؤون بأعمالهم ﴿ولا يذكرون الله إلّا قليلاً﴾[1] ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي يفسد ويبطل.

خلق الإنسان

ولما ذكر دليل الآفاق أكده بدليل الأنفس قائلاً:

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

١١ ـ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾ خلق أباكم آدم من تراب، ثم أنشأ ذريته من مني ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي أصنافاً ذكوراً وإناثاً، زوج بعضهم ببعض ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلّا في كتاب﴾ أي وما يمد في عمر أحد فيبلغ حد الشيخوخة، ولا ينقص من عمره بأن يكون قصير العمر، أي أنقص من عمر غيره، إلا كان ذلك بعلم الله، مثبتاً في اللوح المحفوظ أزلاً، إن طول العمر وقصره، وتقدير الآجال هيّن على الله عز وجل.

ثم ضرب مثلاً للمؤمن والكافر وذكر دليلاً آخر على عظم قدرته فقال:

١٢ ـ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فهما وإن اشتركا في الصورة لا يتساويان، فمثلهما كمثل البحر والنهر، يشتركان في صورة الماء، ويستخرج منهما السمك الطري، ومن البحر اللؤلؤ والمرجان وهي حلية تلبس للزينة، ولكنهما يختلفان فيما هو المقصود بالذات من الماء، فأحدهما وهو النهر ﴿عذب فرات سائغ شرابه﴾ والآخر ﴿ملح أجاج﴾ شديد الملوحة يحرق بملوحته في أثناء انحداره، لما خالطه من الملح المذاب فيه، فكذلك المؤمن والكافر لا يستويان، وإن اشتركا في الإنسانية، ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ الفلك هي السفن تمخر عباب البحار ولا ترسب في قاع الماء، أليس في ذلك آية على قدرة الله، فلا تنكروا البعث أيها الناس وآمنوا بالله.

١٣ ـ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾.

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي يدخل وقت أحدهما في وقت الآخر وبالعكس، وذلك بسبب تسخيره الأرض بدورانها حول نفسها أمام الشمس في اليوم والليلة ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ ذلّلهما لمصلحة عباده فالشمس تضيء نهاراً بالقدر الذي يكفي الناس ولا يهلكهم، والقمر يضيء ليلاً بقدر معين في ليالي معينة بانعكاس ضوء الشمس عليه التي يرسلها على الأرض ليلاً ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ يسبحان في الفلك الفضائي لمستقر لا يعلمه إلّا الله في الوقت الحاضر، وربما كشف العلم في المستقبل ماهية هذا الجريان، الذي اعترف به العلماء دون الكشف عنه، ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾

القطمير: هو القشر الرقيق الذي يكون على ظهر النواة، وذكر ذلك لصغره وحقارته.

١٤ ـ ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾.

﴿إن تدعوهم﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿لا يسمعوا دعاءكم﴾ لأنهم جماد ﴿ولو سمعوا﴾ فرضاً بأن خلق الله لهم أسماعاً ﴿ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي يتبرؤون من عبادتكم ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ الخبير هو العالم بالأشياء، والمراد هنا: إنه لا أخبر منه عز وجل بما أخبر أنه سيكون، والمعنى: ولا يخبرك مخبر عن حال المشركين وأصنامهم يوم القيامة مثل خبير عالم بخفايا الأمور، وهو الله سبحانه وتعالى، فإنه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم بين أن نفع العبادة إنّما يعود على المكلفين فقال:

١٥ ـ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

الناس فقراء إلى الله لأنّهم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات، فليس في حاجة إلى عبادة العباد، ولا تضره معصيتهم، ثم بين أن فقرهم ليس إلّا إلى الله فقابل الفقراء بقوله: ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له.

ثم ذكر أنه غني عن وجودهم أيضاً لا يفتقر في ظهور أثر قدرته إليهم فقال:

١٦ ـ ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

أي لو شاء لأذهبكم فأفناكم، أو أهلككم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع، ولهذا قال:

١٧ ـ ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾.

فإنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء لأنّه هو العزيز وغيره الذليل.

وحين بيّن الحق بالدلائل الباهرة أراد أن يذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال:

١٨ ـ ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾.

أي لا تحمل يوم القيامة نفس إثم نفس أخرى في الدنيا، فكل إنسان يحاسب على عمله، كل نفس بما كسبت رهينة، وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، ﴿وإن تدع مثقلة

إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى ـ ولو كان المدعي من أقارب الداعي لتحمل عنها لا يحمل منه شيء أبداً ولا يجوز مهما كانت القرابة، قال الله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[1].

﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ إنما يقبل إنذارك ويتعظ به الذين يخافون ربهم ويؤمنون به من غير أن يعاينوا عذابه، ولم يطلبوا برهانه، أما الذين لا يؤمنون إلا بالمادة ولا يعملون أفكارهم وعقولهم ليروا الدليل فيها فإنّهم لا ينتفعون بإنذارك، فالذين يخشون الله ولم يروه وأقاموا الصلاة المفروضة، فكأنك تنذرهم دون غيرهم، لمكان اختصاصهم بالانتفاع، ولذلك جاء التعبير بـ ﴿إنما تنذر﴾ ومن تطهر من الكفر والفواحش ﴿فإنما يتزكى لنفسه﴾ أي فصلاحه لنفسه.

ثم ضرب للكافر والمؤمن مثلاً فقال:

١٩ ـ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾.

٢٠ ـ ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾.

٢١ ـ ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾.

٢٢ ـ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾.

قال قتادة: هذه أمثال ضربها الله تعالى للمؤمن والكافر، يقول كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ﴿إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ كما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به سبل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينتفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله وفهم كتابه وواضع حججه.

مهمة الرسول ﷺ

٢٣ ـ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾.

ما أنت يا محمد إلّا نذير تنذر هؤلاء المشركين بالله الذين طبع الله على قلوبهم، ولم يرسلك ربك إليهم إلّا لتبلغهم رسالته، ولم يكلفك من الأمر ما لا سبيل لك إليه، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تجهد قلبك إن هم لم يستجيبوا لك فهدايتهم بيد الله وحده.

٢٤ ـ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾.

إنا أرسلناك بالدين الحق مبشراً بالجنة ومنذراً من النار، وتفيد كلمة أرسلناك أنك من عند الله ولست من تلقاء نفسك، وإنما بأمر من الله جلّ شأنه ﴿وإن من أمة إلّا خلا فيها نذير﴾ أي ما من أمة خلت من بني آدم إلّا

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

وقد بعث الله تعالى إليهم النذر.

ثم زاد في التسلية بقوله:

٢٥ ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾.

﴿وإن يكذبوك﴾ فلا تحزن فقد كذبت رسل من قبلك، كذبتهم أممهم حينما جاؤوهم بالبينات، وبالكتب المكتوبة؟ وبالكتاب المنير الذي ينير لهم الطريق كالتوراة والإنجيل والزبور، ثم لما كذبوا أخذتهم أخذ عزيز مقتدر فانظر كيف كان عقابي؟.

لما بين دلائل الوحدانية بطريق الإخبار ذكر دليلاً آخر بطريق الاستخبار فقال:

٢٦ ـ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾.

ألم تر وتعلم أن الله سبحانه أنزل من السماء ماء، فأخرجنا بسببه من الأرض ثمرات مختلفاً أنواعها، فهذا أحمر وذاك أصفر، وغيره أبيض وأسود ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ أي ومما خلقنا من الجبال جدداً، والجدد الخطوط والطرائق تكون في الجبال فبعضها بيض، وبعضها حمر، ﴿وغرابيب سود﴾ الغرابيب جمع غربيب، وهو الشديد السواد الحالك، وهي ذوات الصخر الأسود.

وحين فرغ من دلائل النبات وما يشبه المعادن، شرع في الاستدلال بالحيوان وقدّم الإنسان لشرفه فقال:

٢٨ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾.

﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي وخلقنا من الناس والدوابّ والأنعام من هو مختلف ألوانه كذلك أي كاختلاف ألوان الثمرات والجبال، فمنهم الأبيض والأحمر والأسود وغير ذلك، وحين خاطب نبيه بقوله: ﴿ألم تر﴾ بمعنى ألم تعلم أثبت قوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني، وهم العلماء العارفون به، فهم أحق الناس بخشية الله، قال ابن عباس: العلماء هم الذين علموا أن الله على كل شيء قدير، وفي الحديث: أعلمكم بالله أشدكم خشية له، ثم بين السبب الباعث على الخشية بقوله: ﴿إن الله عزيز غفور﴾ فالعزة توجب الخوف من عقابه الشديد والمغفرة توجب الطمع في نعيمه وثوابه.

ثم مدح العالمين العاملين بقوله:

٢٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ هذه آية القراء، والمعنى: الذين يتلون أي يقرؤون القرآن ويداومون على قراءته، ويعملون بما فيه، أثنى عليهم بقراءة القرآن ﴿وأقاموا الصلاة﴾ هو إدامتها لمواقيتها وحدودها، ثم أشار إلى الشفقة على خلق الله بقوله: ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أنفقوا لا ليشتهروا بالكرم والسخاء، ولكنّهم يطلبون بإنفاقهم طاعة الله، ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾[1] ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ هذا جواب قوله ﴿إن الذين يتلون﴾ والمعنى: يرجون بفعلهم هذا تجارة لن تفسد ولن تهلك ولن تكسد.

٣٠ ـ ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

أي ليوفيهم جزاء أعمالهم، من الثواب ما يستحقون ويتفضل عليهم بما لم تره عين ولم تسمعه أذن، والشكور هو: الذي يشكر اليسير من الطاعة فيثاب عليه الكثير من الثواب، ويعطى الجزيل من النعمة، ويرضى باليسير من الشكر.

المؤمنون بالقرآن والكافرون

وحين ذكر دلائل الوحدانية أتبعه بيان الرسالة وذكر حقيقة الكتاب المتلو فقال:

٣١ ـ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾.

﴿والذي أوحينا إليك﴾ يا محمد ﴿من الكتاب﴾ وهو القرآن ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين ﴿إنّ الله بعباده لخبير بصير﴾ تقرير لكون القرآن حقاً، لأن الذي يكون عالماً بالبواطن والظواهر لا يمكن أن يكون في كلامه شوب باطل، وفيه إشارة إلى أنه لم يختر محمداً للرسالة جزافاً وعلى سبيل الاتفاق، ولكنّه أعلم حيث يجعل رسالته.

٣٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا﴾ أي ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا وهم من هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أقسام فقال: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٨ ـ ٩.

وهو المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات خوفاً من وقوعه في المنهيات، ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي سُبوق هذا السابق من سبقه بالخيرات بإذن الله، هو الفضل الكبير، الذي فضل به من كان مقصراً عن منزلته في طاعة الله من المقتصد والظالم لنفسه.

ثم أخبر بثوابهم فجمعهم في دخول الجنة فقال:

٣٣ ـ ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾.

يخبر الله تعالى بأن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة، مأواهم جنات عدن، أي جنات الإقامة، يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل ﴿يحلون فيها أساور من ذهب ولؤلؤاً﴾ وقد ثبت في الصحيح عن الرسول ﷺ قال: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء) ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ قال رسول الله ﷺ قال (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة). يرى بعض العلماء أن الحظر منسوخ بلبس أكثر من عشرين صحابياً فيكون النهي للكراهة راجع في ذلك كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو ﴿يدخلونها﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون ﴿يدخلونها﴾ بفتح الياء.

قرأ نافع وعاصم ﴿ولؤلؤاً﴾ بالنصب، وقرأ الباقون ﴿ولؤلؤ﴾ بالخفض.

ثم أخبر عما يقولون عند دخولها فقال:

٣٤ ـ ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴾.

﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ وهو الخوف من المحذور، بسبب أهوال يوم القيامة، لا يدرون ماذا يفعل بهم، وأذهبه أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من كل هم.

٣٥ ـ ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴾.

﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة، وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، ولم تكن أعمالنا تساوي ذلك ﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ أي لا يمسنا فيها عناء، ولا إعياء، والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب، فلا تعب في أبدانهم ولا أرواحهم ولا مرض بدني ولا نفسي.

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء فقال:

٣٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾.

﴿لا يقضى عليهم﴾ بالموت فيموتوا ويستريحوا من العذاب، قال الله تعالى: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنّكم ماكثون﴾[1]، ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق.

القــــراءة

﴿يجزي﴾ قرأ أبو عمرو بالياء ﴿يجزي﴾ و﴿كل﴾ برفع اللام، وقرأ الباقون بنصب اللام.

٣٧ - ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾.

﴿وهم يصطرخون فيها﴾ وهو افتعال من الصراخ، والمعنى: يستغيثون فيقولون ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً﴾ أي نوحّدك ونطيعك ولا نعمل الذي كنا نعمله في الدنيا من الشرك والمعاصي، فوبخهم الله تعالى بقوله ﴿أو لم نعمركم﴾ أي ألم نعمركم عمراً ليتمكن فيه من التذكر من أراد أن يتذكر، وفي مقدار العمر على أصح الروايات عن ابن عباس هو ستون سنة، كما جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: (أعذر الله عز وجل إلى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة) وهو الغالب في أعمار هذه الأمة، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة ﴿وجاءكم النذير﴾ احتج عليهم أولاً بالعمر وثانياً بالرسل.

ثم كان لسائل أن يسأل ما بال الكافر يعذب أبداً وإنه ما كفر إلّا أياماً معدودة فقال:

٣٨ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

يخبر تعالى بعلمه غيب السماوات والأرض وأنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر وسيجازي كل عامل بعمله، فكان يعلم من الكافر أنّ الكفر قد تمكّن في قلبه بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده.

نقاش المشركين

وحين ذكرهم بما مرّ من أنه سوف يوبخهم بالتعمير وإيتاء العقول وإرسال من يؤيد المعقول بالمنقول وعظهم فقال:

٣٩ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

﴿جعلكم خلائف في الأرض﴾ أي الأمة التي خلفت من قبلها ورأت فيمن تقدمها ما ينبغي أن تعتبر به ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلّا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

مقتاً﴾ أي كلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين، فأنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته، ومنزلته في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه.

ثم وبخ أهل الشرك بقوله:

٤٠ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾.

﴿قل أرأيتم شركاءكم﴾ المعنى: أخبروني عن الذين عبدتم من دون الله، واتخذتموهم شركاء بزعمكم، بأي شيء أوجبتم لهم الشركة في العبادة؟ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات﴾ أبشيء خلقوه من الأرض، أم شاركوا خالق السماوات في خلقها؟ ثم عاد إلى الكفار فقال: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه﴾؟، أي بل أنزلنا عليهم كتاباً بالشركة، فهم على بيان منه بأن مع الله شريكاً ـ وهذا ضرب من التهكم ـ ليس الأمر كذلك ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور الباطل والزور.

القــــراءة

﴿بينة﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿بينات﴾ جمعاً، والمراد بالبيان.

ثم استأنف سبحانه الكلام لبيان قدرة الله بعد بيان ضعف الأصنام، وعدم قدرتها على شيء فقال:

٤١ ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

والمعنى: أي لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما، لو قدر إشرافهما على الزوال ﴿ولئن﴾ بمعنى: ﴿ولو﴾ و﴿إن﴾ بمعنى: ما وهذا مكان يدل على القدرة، غير أنه ذكر الحلم فيه بقوله ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ لأنه لما أمسكهما من الاضطراب والزوال وأخر عقاب الكفار وهو يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر، وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر، فناسب ختم الآية بالمغفرة.

حقيقة هؤلاء المشركين

٤٢ ـ ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾.

كان المشركون قبل بعثة النبي محمد ﷺ لما رأوا طوائف اليهود والنصارى يكذب بعضهم بعضاً شمتوا بهم ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ أقسموا بالله جاهدين بالغين طاقة جهدهم وغاية أيمانهم، وكانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم فإذا اشتد عليهم الحال، وأرادوا تحقيق الحق

حلفوا بالله، ويقصدون بأنهم سوف يكونون مسارعين إلى الإيمان به، لو قدر وجاءهم رسول وأنزل عليهم كتاب ﴿فلما جاءهم نذير ما زادهم إلّا نفوراً﴾ وهو محمد ﷺ وهو منهم، ما اهتدوا إلى الحق بل تباعدوا عنه، نفروا منه كما بين في الآية التالية فقال:

٤٣ - ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

﴿استكباراً في الأرض﴾ أي أن نفورهم عن النبي محمد ﷺ إنما كان لأجل الاستكبار عن اتباعه ﴿ومكر السيىء﴾ أي ومكروا بالناس في صدّهم إياهم عن سبيل الله مستعملين كل الوسائل القبيحة من الخداع والحيلة ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلّا بأهله﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلّا على أنفسهم دون غيرهم، قال الله تعالى ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ وقد حاق بالكفار مكرهم يوم غزوة بدر وغيرها من الغزوات، ﴿فهل ينظرون إلّا سنة الأولين﴾ أي فهل ينتظرون بفعلهم وتكذيبهم الرسول أن يحل بهم ما حلّ بالأمم السابقة، من العذاب عندما كذبوا الأنبياء الذين أرسلوا إليهم، ومكروا بهم المكر السيىء ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد.

القـــراءة

﴿ومكر السيىء﴾ قرأ حمزة ﴿ومكر السيىءْ﴾ ساكنة الهمزة، وقرأ الباقون ﴿مكر السيىءِ﴾ بكسر الهمز.

ثم أمرهم بالسير بقوله:

٤٤ - ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾.

﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أي ارتحلوا إلى ديار الذين من قبلكم وانظروا آثار ما فعل الله بهم، أمثال عاد، وثمود ممن كذبوا الرسل ثم اعتبروا، فإن ذلك هو سنة الله في الأولين المكذبين ﴿وكانوا أشد منهم قوة﴾ والحال أنهم كانوا أشد منهم قوة وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً، وأقوى أبداناً، فما أغنى ذلك شيئاً ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، ثم بيّن كمال علمه ونهاية قدرته على اتصال أصناف الاستحقاقات بقوله ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض﴾ إذا أراد كونه كان ﴿إنه كان عليماً قديراً﴾ عليماً بجميع الكائنات قديراً على مجموعها.

تأخير عذاب الاستئصال عن أمة محمد

ثم ختم السورة بما يدل على غاية حلمه فقال:

٤٥ - ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾.

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأطبق السماوات على الأرض، وأهلك جميع أهل السماوات والأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق ﴿ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى﴾ ولكن اقتضت الحكمة الإلٰهية والرحمة الربانية، أن يؤخرهم إلى أجل مسمى عنده، هو أعلم به إلى يوم القيامة فيرفع عنهم عذاب الاستئصال إكراماً للنبي محمد ﷺ، وتشريفاً له ولأمته لعلّهم يتوبون، ويثوبون إلى رشدهم ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون بل سيفارقون الدنيا، ويحاسبون على أعمالهم.



تسمى سورة ياسين لورود كلمة ﴿يس﴾ في أول السورة.

لما ذكر سبحانه في آخر السورة المتقدمة أنّهم أقسموا ليؤمننّ إن جاءهم نذير افتتح هذه السورة بأنّهم لم يؤمنوا وقد جاءهم النذير فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ - ﴿ يسٓ ﴾.

٢ - ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

٣ - ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

الياء حرف نداء وتنبيه، والسين تشير للنبي محمد ﷺ بدليل قوله تعالى بعدها، إنّك لمن المرسلين، وقد أكّد الله سبحانه ذلك بلام القسم ﴿لمن﴾ والمقصود بها تعظيم المقسم به، وهو عظم شأن الرسالة، لما فيه من الدلالة على اتصافه تعالى بصفات الكمال، والتأكيد بالقسم كذلك فيه ردّ على الكفار والجاحدين، بقولهم: لست رسولاً، ومثله قوله تعالى في سورة طه ﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ويٰس معناها إنسان بلغة الحبشة.

القـــراءة

﴿يٰس﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بكسر الياء ﴿يِس﴾

٤ - ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

٥ - ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدى.

القـــراءة

﴿تنزيل﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم برفع اللام ﴿تنزيلُ﴾.

٦ - ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

أي أرسلناك لتنذر قوماً لم ينذر آباؤهم من قبل فيتعلموا منهم، فهم غافلون لهذا السبب عن دعوة الله وشرائعه.

٧ ـ ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي لقد ثبت وتحقق الحكم أزلاً بالعذاب على أكثر المنذرين، وهم كفار مكة، فهم لا يؤمنون بإنذارك إيّاهم، لسبق علمنا بسوء اختيارهم الموجب لإصرارهم على الكفر. وحين بيّن أنّهم لا يؤمنون ذكر أنّ ذلك عقاب لهم من الله تعالى على إصرارهم وعنادهم فقال:

٨ ـ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾.

الأغلال: قيود عظيمة، والغل بالضم: ما تشدّ به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد، والأذقان جمع ذقن، وهو أسفل اللحيين، ومقمحون: رافعون رؤوسهم مع غضّ أبصارهم لا يستطيعون أن يطأطئوها لوصول الأغلال إلى أذقانهم، من الإقماح، وهو رفع الرأس وغضّ البصر.

والمعنى: يصوّر الله سبحانه وتعالى حال الكفّار والمصّرين على الكفر الشامخين برؤوسهم عن اتباع الرسول في عدم التفاتهم إلى الحق، وعطف أعناقهم نحوه، بحال أولئك المغلولين، ثم ضرب مثلاً آخر لكونهم غير منتهجين سبيل الرشاد بقوله:

٩ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

السدّ: الحاجز بين الشيئين، وأغشيناهم: جعلنا على أبصارهم غشاوة أي غطاء، فلا يقدرون على الإبصار بسبب ذلك. وهذا تمثيل آخر لحال هؤلاء الكفار في حبسهم أنفسهم في حظيرة الجهالات، ومنعهم عن النظر في الدلائل والآيات لسوء اختيارهم، وفساد استعدادهم، بحال من أحاطت بهم سدود فحجبتهم عن الإبصار.

القــــراءة

﴿سدّاً﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿سَدّاً﴾ بفتح السين، وقرأ الباقون بالضم.

ثم صرّح بالمقصود معطوفاً على المذكورات قائلاً:

١٠ ـ ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي إنذارك إيّاهم وعدمه سواء، فلا ينفعهم الإنذار ما داموا لا يقبلون الحق، لأنّهم وضعوا بينك وبينهم سدّاً معنوياً يمنعهم من سماع الهدى، وقد سبق تفسيره في سورة البقرة الآية: (٦).

١١ ـ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾.

أي إنما ينتفع بإنذارك الذين يتبعون الذكر وهو القرآن، ويخشون الرحمن بالغيب، والآية تفيد أن المنتفع بالذكر طبقة خاصة، وأما الإنذار العام فالنبي مكلّف به سواء اتبعه فيه الناس أم لا، فلا تعارض بين الآية وبين

عموم الرسالة وعموم الإنذار للثقلين. حقاً لا ينتفع بالإنذار إلّا من طرق قلبه ذكر القرآن وخشي الرحمن بالغيب، أما تلك القلوب المغلقة، والنفوس الميتة التي لا تؤمن إلّا بالمادة وأحوالها، فلا يمكن أن ينتفعوا بالإنذار، فبشّر كما أنذرت من اتبعك وانتفع بك بمغفرة واسعة، وجنة عرضها السموات والأرض، والأجر الكريم الحسن وهو الجنة.

وحين فرغ من بيان الرسالة شرع في أصل الحشر قائلاً:

١٢ ـ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي إنا نحن نحيي الموتى للبعث، ونكتب ما قدموا من خير وشر في دنياهم، فنحصيه وكل ما تركوه بعدهم من أثر حسن أو سيىء، فنجازيهم على ما قدّموا وما أخّروا، ويدخل في ذلك الخطى التي يخطوها الإنسان برجله إلى الخير أو الشر، فكل شيء من هذا كله أحصاه ربك في كتاب مبين ظاهر، سيجازى عليه وهو اللوح المحفوظ.

المرسلون الثلاثة وأصحاب القرية

وحين بيّن أنّ الإنذار لا ينفع من أضلّه الله وكتب عليه أنّه لا يؤمن فقال مخاطباً نبيه ﷺ:

١٣ ـ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

المعنى صف يا محمد لأهل مكة مثلاً، أي شبيهاً في الغلو والعناد والكفر مع الإصرار على تكذيب الرسل، حال أصحاب القرية، والمراد طبق حال مشركي مكة القريبة بحال أصحاب تلك القرية، إذ جاءهم المرسلون، ذكر بعض المفسرين أن القرية هي أنطاكية، وأن المرسلين إليها هم رسل عيسى عليه السلام من الحواريين والله أعلم أنه لا يستند إلى سند متين، ولكنّه من الإسرائيليات، ويرى الحافظ ابن كثير أن الذين أرسلوا إلى القرية رسل من عند الله فعلاً وليسوا من قبل المسيح، وأن القرية هي غير أنطاكية هذه، ويستدل على ذلك بظاهر القصة وسياق الآيات، ويقول بأن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، وأن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، وغير واحد من السلف، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتل المشركين قال تعالى:

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً[١].

١٤ ـ ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾.

عززنا: قوّينا الرسالة بثالث، من التعزيز وهو التقوية.

---

(١) المجلد الثالث ص ٥٦٩.

١٥ ـ ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

وهذا يدل على أنهم رسل الله، إذ لو كانوا رسل عيسى من الحواريين إلى أهل القرية لقالوا عبارة تناسبهم أنهم من عند المسيح عليه السلام، ولما قالوا لهم ﴿ما أنتم إلّا بشر مثلنا﴾.

١٦ ـ ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾.

أكّدوا الجواب وهو جار مجرى القسم، وزيد التأكيد به باللام على ما قبله لزيادة الإنكار في ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ وترى أنهم لم يسألوا بل كرروا ما ادعوه مؤكداً بأكثر من الأول حيث صوّروا دعواهم بقولهم: ربنا يعلم وهذا كالقسم، ثم التأكيد بأن واللام واسمية الجملة.

١٧ ـ ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

التبليغ المبين الظاهر بالأدلة إما الحسية أو العقلية، وما علينا شيء بعد إبلاغكم هذه الحقائق والأدلة، وفي ذلك إشارة رقيقة إلى دعواهم، دون أن يطلبوا شيئاً من حطام الدنيا فماذا كان بعد ذلك.

وحيث أكّد الرسل قولهم باليمين أكّد الكفار قولهم بالتطير:

١٨ ـ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

تطيرنا، تشاءمنا بكم، فما أصابنا من بلاء وما مسنا من سوء أو حبس عنا المطر، فإنما هو بسببكم، لئن لم تنتهوا عما تقولون لنرجمنكم بالقول الغليظ، وليمسنكم منا عذاب بالضرب والقتل، وهذا لا يحصل إلّا مع الأنبياء، فرد عليهم الرسل وهذا يدل على أنهم في وقت واحد فقالوا:

١٩ ـ ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

لا تتشاءموا بنا، ولا تتطيروا إنما طائركم معكم، أي حظكم من خير وشر معكم، ولازم في أعناقكم، وليس هو منا: أئن ذكرتم ووعظتم، وخوفتم تطيرتم وكفرتم،؟ إنّ أمركم لعجيب، بل أنتم قوم مسرفون متجاوزون الحدود في أعمالكم، فبدل النظر السليم تشاءمتم وأسرفتم.

حوار الرجل الذي جاء من أقصى المدينة

٢٠ ـ ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

المدينة والقرية بمعنى واحد، وربما كانت المدينة أكبر من القرية بدخول عدة قرى فيها كما سمى الله سبحانه وتعالى مكة أم القرى وهي مدينة تتبعها قرى عدة، والآية تدل على استجابة بعض الموم لدعوة الرسل الثلاثة، ويسعى: يعدو ويسرع في مشيته حرصاً على نصح قومه وإظهار الحق ونصرته، ومحاربة الباطل ودولته ثم قال لهم:

٢١ ـ ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

يعني الرسل.

ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحة قومه قائلاً:

٢٢ ـ ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

كأنهم ردوا عليه وقالوا له أنت ومن معك مؤمن بهم وبأنهم رسل الله، وصدقتهم في عبادة إله واحد؟

فإن قيل لم أضاف الفطرة إلى نفسه، والبعث إليهم ﴿الذي فطرني وإليه ترجعون﴾ وهو يعلم أن الله قد فطرهم جميعاً، كما يبعثهم جميعاً.

فالجواب: إن إيجاد الله تعالى نعمه يوجب الشكر، والبعث في القيامة وعيد يوجب الزجر، فكانت إضافة النعمة إلى نفسه أظهر في الشكر، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ في الزجر.

القـــراءة

﴿ومالي﴾ أسكن الياء، حمزة، وخلف، ويعقوب.

ويواصل الرجل الذي آمن كلامه وجداله مع قومه الكفار منكراً عليهم عباده الأصنام، ومبيّناً كمال التوحيد.

٢٣ ـ ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾.

أثبت ها هنا الياء في الحالين يعقوب، وورش، يعني أنه لا شفاعة لهم تدفع عني، ولا ينقذوني مما بي فلأي شيء يعبدون.

٢٤ ـ ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

إني إذ أعبد حجراً أو مخلوقاً لا ينفع ولا يضر، إني إذاً لفي ضلال مبين.

القـــراءة

﴿إنّي إذا﴾ فتح هذه الياء نافع وأبو عمرو ثم قال اسمعوا يا قومي:

٢٥ ـ ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾.

فتح هذه الياء أبو عمرو.

٢٦ ـ ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾.

٢٧ ـ ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾.

هذا يدل على أنهم عذّبوه وربما قتلوه حتى استشعر بالشهادة فقال ذلك في الآيات الثلاث السابقة، وهو في آخر حياته بالاحتضار، أو قال بعضها في الحياة وبعضها في القبر على لسان الحال.

أول الجزء الثالث والعشرون.

ثم أشار إلى كيفية إهلاك قومه بعده قائلاً:

٢٨ ـ ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾.

فلما قتلوه عجل الله لهم العذاب من بعده، أي بعد موته، والجنود هم الملائكة.

والمعنى: ما أنزلنا على قوم هذا الرجل الصالح بعد موته ملائكة من السماء بالوحي على أنبياء لهم، ولم يكن قد تسجل في اللوح المحفوظ بقضائنا وقدرنا أن ننزل ملائكة لإهلاكهم، لعلمنا السابق بحالهم واختيارهم، ولأنه قد تقرر إهلاكهم بالصيحة لا بإنزال الجند، وهذا من تحقير شأنهم، وتصغير أمرهم.

٢٩ ـ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾.

ما كانت هلكتهم إلاّ بصيحة واحدة من السماء صاح بها جبريل عليه السلام فإذا هم خامدون كالنار التي استحالت رماداً، فهلكوا.

٣٠ ـ ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

يا غماً وتندماً على العباد المكذبين وأمثالهم ما يأتيهم من رسول يهديهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم إلاّ كانوا به يستهزؤون، فاستحقوا الهلاك من رب العالمين، وهذا لسان الحال يصور حالهم بعد موتهم.
وبعيد أن ينسب ذلك القول لهم لأنهم ماتوا وهلكوا، ولا من الملائكة، لأنهم لا يستحقون من يتحسّر عليهم.
قال في تفسير الجلالين: هي شدة التألم من الصوت ونداؤها مجاز، أي هذا أوانك فاحضري.

بعض مظاهر القدرة

ثم عجب من حالهم في عدم الاعتبار بأمثالهم من الأمم الخالية فقال:

٣١ ـ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

الخطاب لكفار مكة، وهو خطاب لكل كافر على العموم، وهم القائلون للنبي محمد ﷺ ﴿لست مرسلاً﴾ والاستفهام للتقرير: أي اعلموا و﴿كم﴾ خبرية بمعنى كثيراً، والمعنى: إنا أهلكنا قبلهم كثيراً من القرون، ﴿الأمم الخالية﴾ لما كذبوا وكفروا، ألم يروا أنّهم بعد الهلاك لا يرجعون إليهم إبداً.

٣٢ ـ ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

أي: أن الأمم يحضرون يوم القيامة، فيجازون بأعمالهم، قال الإمام ابن كثير: وأن جميع الأمم الماضية والآتية، ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها، خيرها وشرها: ومعنى هذا كقوله تعالى: ﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾[1].

القــــراءة

﴿لما﴾ قرأ عاصم وحمزة وابن عامر ﴿لمّا﴾ بتشديد الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف.

ثم ذكر البرهان على الحشر وعلى التوحيد أيضاً مع تعداد النعم وتذكيرهم بها قائلاً:

٣٣ ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾.

اشتملت هذه الآية وما بعدها إلى آية (٤٤) على ثلاثة أدلة، على قدرة الله عز وجل على البعث، وعلى ما يوجب الإقرار له تعالى بوحدانيته، وإفراده بالعبادة، أولها دليل أرضي بري، والثاني دليل سماوي، والثالث دليل أرضي بحري، ثم ذكر ثلاثة أدلة أخرى على ذلك في الآيات (٦٦ ـ ٦٨) مشاهدة في جسم الإنسان وقواه، أولها الإبقاء على حاسة بصره، والثاني: الإبقاء على صورته الإنسانية، والثالث تنكيس قواه، ورده إلى أرذل عمره إذا عمّر، ثم ذكر دليلاً سابعاً في الآيات (٧١ ـ ٧٣) مشاهداً في خلق الأنعام ومنافعها، ثم ذكر دليلاً ثامناً في آية (٧٧) مشاهداً في أطوار خلق الإنسان، ثم ذكر دليلاً تاسعاً في آية (٨٠) مشاهداً في خلق الضد من ضده، فكيف مع تواتر هذه الدلائل ينكرون قدرته على أن يخلق مثلهم وهو الخلاق العليم، الذي لا يتعاظم ولا يستعصي عليه شيء في ملكوته؟

الأرض الميتة التي لا نبات فيها، ولا حركة، آية شاهدة ناطقة لهم على قدرة الله، وعلى أنه القادر على إحياء الخلائق بعد موتها، والأرض الميتة أحياها ربك بالنبات والخضرة، وأخرج منها حباً كالحنطة والذرة والشعير وغيرها، فمنه يأكلون، ويعيشون.

القــــراءة

﴿الأرض الميتة﴾ قرأ نافع ﴿الميّتة﴾ بالتشديد.

٣٤ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾.

وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب وفجر فيها من العيون ليأكلوا بعد هذا من ثمره الذي تفضّل به علينا.

٣٥ ـ ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾.

ثمر الجنات والنخيل، وليأكلوا مما عملته أيديهم من أصناف المأكولات الجافة والمحفوظة والطازجة مما نراه ونشاهده، أفلا يشكرون الله الذي سخر كل هذا ويسره لهم.

---

(١) سورة هود، الآية: ١١١.

القـــراءة

﴿وما عملته أيديهم﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وأبو بكر عن عاصم ﴿عملت﴾ بغير ﴿هاء﴾ والهاء مثبتة في مصاحف مكة والمدينة والشام، والبصرة، ومحذوفة في مصاحف أهل الكوفة، والمعنى على قراءة من حذف الهاء ليأكلوا ما ليس من صنعهم، ولكنه من فعل الحق عز وجل.

ثم نزّه الله سبحانه نفسه فقال:

٣٦ ـ ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿الأزواج كلها﴾ يعني خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض من الفواكه والحبوب وغير ذلك ﴿ومن أنفسهم﴾ وهم الذكور والإناث ﴿ومما لا يعلمون﴾ من دواب الأرض في البر والبحر وغير ذلك مما لم يقفوا على علمه.

وحين فرغ من الاستدلال بالمكان شرع في الاستدلال بالزمان فقال:

٣٧ ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾.

أي وعلامة لهم تدل على توحيدنا وقدرتنا الليل نسلخ منه النهار، أي إذهاب الضوء ومجيء الظلمة، وهي استعارة تبعية، حيث استعار السلخ لكشف الضوء من مكان الليل، ومن المعلوم أن الليل والنهار يتكونان من دوران الأرض حول نفسها فالوجه الموالي للشمس فيه نهار، والوجه الآخر في ليل وظلمة وهذه حقيقة ثابتة وكل ذلك بقدرة الله عز وجل وتدبيره.

جريان الشمس والقمر

٣٨ ـ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

الشمس ذلك الكوكب الضخم الملتهب يسبح في الفلك كما تسبح جميع الكواكب التي تسمى السيارة ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ وقد أثبت العلم أن الشمس تجري وكما أخبر الله سبحانه قبل اكتشاف العلماء لذلك بأن الشمس تجري لمستقر لها، قال ابن كثير في معنى قوله تعالى ﴿لمستقر لها﴾ قولان أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات، لأنه سقفها، والقول الثاني: إن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور، وينتهي العالم إلى غايته، وهذا هو مستقرها الزماني.

ثم ذكر أمر سير القمر فقال:

٣٩ ـ ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾.

قال المفسرون: منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً ينزلها من أول الشهر إلى آخره، فإذا صار إلى آخر منازله دق وتقوس، فعاد كالعرجون، وهو عود العذق الذي تركته الشماريخ فإذا جف وقدم يشبه الهلال،

والقديم ها هنا الذي قد أتى عليه حول، شبه القمر آخر ليلة يطلع له في دقته وتقوسه واصفراره.

٤٠ ـ ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

أي لا يصح للشمس أن تدرك القمر مسيره فتجتمع معه لأن الله سبحانه وتعالى قد حدد لكل مساره ووقته وكذلك الليل والنهار يتعاقبان من أثر حركة دوران الأرض حول نفسها، وإدارك الليل للنهار من المتناقضات العقلية، حيث القاعدة المنطقية تقول (إذا كان النهار موجوداً فالشمس طالعة) ولو غطاها السحاب، وكل من النجوم والكواكب في فلك خاص به يسبحون ويجرون.

القـــراءة

﴿القمر﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿القمر﴾ بالرفع، قال الزجاج: من قرأ بالنصب فالمعنى: وقدرنا القمر قدرناه منازل، ومن قرأ بالرفع فالمعنى: وآية لهم القمر قدّرناه، ويجوز أن يكون على الابتداء، وقدّرناه الخبر.

ولما بيّن ما هو كالضروري لوجود الإنسان من المكان والزمان وما يتبعه ويسبقه شرع في تقرير ما هو نافع لهم في أحوال.

٤١ ـ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾.

المعنى: أن الله سبحانه وتعالى حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح، فنسب الذرية إلى المخاطبين، لأنهم من جنسهم كأنه يقول: ذرية الناس، وقال الفراء: أي ذرية من هو منهم فجعلها ذرية لهم، وقد يكون المعنى امتنان الله على الناس عامة في حمل أولادهم صغاراً وكباراً في السفن المملوءة دون أن يلحقهم أذى.

القـــراءة

﴿ذريتهم﴾ قرأ نافع، وابن عامر، ﴿ذرياتهم﴾ على الجمع، وقرأ الباقون من السبعة على الإفراد.

٤٢ ـ ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾.

وخلقنا لهم من مثل السفن ما يركبون من السيارات والقطارات والطائرات وغير ذلك من السفن البخارية في البحار خلاف سفينة نوح، وما أروع هذا التعبير وما أدق تصويره.

ثم ذكر ما يؤكد كونه فاعلاً مختاراً قائلاً:

٤٣ ـ ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾.

أي لا مغيث ولا مجير لهم لأنهم في قبضتنا إن نغرقهم فلا صريخ لهم، ولا ينقذون لشيء أبداً إلّا رحمة منا.

٤٤ ـ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

هذه الآية دليل آخر على تأخير العذاب إلى الوقت المعلوم وهو يوم القيامة.

ذكر بعض أحوال الكفار

لما بيّن في الآيات المذكورة ما ينفع الناس حكى أنّهم في غاية الجهالة ونهاية الضلالة فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

وإذا قيل للكفار اتقوا ما بين أيديكم من أيام الدنيا وحوادثها الجسام واحذروا، ما هو قدامكم من الآفات والنوازل، واعتبروا بما حلّ بغيركم، واتقوا ما خلفكم من أيام الآخرة، وأهوالها ومواقفها الشداد، أو اتقوا ما يوجبهما ـ أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وحذف الجواب للعلم به مما بعده.

٤٦ ـ ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾.

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الكونية أو آية قرآنية للعبرة والعظة، إلا كانوا عنها معرضين، فدأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

ثم أشار إلى أنّهم كما يخلون بجانب التعظيم لأمر الله حيث قيل لهم اتقوا فلم يتقوا يخلون بجانب الشفقة على خلق الله فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

ذلك أن المؤمنين قالوا للكفار أنفقوا على المسكين النصيب الذي زعمتم أنه لله من الحرث والأنعام.
﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ فقالوا ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ والحرث هو الزرع.
وهذا القول منهم استهزاء وتهكماً رداً على المؤمنين الذين يعلقون الأفعال التي تقع على الإنسان في الدائرة التي تسيطر عليه، بمشيئة الله فيقولون لو شاء الله لأغنى فلاناً ولأعطى فلاناً، وهذه حجة واهية، فالله قد ابتلى قوماً بالفقر، وقوماً بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالعطاء والشكر.
ويرد الحق عليهم، ما أنتم أيها المشركون إلاّ في ضلال مبين، حيث تفهمون هذا الفهم العقيم وتقولون:

٤٨ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

يقولون استهزاء وتكذيباً متى يكون البعث الذي تقولونه؟ فأجابهم الله تعالى بقوله:

٤٩ ـ ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾.

هي النفخة الأولى التي يموت بها أهل الأرض، ويخصمون، بمعنى يختصمون فأدغمت التاء في الصاد والمعنى أن الساعة تأتيهم أغفل ما كانوا عنها أو هم متشاغلون بتصرفاتهم، وبيعهم وشرائهم، يتخاصمون ويتنازعون فيما انهمكوا فيه من شؤون الدنيا غافلين عن الآخرة.

القـــراءة

﴿يخصمون﴾ بفتح الياء وكسر الخاء والصاد مشددة، وهي قراءة عاصم، وابن عامر، والكسائي.

قرأ نافع بسكون الخاء وتشديد الصاد ﴿يخصمون﴾.

وقرأ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد ﴿يخصمون﴾ أي يخصم بعضهم بعضاً.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد: ﴿يخصمون﴾.

ثم بالغ في شدة الأخذ بقوله:

٥٠ ـ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

فالناس وقتها لا يستطيعون وصية في أمر من أمورهم إلى أهلهم، ولا هم يستطيعون الرجوع لهم في منازلهم بل تبغتهم على حين غفلة منهم.

ثم بيّن حال النفخة الثانية فقال:

٥١ ـ ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾.

ونفخ في الصور نفخة ثانية فإذا هم قيام من قبورهم خارجون منها بسرعة إلى ربهم ليوفّيهم حسابهم، والصور آلة النفخ معروف اسمه مجهول كيفيته، والأجداث هي القبور بلغة هذيل، وينسلون، يخرجون مسرعين.

فلما رأوا أهوال يوم القيامة قالوا:

٥٢ ـ ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

ينامون نومة قبل البعث بين النفختين، فإذا بعثوا ظنوا لاختلاط عقولهم بما شاهدوا من الهول، وما داخلهم من الفزع، أنهم كانوا نياماً، فقالوا ذلك وهم يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها أي يا هلاكنا احضر، ولكنهم أجيبوا، هذا الذي وعدكم به الرحمن وقد صدق المرسلون فيما قالوا عنه.

ثم عظم شأن الصيحة بالنسبة إلى المكلفين وصغر أمرها بالإضافة إلى الجبار قائلاً:

٥٣ ـ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾.

أي ما كانت النفخة التي نفخها إسرافيل في البوق إلّا صيحة واحدة لا أكثر ولا أقل، وما كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم مجموعون لدينا محضرون لفصل الحساب.

القـــراءة

﴿صيحة﴾ قرأ أبو جعفر بالرفع فيهن، باعتبار أن ﴿كان﴾ تامة و ﴿صيحة﴾ فاعل، أي ما كانت هي أي الأخذة إلا صيحة واحدة.

ثم بيّن ما يكون في ذلك اليوم قائلاً:

٥٤ ـ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ أي لا ينقص من له حق شيئاً من حقه من الثواب، ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ فيه إشارة إلى عدم الزيادة فإن الشيء لا يزيد على عينه.

أصحاب الجنة وأصحاب النار

ثم فصّل حال المحسنين بطريق الحكاية في ذلك اليوم تصويراً للموعود وترغيباً فيه فقال:

٥٥ ـ ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾.

أي في الآخرة، وشغلهم نعيمهم عما فيه أهل النار من العذاب، بينما ينعمون بما آتاهم ربهم من التنعم والتلذذ بالحور العين وغيره، وفاكهون معناها: ناعمون، والفكه التنعم.

القـــراءة

﴿شغل﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو ﴿شُغْل﴾ بضم الشين، وإسكان الغين، ﴿فاكهون﴾ قرأ أبو جعفر ﴿فاكهون﴾ بفتح الفاء وكسر الكاف، والفكه، الذي يتفكه، تقول العرب للرجل إذا كان يتفكه بالطعام، أو الفاكهة أو بأعراض الناس: إن فلاناً يفكه بكذا، ومنه يقال للمزاح: فكاهة، قال الفراء، فاكهون وفكهين بمعنى واحد.

٥٦ ـ ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾.

الأزواج يعني الحلائل التي أباحها الله في الجنة لأصحابها، من حور العين كما ذكر الله في غير هذه الآية ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهؤلاء الزوجات ينشئهن الله إنشاءً عرباً أتراباً، كما ينشىء مخلوقات الجنة من غير ولادة، كأنهن بيض مكنون، مطهرات من عيوب نساء الدنيا، فلا حيض ولا نفاس، ولا دمامة ولا سوء خلق، لأن أهل الجنة نزع من صدورهم الغل، ﴿إخواناً على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصب، وما هم منها بمخرجين﴾، والظل: جمع ظلة، والظلال، أكنان القصور: والمعنى أنهم لا تصيبهم الشمس، والأرائك جمع أريكة، وهو السرير.

القـــراءة

﴿ظلال﴾ قرأ حمزة، والكسائي، ﴿في ظلل﴾ بغير ألف وضم الظاء، وقرأ الباقون ﴿في ظلال﴾ بالألف.

٥٧ ـ ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾.

المراد بالفاكهة كل نوع من أنواعها ﴿كلما رزقوا فيها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾[1] ولهم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

كذلك ما يدعون أي يتمنون، ومنه يقول الناس: هو في خير ما ادعى، أي ما تمنى، والمعنى: كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

٥٨ ـ ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾.

سلام يقال لهم، وهذا السلام بواسطة الملائكة، أو من الله مباشرة، مبالغة في تعظيمهم وزيادة في إكرامهم والحفاوة بهم، وقولاً منصوب على معنى: سلام يقوله الله قولاً، وسلام رفع على ﴿لهم﴾ فالمعنى: لهم سلام.

٥٩ ـ ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾.

أي انقطعوا عن المؤمنين، وتميزوا منهم يقال، مزت الشيء عن الشيء: إذا عزلته عنه، وهو بلغة قريش، وذلك حين يحشر الناس يوم القيامة ويذهب بالمؤمنين إلى الجنة، ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وأما الفريق الثاني فيقال لهم تأنيباً وتوبيخاً على ما مضى من أعمالهم ما يأتي في الآية التالية:

٦٠ ـ ﴿ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾.

وعهد الله إلى بني آدم هو أمره لهم، ووصيته لهم على لسان رسله، وما ركب فيهم من القوى العاقلة والفطر السليمة التي تميز بين الخير والشر، وعبادة الشيطان هي إطاعته والانقياد له.

٦١ ـ ﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾.

القــــراءة

﴿وأن اعبدوني﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي بضم النون ﴿وأن اعبدوني﴾.

ثم بيّن لهم عداوة الشيطان بقوله:

٦٢ ـ ﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴾.

ولقد أضلّ منكم الشيطان خلقاً كثيراً، أفعميتم فلم تكونوا تعقلون.

القــــراءة

﴿جبلاً﴾ قرأ ابن كثير، وحمزة والكسائي، وخلف: بضم الجيم، والباء وتخفيف اللام ﴿جُبُلاً﴾ جمع جبيل مثل فتيل من مفتول، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر ﴿جُبْلاً﴾ بضم الجيم وتسكين الباء وتخفيف اللام.

ثم أشار إلى محل امتياز المجرمين إليه بقوله:

٦٣ ـ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾.

هذه جهنم والإشارة لها لتميزها وظهور آثارها الشديدة، وهذه جهنم التي كنتم توعدون في الدنيا، ويقال

لهم كذلك اصلوها، ادخلوها وقاسوا حرها جزاء لكم بما كنتم تكفرون.

٦٤ ـ ﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

٦٥ ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

الختم في الآية هنا حسي يوم القيامة، ومعناه من الكلام، وذلك ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعواناً لهم في الدنيا على المعاصي، صارت شهوداً عليهم، وإقرار الجوارح أبلغ في الإقرار من نطق اللسان، والحكمة في تسمية نطق اليد كلاماً، ونطق الرجل شهادة، أنّ اليد تباشر والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما فعل.

فضل الله على الناس كبير

٦٦ ـ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾.

لو نشاء أذهبنا أعينهم وجعلناها بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن، فتركناهم عمياً يترددون لا يستطيعون السير في الطرق الواضحة المألوفة لهم، وذلك بيان لأنهم في قبضة القدرة، ومستحقون للعذاب لكفرهم وإنكارهم، أي في قدرتنا إذا شئنا جزاء لهم على جناياتهم، لكن فضلاً من الله وإحساناً أبقى عليهم نعمة البصر فحق الناس أن يشكروه ولا يكفروه.

٦٧ ـ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾.

وفي قدرتنا إذا شئنا عقاباً لهم على ضلالهم أن نغير الصور الإنسانية إلى صور حيوانية قبيحة أو غيرها وهم في أماكنهم فلا يقدرون على الفرار منا بإقبال أو إدبار، ولكنا لم نفعل ذلك جرياً على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم.

القــــراءة

﴿على مكانتهم﴾ روى أبو بكر عن عاصم ﴿على مكاناتهم﴾.

وحين قطع الأعذار بسبق الإنذار وذلك في قوله: ألم أعهد إليكم شرع في قطع عذر آخر للكافر فقال:

٦٨ ـ ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾.

من نطل عمره نغيّر خلقه، ونجعله على عكس ما كان عليه أولاً من القوة والطراوة، فصار بدل القوة الضعف، وبدل الشباب الهرم، فنرده إلى أرذل العمر.

أفلا يعقلون أن من فعل هذا قادر على البعث؟.

القـــراءة

﴿ننكسه﴾ قرأ حمزة وعاصم بضم النون الأولى وتشديد الكاف، ﴿ننكسه﴾، وقرأ الباقون مخففاً بضم النون الأولى وإسكان الثانية ﴿ننكسه﴾ وهي لغتان ﴿أفلا يعقلون﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو، بالتاء ﴿أفلا تعقلون﴾ والباقون بالياء.

إثبات الوحدانية لله مع نفي الشعر عن رسوله ﷺ

وحين بيّن أصل الوحدانية والحشر في هذه السورة مرات أقربها قوله أن اعبدوني وقوله هذه جهنم إلى آخرها عاد إلى أصل الرسالة بقوله:

٦٩ ـ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

قال المفسرون إن كفار مكة قالوا: إن هذا القرآن شعر، وإنّ محمداً شاعر، فنفى الله سبحانه كون القرآن شعراً، ثم نفى أن يكون النبي شاعراً فقال ﴿وما ينبغي له﴾ أي لا يصلح له الشعر، ولا يتأتى منه، ولا يسهل عليه قوله لو طلبه، وما كان يتزن له بيت شعر، وذلك لأن الشعر شعور داخلي في طبيعة الإنسان.

الشعر يعنى بالخيال والعاطفة، ولا يتحرّى الشاعر في كلامه غالباً الصدق والواقع، بل تراه كما وصفه الله في القرآن ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾[1].

وما القرآن إلّا موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمتقين، فيه جلاء القلوب.

ثم بيّن كون القرآن منزلاً على هذا الوجه بقوله:

٧٠ ـ ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

لينذر من كان حياً من الناس في عقولهم وتفكيرهم وأرواحهم، أما الأموات فأنى يسمعون؟. وكيف يبصرون ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾[2].
وتجب كلمة العذاب بالحجة على المصرين على الكفر.

القـــراءة

﴿لينذر﴾ قرأ نافع وابن عامر، ويعقوب، بالتاء ﴿لتنذر﴾ يعني النبي محمداً ﷺ.

ثم عاد إلى تقرير دلائل الوحدانية مع تعداد النعم فقال:

٧١ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤ و٢٢٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٨٠.

أي أو لم يعلموا بالتفكر والاعتبار أنا خلقنا لأجلهم مما أبدعنا وعملناه من غير واسطة، البقر والغنم والإبل، قادرون على ضبطها وتسخيرها، وهذا دليل آخر من أدلة القدرة وتنديد بالمشركين.

ثم فصّل بعض منافعها بقوله:

٧٢ ـ ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾.

أي جعلناها لهم مسخرة لا تمتنع عما يريدون منها من منافعهم، حتى الذبح والأكل، ويقودها الصبي فتنقاد له، ويزجرها فتنزجر، وهي على عظم جسمها وقوة بدنها.

٧٣ ـ ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾.

لهم فيها منافع أخرى كالأصواف والأوبار والجلود، وغير ذلك مما يحصل من ألبانها أفلا يشكرون رب هذه النعمة فيوحّدونه؟ ثم ذكر جهلهم فقال:

٧٤ ـ ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

اتخذ الكفار من دون الله آلهة أصناماً راجين منها النصرة آملين منها المنفعة، ما علموا أنهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً، وأنهم لا ينصرون أحداً، ولا يمنعونه من عذاب الله، ثم أخبر أن ذلك لا يكون بقوله:

٧٥ ـ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾.

أي لا تقدر الأصنام على منعهم من أمر أراده الله بهم، والكفار جند للأصنام محضرون، أي يحضرونهم في الدنيا ينتصرون للأصنام.

ثم عقب دليل التوحيد بالرسالة مسلياً رسوله بقوله:

٧٦ ـ ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

يعني قول الكفار في تكذيب النبي محمد ﷺ، فإنّ الله يعلم ما في ضمائرهم من تكذيبك، وما يعلنون بألسنتهم من ذلك، والمعنى: إنا نثيبك ونجازيهم.

إثبات البعث

ثم أردف الرسالة بالحشر فقال:

٧٧ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي ألم ير الإنسان أنا خلقناه من أضعف الأشياء ففاجأ خصومتنا في أمر قد قامت فيه عليه حجج الله وبراهينه، و﴿خصيم مبين﴾، مبالغ في الخصومة والجدل الباطل.

٧٨ ـ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾.

أي وضرب لنا ذلك الإنسان الخصيم المنكر للبعث مثلاً، أي أورد في شأننا قصة هي كالمثل في الغرابة، وهي إنكار إحيائنا العظام، وقد نسي خلقنا إياه من نطفة، وتقليبه في أطوار شتى حتى صار إنساناً سوياً و ﴿رميم﴾ أي بالية أشد البلى، فقاس هذا الكافر قدرة الله تعالى بقدرة الخلق، فأنكر إحياء العظم البالي لأن ذلك ليس في مقدور الخلق.

٧٩ ـ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

٨٠ ـ ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

هناك شجر أخضر ندي يسمى المرخ والقفار، وهما نبتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما شرارة، والآية تفيد بأن الله سبحانه يسر لنا الانتفاع بالحطب، نحرقه للطبخ والدفء وغيره، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال:

٨١ ـ ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

هذا استفهام تقرير، والمعنى: من قدر على ذلك العظيم، قدر على هذا اليسير، ثم أجاب الاستفهام بقوله ﴿بلى﴾ وهو الخلاق العظيم.

٨٢ ـ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

القــــراءة

﴿فيكون﴾ قرأ الكسائي وابن عامر بالنصب ﴿فيكونَ﴾.

ثم ختم السورة بتقرير المبدأ والمعاد على الإجمال فقال:

٨٣ ـ ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.



سورة الصافات سميت لورود كلمة الصافات في أول السورة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنّه سبحانه بدأ في أول هذه السورة بالتوحيد كما ختم السورة المتقدمة بذكر المعاد فقال:

١ ـ ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾.

أقسم الله تعالى بجماعات وطوائف من خلقه، تنويهاً بعظم شأن المُقْسم به، فأقسم بالملائكة الصافات أنفسها في العبادة، والصافات أجنحتها في الهواء انتظاراً لأمر الله.

٢ ـ ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾.

الملائكة التي تزجر ما نيط بها من الأجرام السماوية العلوية والسفلية وغيرها على وجه يتناسب بالمزجور وقد يشمل ذلك الملائكة التي تنزل بالوحي على الأنبياء.

٣ ـ ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾.

الملائكة تتلو كتب الله تعالى على الناس للتعليم، ولا تدافع بين هذه الصافات، فقد يجتمع كلها في جماعة واحدة صفاً وزجراً وذكراً.

٤ ـ ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾.

هذا هو جواب القسم بأنه واحد ليس له شريك، وإثبات المطالب المهمة بتقديم القسم طريقة مألوفة عند العرب، وقد عقبه بالدليل اليقيني على وحدانيته تعالى فقال:

٥ ـ ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾.

أي خالقهما ومدبرهما، وما بينهما من سائر الأجناس من الحيوان والنبات، ومشارق الشمس: أي مطالعها، وجودها وبقاؤها على هذا النمط البديع، من أظهر الأدلة على وحدانيته تعالى، إذ أنها في كل بلاد تشرق من مشرق، وتغرب في مغرب، واكتفى بذكرها عن المغارب لاستلزامها إياها ودلالتها عليه، وقد صرّح

بذلك بقوله عز وجل ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾[١] وقال تعالى: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾[٢].

٦ ـ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾.

يعني بالسماء الدنيا التي هي أقرب السماوات إلينا، وإنما خصَّها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة، وزينة الكواكب حسنها وضوؤها، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

القـــراءة

﴿بزينةٍ﴾ بالتنوين، هذه قراءة حمزة وحفص وعاصم، فجعل الكواكب هي الزينة أي بدلاً منها.
وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿بزينة الكواكب﴾ نصب الكواكب على أنها مفعول بها للزينة، والمعنى أنا زينا الكواكب فيها.
وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي ﴿بزينةِ الكواكب﴾ مضافاً.

٧ ـ ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾.

أي وحفظنا السماء حفظاً من كل شيطان متجرد عن الخير بخروجه عن طاعة الله تعالى، والمارد والمريد بمعنى واحد، والمعنى: وحفظناها من دنو كل شيطان للاستماع، فإنهم كانوا يسترقون السمع ويستمعون إلى كلام الملائكة، ويكلون ذلك إلى ضعفة الجن، وكانوا يوسوسون بها في قلوب الكهنة، ويوهمونهم أنهم يعرفون الغيب، فمنعهم الله تعالى عن ذلك.

٨ ـ ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾.

أي لكيلا يتسمعوا إلى المـلأ الأعلى، وهم الملائكة الذين في السماء، ويرجمون بالشهب من كل جانب السماء إذا حاولوا الصعود إليها لاستراق السمع.

٩ ـ ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.

يقال دحرته دحراً، أو دحوراً إذا دفعته، والواصب هو العذاب يوم القيامة الدائم.

القـــراءة

﴿لا يسَّمعون﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم والكسائي بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف.

١٠ ـ ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾.

(١) سورة المعارج، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٧.

يخطف الواحد منهم خطفة مما يدور بين الملائكة مما سيكون في العالم قبل أن يعلمه أهل الأرض فيلحقه ويصيبه نار مضيئة تحرقه، والثاقب المنير المضيء كأنّه يثقب الجو بضوئه، والخطف: الاختلاس والأخذ بخفة وسرعة على غفلة.

١١ ـ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴾.

أي اسأل الكفار المنكرين للبعث سؤال تقرير أهم أحكم صنعة، أم من خلقنا قبلهم من الأمم الماضية والقرون السالفة، وقد أهلكناهم بالعذاب، وغلب ما يعقل على ما لا يعقل ﴿بمن﴾، واللازب: اللزج الذي يلصق باليد، والمعنى: كيف يستبعدون المعاد وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف؟ ولم ينكره من هو مخلوق خلقاً أقوى منهم وأعظم وأكمل وأتم.

ثم بيّن أنّهم مع قيام الحجج الضرورية عليهم مصرون على الإنكار فقال:

١٢ ـ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾.

بل عجبت يا محمد من قدرة الله سبحانه، ويسخرون منك بما تقوله من إثبات المعاد.

القـــراءة

﴿عجبت﴾ قرأ حمزة، والكسائي والأعمش، بضم التاء ﴿بل عجبتُ﴾ على الخبر من الله عز وجل، وقرأ الباقون بفتح التاء.

ثم حكى عنهم أنه كما أن دأبهم السخرية عند إيراد البراهين فكذلك دأبهم أنّهم إذا وعظوا لا يتعظون فقال:

١٣ ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾.

أي وإذا وعظوا بموعظة من مواعظ رسوله لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيها.

١٤ ـ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾.

إذا رأوا حجة من حجج الله عليهم ودلالة على نبوة نبيه محمد ﷺ يستخسرون يسخرون ويستهزؤون ويقولون.

١٥ ـ ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

١٦ ـ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

١٧ ـ ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

هذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف، والمعنى: أو يبعث آباؤنا الذين تقدمونا بهذه الصفة بعد ما صاروا تراباً؟ يعنون أن ذلك لا يكون.

القـــــراءة

﴿أو آباؤنا﴾ قرأ نافع وابن عامر، بإسكان الواو ﴿أو آباؤنا﴾ وقرأ الباقون بفتح الواو ثم قال سبحانه لنبيه:

١٨ ـ ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾.

أي نعم تبعثون، وأنتم صاغرون ذليلون، ثم ذكر أن بعثهم يقع بزجرة واحدة فقال:

١٩ ـ ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

أي فإنما قصة البعث صيحة واحدة من إسرافيل، وهي نفخة البعث، وسميت زجرة، لأن مقصودها الزجر، ﴿فإذا هم ينظرون﴾ إلى البعث الذي كذبوه، أو هم أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله.

٢٠ ـ ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾.

سيقول المكذبون إذا عاينوا البعث الذي كانوا يكذبون به في الدنيا يا ويلنا، دعوا بالويل على أنفسهم، وهي كلمة يقولها القائل عند الوقوع في الهلكة، ومثله يا حسرتنا.

ويوم الدين هو يوم الحساب، والجزاء، والمراد أنهم اعترفوا بالحق خاضعين نادمين.

٢١ ـ ﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾.

تقول لهم الملائكة هذا يوم الفصل أي يوم القضاء الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء ويقول الله عز وجل يومئذ للملائكة.

من مواقف المشركين يوم القيامة

٢٢ ـ ﴿ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾.

هو أمر من الله سبحانه للملائكة يوم القيامة بأن يحشروا المشركين، وأزواجهم في الدنيا سواء من نسائهم اللاتي على شاكلتهم، أو من كان على شاكلتهم من قرنائهم، يحشر صاحب الربا مع صاحب الربا، وصاحب الزنا مع صاحب الزنا، وصاحب الخمر مع صاحب الخمر.

٢٣ ـ ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾.

اهدوهم: أي دلوهم على طريقها؟ والمعنى: اذهبوا بهم إليها، وهذه هداية إلى المعاد.

٢٤ ـ ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

احبسوهم في الموقف، والسؤال عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا ومنها عما كانوا يعبدون.

٢٥ ـ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾.

أي يقال لهم توبيخاً: ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا؟

٢٦ ـ ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾.

أي بعجزهم عن الحيلة، والمستسلم: المنقاد الذليل، والمعنى: أنهم منقادون لا حيلة لهم.

٢٧ ـ ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

الأتباع والرؤساء، يسأل بعضهم بعضاً سؤال تقريع ومخاصمة وتأنيب ولوم، فيقول الأتباع للرؤساء لم غررتمونا؟ ويقول الرؤساء: لم قبلتم منا؟.

٢٨ ـ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾.

أي يقول الكفار لغواتهم إنكم كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة، ولذلك أقررنا لكم، والعرب تتيمن بما جاء من اليمين، والمعنى كنتم تأتوننا من الجهة التي نحبها ونثق فيها ومن جملتها الدين، وقد أجابهم الرؤساء بخمسة أجوبة في الآيات التالية.

٢٩ ـ ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

قال الرؤساء المتبوعون للضعفاء، أي كنتم من الأصل على الكفر، أي ليس الأمر كما قلتم.

٣٠ ـ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴾.

أي ما كان لنا عليكم من قوة نقهركم بها، ونكرهكم على متابعتنا، وطاغين: خارجين عن الحق.

٣١ ـ ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾.

أي وجب علينا وعليكم، ولزمنا قول ربنا بأنا لا نؤمن على الكفر، أو وجب علينا العذاب الذي نستحقه على الكفر والإغواء.

٣٢ ـ ﴿ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴾.

أي أضللناكم عن الهدى بدعائكم إلى ما نحن عليه وهو قوله: ﴿إنا كنا غاوين﴾ ثم أخبر عن الأتباع والمتبوعين بقوله:

٣٣ ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

٣٤ ـ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

أي كما نفعل بهؤلاء كذلك نفعل بالمجرمين، وسواء أكانوا مشركين أو غيرهم، ثم بين سبحانه أنه فعل

ذلك بهم من أجل استكبارهم فقال:

٣٥ ـ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

٣٦ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾.

أي يتعاظمون ويتعالون عن قول لا إله إلّا الله، ويقولون أنترك عبادة آلهتنا لشاعر، أي لاتباع شاعر؟ يعنون النبي محمداً ﷺ، فرد الله عليهم فقال:

٣٧ ـ ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

أي ليس بشاعر ولا مجنون، ولكنه أتى بما تقبله العقول من الدين والحق والكتاب المشتمل على التوحيد، والوعد والوعيد، وصدق المرسلين فيما جاؤوا به من التوحيد والوعيد، وإثبات الدار الآخرة، ولم يخلفهم في العقيدة، ولا جاء بشيء لم تأت به الرسل قبله، ثم خاطب الله سبحانه المشركين بما بعد فقال:

٣٨ ـ ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾.

ثم كان لقائل أن يقول كيف يليق بالرحيم الكريم أن يعذّب عبيده فقال:

٣٩ ـ ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

أي على قدر أعمالكم، ثم استثنى من جملة المخاطبين المعذّبين فقال:

٤٠ ـ ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

يعني الموحدين، قال أبو عبيدة: والعرب تقول إنّكم لذاهبون إلا زيداً، والمعنى: إنا لا نؤاخذهم بسوء أعمالهم، بل نغفر لهم فلا يذوقون العذاب، وإنما ينالون الثواب، ثم بين سبحانه ما أعده لعباده المخلصين من أنواع النعم فقال:

٤١ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾.

ثم فسر ذلك الرزق بقوله:

٤٢ ـ ﴿ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾.

وحين ذكر مأكولهم وصف مسكنهم وهيئة جلوسهم فقال:

٤٣ ـ ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

الرزق في الجنة، معلوم في حسنه وطيبه، وعدم انقطاعه، يحصلون عليه في الغداة والعشي، ثم بين

سبحانه الرزق بأنه فواكه، وهي جمع فاكهة، وهي الثمار كلها رطبها ويابسها، وهم مكرمون بما أعطاهم الله من رفع الدرجات، وسماع كلامه ولقائه في الجنة.

٤٤ ـ ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾.

جمع سرير.

ثم وصف مشروبهم فقال:

٤٦ ـ ﴿ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

٤٥ ـ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾.

ثم بين أن خمر الجنة لا تغتال العقول فقال:

٤٧ ـ ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾.

الكأس، الإناء بما فيه، والمعنى: الماء الطاهر الجاري، والمراد به الخمر جارية في أنهار ظاهرة العيون تجري على وجه الأرض، ويقدم لهم ليشربوا منه، ثم وصف الخمر بأنها بيضاء في نهاية الرقة، ولونها ليس فيها ما يعتري خمر الدنيا من المرارة والكراهة، يقال شراب لذاذ: إذا كان طيباً، قال ابن كثير طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا، التي تأتي بالصّداع ووجع البطن، وليس فيها غول: أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها، ويقال للوجع غول لأنه يؤدي إلى الهلاك، وينزفون بفتح الزاي لا تذهب عقولهم، يقال للسكران نزيف.

القــــراءة

﴿ينزفون﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي ﴿ينزفون﴾ وقرأ الباقون بالفتح.

وصف نساء الجنة

ثم وصف منكوحهم بقوله:

٤٨ ـ ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾.

النساء قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم، وعين: واسعات العيون حسانها.

٤٩ ـ ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾.

شبههن ببيض النعام تكنها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونه أبيض في صفرة، والعرب تشبه المرأة

الحسناء في بياضها وحسن لونها ببيضة النعامة، وهو أحسن ألوان النساء، وهو أن تكون المرأة بيضاء مشربة بصفرة.

٥٠ ـ ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

قال ابن كثير: يخبر الله سبحانه عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون منها، وذلك في حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٥١ ـ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾.

٥٢ ـ ﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾.

٥٣ ـ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾.

والمعنى: كان لي صاحب في الدنيا ينكر البعث، ويقول أئنك لمن المصدقين بالبعث بعد الممات بعد أن نكون تراباً وعظاماً وتفنى أجسادنا، ومدينون معناها مجزيون بأعمالنا، ومحاسبون بها؟.

فأحب المؤمن أن يرى قرينه الكافر لأهل الجنة:

٥٤ ـ ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾.

هل أنتم مطلعون على موضع من الجنة يرى منه هذا القرين، والمعنى: هل تؤثرون أن تروا مكان هذا القرين في النار، وفي الكلام حذف، أي فيقولون نعم اطلع أنت.

٥٥ ـ ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

٥٦ ـ ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾.

رأى صاحبه في وسط الجحيم، وإنما سمي الوسط سواء، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب، فعند ذلك قال له حالفاً بالله على وجه التعجب، إنك كدت تهلكني بما قلته لي، ودعوتني إليه في الدنيا، حتى يكون هلاكي كهلاك المتردي من شاهق، ومنه قوله تعالى ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾[1] في النار.

ثم شكر الله تعالى على أن وفقه لنعمة الإسلام وأرشده إلى الحق وعصمه عن الباطل فقال:

٥٧ ـ ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾.

---

(١) سورة الليل، الآية: ١١.

أي لولا إنعامه عليّ بالإسلام لكنت من المحضرين معك في النار، ثم عاد إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة فقال:

٥٨ ـ ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾.

٥٩ ـ ﴿ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

كان ذلك على وجه إظهار السرور بدوام نعيم الجنة، وهذا كما أنّ الرجل يعطي المال الكثير فيقول من الفرحة متعجباً: كل هذا لي، وهو يعلم أنّ ذلك له، فيقال لهم لا، فعند ذلك قالوا:

٦٠ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

ثم قال سبحانه في تمام الحكاية عن قول أهل الجنة.

٦١ ـ ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾.

يعني النعيم الذي ذكره في قوله ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ وهذا ترغيب في طلب ثواب الله عز وجل بطاعته، قال ابن جرير الطبري (لمثل هذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون، ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم).

وهذه هي جهنم مأوى الظالمين

لما تمم قصة المؤمن رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فاستفهم قائلاً:

٦٢ ـ ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾.

يشير إلى ما وصف لأهل الجنة، من الكرامة والضيافة نزلاً رزقاً، ويقال أقمت للقوم نزلهم أي ما يصلح أن ينزلوا عليه من الغذاء، والمعنى: أذلك المأكل والمشرب والمنكح والمقام الأمين في جنات وعيون خير نزلاً، أم نزل أهل النار؟ وهو قوله: ﴿أم شجرة الزقوم﴾ وهي في النار.

٦٣ ـ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴾.

امتحاناً في الدنيا وعذاباً في الآخرة.

٦٤ ـ ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾.

٦٥ ـ ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾.

٦٦ ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾.

أصل الجحيم، قعر النار، أما طلعها: فهو ثمرها، وسمي طلعاً لطلوعه كأنه رؤوس الشياطين، فإن قيل كيف شبهها بشيء لم يشاهد، حيث شبه المحسوس بالمتخيل، إنه للدلالة على أنه غاية في القبح، بما استقر في النفوس، ولو كان غير مرئي بالبصر، وهم يكرهون على الأكل من هذه الشجرة في النار حتى تمتلىء بطونهم، فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة.

٦٧ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾.

ثم إنَّ لهم عليها زيادة على شجرة الزقوم لشوباً من حميم، أي خليطاً ومزيجاً من ماء حار يمزج ذلك الطعام بهذا الشراب.

٦٨ ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾.

أي بعد أكل الزقوم، وشرب الحميم الذي يوردون إليه، وذلك أنَّ الحميم خارج من الجحيم، فهم يوردونه كما تورد الإبل الماء، ثم يردون إلى الجحيم مرة ثانية.

٦٩ ـ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾.

ثم بيّن أن سبب وقوعهم في أصناف العذاب المذكور هو التقليد والإسراع الشديد فقال:

٧٠ ـ ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾.

أي إنَّ هؤلاء الكفار صادفوا آباءهم ذاهبين عن الحق والدين، فهم في الضلال يقلدونهم ويهرعون في ذلك، أي يتبعونهم اتباعاً في سرعته.

ثم أراد تسلية النبي ﷺ إجمالاً بقوله:

٧١ ـ ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

٧٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾.

٧٣ ـ ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾.

لقد علل القرآن استحقاقهم ما ذكر بتقليد الآباء في الدين من غير أن يكون لهم وجه حق، إذْ قلدوهم في الباطل بدون دليل أو حجة، وكان لهم الاختيار والعقل المميز، وكان آباؤهم في ضلال مبين، فهم على آثارهم يهرعون، ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين من الأمم السابقة، ولقد أرسلنا فيهم أنبياء ورسلاً منذرين، أنذروهم سوء العاقبة، وحذّروهم من التقليد الأعمى، فانظر أيها العاقل كيف كان عاقبة المنذرين؟ فلقد أهلكوا إهلاكاً تاماً لما كفروا وكذبوا ولما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً عليه السلام وما لقي من قومه من التكذيب، وأنهم لم يؤمن منهم إلا القليل فقال:

٧٤ ـ ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

لكن عباد الله المخلصين الذين أخلصهم الله له باختيارهم الخير وتركهم للشر باختيارهم الإيمان والتوحيد، هم على صراط مستقيم، ولهم من جزاء الخلد بما كانوا يعملون.

من قصة نوح

ثم سلّاه بوقائع الأمم الخالية تفصيلاً وقدّم قصة نوح عليه السلام لكونه أباً ثانياً للبشر فقال:

٧٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾.

دعا نوح ربه مستنصراً على قومه بعدما يئس من إيمان قومه، وذلك قوله ﴿أني مغلوب فانتصر﴾[1] ﴿فلنعم المجيبون﴾ نحن لنوح في دعائه أجبناه لما سأل، وخلصناه من أذى قومه بإهلاكهم.

٧٦ ـ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

نجى الله نوحاً وأهله ومن كان معه من المؤمنين في السفينة فيدخل في أهله على التغليب كل من آمن به، والكرب العظيم، هو الغرق.

٧٧ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾.

وذلك أن نسل أهل السفينة انقرضوا غير نسل ولده فالناس كلهم من ولد نوح، وكان له ثلاثة أولاد: سام وهو أبو العرب والفرس، وحام وهو أبو السودان، ويافث وهو أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وغيرهم.

٧٨ ـ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾.

أي تركنا عليه ذكراً جميلاً في الآخرين الذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة حيث يقولون.

٧٩ ـ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فسر التّسليم بقوله، سلام على نوح، وهذا هو السّلام المراد بقوله ﴿اهبط بسلام منا وبركات عليك﴾.

٨٠ ـ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

٨١ ـ ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٨٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٠.

من قصة إبراهيم

٨٣ ـ ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴾.

أي من أهل دينه وملته في اتباع منهاجه وسنته في التوحيد.

٨٤ ـ ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾.

القلب السليم: المخلص من الشرك والشك، الناصح لله في خلقه.

٨٥ ـ ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴾.

ثم وبخهم على ذلك بقوله:

٨٦ ـ ﴿ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾.

أتريدون آلهة من دون الله للإفك، والإفك: أسوأ الكذب، وبسؤاله لهم سؤال استفهام وتوبيخ، كأنه يوبخهم على عبادة غير الله.

٨٧ ـ ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

إذا لقيتم الله عز وجل يوم القيامة ـ وقد عبدتم غيره ـ ما ترونه يصنع بكم؟.

٨٨ ـ ﴿ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴾.

٨٩ ـ ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴾.

كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بذلك، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم لتلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، وأراد أن يتخلف عنهم، فأوهمهم أنه علم من النجوم موعد سقمه، فقال عن ذلك إني سقيم فتركوه ظناً منهم أن نجمه يدل على سقمه، قال ابن كثير: «إنما قال إبراهيم عليه السلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه».

٩٠ ـ ﴿ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴾.

٩١ ـ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾.

٩٢ ـ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾.

٩٣ ـ ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾.

لما تركوه وذهبوا إلى عيدهم على أنه مريض، راغ إلى أصنامهم أي مال إليها، وقال استهزاء بها ﴿ألا تأكلون﴾؟ وكانوا قد جعلوا بين يديها طعاماً لتبارك فيه على حد زعمهم، وإنما ضربهم باليمن لأنها أشدّ وأنكى.

٩٤ ـ ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾.

لما علم الكفار ما عمل بآلهتهم أقبلوا إليه مسرعين، وقرأ حمزة، بضم الياء، فيكون المعنى: يحملون غيرهم على الزفيف ﴿يُزفون﴾.

أفعال العباد

وحين عاتبوه على فعله أراد أن يبين لهم فساد طريقتهم فقال:

٩٥ ـ ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾.

٩٦ ـ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

أي تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها بأيديكم، فهو استفهام إنكاري يوجهه إبراهيم إلى قومه، منكراً عليهم عبادة أصنام ينحتونها بأيديهم، فكأنه يقول لهم أيسوغ في قضية العقل أن تعبدوا الأصنام التي تنحتونها بأيديكم، وتتركوا عبادة الله الذي خلقكم، وخلقها، وهي حجارة تتخذون منها الأصنام، وهذا هو التفسير الصحيح الذي يساير نصوص القرآن الكريم ولا يجافيها، أن تقدر ﴿ما﴾ موصولة، اسماً موصولاً واقعاً على الأصنام المنحوتة، ويكون التقدير: أتعبدون هذه الأصنام التي تنحتونها بأيديكم والله خلقكم وخلقها.

وأما ما ذهب إليه بعض المفسرين واتخذه بعض الجبريين ذريعة من حيث يشعرون أو لا يشعرون، ينسبون إلى ربهم الأخطاء التي نسبها إليهم محاولين التخلص من تبعاتها، والسلامة من شرور عواقبها، وذلك بجعل ﴿ما﴾ في الآية مصدراً، أي والله خلقكم وخلق أعمالكم، فإنه لا يصلح تفسيراً للآية، إذ لو كان إبراهيم يقصد ذلك المعنى لقامت الحجة عليه، ولاستطاع قومه أن يفحموه، وما استطاع أن يرد عليهم.

ويمكن أن يكون ذلك المعنى ـ خلق الله للأفعال ـ على العموم على اعتبار أن الله سبحانه ﴿خالق كل شيء﴾ وقول الرسول ﷺ (إنَّ الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته)[1] أي أن كل شيء بقدرته، كما خلق الخير

---

(١) رواه البخاري.

والشر فقال: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾[1] وخلق الشيطان وذريته وهو الموسوس بالشر والمغوي للعباد، لكن الله مع هذا لا يأمر بالشر كالفحشاء والمنكر وغيرها من الذنوب، ولا يرضى لعباده الكفر، وقد أعطى الإنسان عقلاً يختار به الخير من الشر، كما جعل له كسباً واختياراً للأفعال التي يباشرها ويفعلها ﴿وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون﴾[2] ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[3] والله قد بين في الآيتين أن الإنسان ينحت ويعمل بيده، لكنّه عمل غير صالح.

وخلق الأعمال على العموم حق، فالله سبحانه هو خالق الإنسان وخالق العقل فيه، وخالق اليد والرجل والدم والفكر واللسان والكلام، والإرادة والقدرة، وجميع الحركات والسكنات، وخالق جميع الغرائز، والحاجات العضوية، وهو خالق الحجر والخشب، الذي تصنع منه البيوت والأبواب والأصنام، وصانع الحديد والنار، وهو الذي أوجد فيها خاصية الإحراق، وجعل في الحديد البأس الشديد، كل ذلك تم بخلق الله.

ولذا قال ابن كثير في تفسيره (وكلا القولين متلازمان)، أما الإمام ابن القيم الجوزية لما أورد القول الأول بحمل «ما» على المصدر أي خلقكم وأعمالكم قال: (فالظاهر خلاف هذا وأنها موصولة، أي خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها، فهو يدل على خلق أعمالهم، والله أعلم)[4].

ثم إنّ إبراهيم لما ألقمهم الحجر بهذا القول وألزمهم عدلوا إلى طريقة الإيذاء.

٩٧ ـ ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

بنوا حائطاً من حجارة وملأوه ناراً، وطرحوه فيها، وذلك قوله فألقوه في الجحيم، قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم، وقيل الجحيم النار العظيمة.

٩٨ ـ ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

صارت النار بعد إلقائه عليها برداً وسلاماً، ولم تؤثر فيه أقل تأثير، الكيد الذي أرادوا به: إحراقه، ومعنى ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ أن إبراهيم علاهم بالحجة، يعني الأذلين حجة، وحلَّ بهم الهلاك، وأنقذ الله إبراهيم مما أرادوا به من الكيد.

٩٩ ـ ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾.

قال ذلك حين أراد هجرة قومه، والمعنى: إني ذاهب إلى حيث أمرني ربي عز وجل ﴿سيهدين﴾ إلى حيث أمرني، وهو الأرض المقدسة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٤) شفاء العليل: ١١٠.

وحين هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال:

١٠٠ ـ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

أي: ولداً صالحاً يعينني على طاعتك ويؤنسني في الغربة، فاستجاب له بقوله:

١٠١ ـ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾.

فهذه البشارة تدل على أنه مبشر بابن ذكر، وأنه يبقى حتى ينتهي في السن، ويوصف بالحلم وهو الوقار، هو على الراجح إسماعيل عليه السلام، وهو أول ولد بشر به عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، قال ابن كثير: بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه السلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي بعض النسخ (بكره) ثم قال: وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ وقال: ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾ وفي قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾[1]، أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، ومن ها هنا استدل على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه؟.

هو الذي كان معه بمكة في القصة التالية بدليل قوله بعد:

قصة الذبيح

ثم حكى حديث ذبحه قائلاً:

١٠٢ ـ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾.

أي شب حتى بلغ سعيه، سعى إبراهيم حينئذ قال له أبوه يا بني إني أرى أي أمرت في المنام أني أذبحك، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿افعل ما تؤمر﴾ ورؤيا الأنبياء حق، وقوله ﴿فانظر ماذا ترى﴾ إنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله، وإلا فالامتثال له لازم، و﴿افعل ما تؤمر﴾ مما أوحي إليك من ذبحي.

القـــراءة

﴿ترى﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم التاء وكسر الراء ﴿فانظر ماذا تُرِي﴾ أي ما تشير؟

---

(١) سورة هود، الآية: ٧١.

١٠٣ ـ ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾.

أي استسلما لأمر الله وأطاعاه وانقادا له وفوّضا أمرهما إلى الله ﴿تلّه للجبين﴾ كبّه على وجهه كيلا يرى منه ما يؤثر الرقة لقلبه، وفسّر بصرعه على جبينه فصار أحد جبينيه على الأرض، وأصل التل: الرمي على التل وهو الرمل المجتمع، ثم عمم في كل صرع ودفع يقال تله تلاً.

١٠٤ ـ ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾.

١٠٥ ـ ﴿ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

أي قد فعلت ما أمرت به في الرؤيا، وقد أحسن الأب والابن حيث امتثلا الأمر في بذل النفس على صورة رائعة لا يقبلها إلا أولو العزم من الرسل، وكما جزيناه بالعفو عن ذبح ابنه نجزي من سلك طريقهما في الإحسان بالاستسلام والانقياد لأمر الله ومن يصبر على امتحانه.

١٠٦ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾.

أي إنَّ هذا لهو الامتحان الظاهر، والاختبار الشديد، وأي بلاء أشد من أن تؤمر بذبح ولدك فتمتثل صابراً محتسباً أجرك عند الله.

١٠٧ ـ ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾.

خلصناه من الذبح بأن جعلنا الذبح فداء له، والفداء كان كبشاً أقرن.

١٠٨ ـ ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾.

١٠٩ ـ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾.

١١٠ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

١١١ ـ ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وتركنا عليه في الأمم الآخرة ثناءً حسناً، وذكراً عَطِراً، هو سلام على إبراهيم، مثل ذلك أي بقاء الذكر العَطِر فيما بين الأمم نجزي المحسنين، وهذا لأنه من عبادنا المؤمنين.

البشارة بإسحاق

١١٢ ـ ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

هذه الآية تدل على أن الذبيح غير إسحاق لأن البشرى بإسحاق جاءت بعد الأمر بالذبح والفداء، ولكن

أهل الكتاب من تحريفهم لكتاب الله ولغيرتهم من العرب، حرفوا الكتاب فجعلوا نصاً فيه على إسحاق (تذبح وحيدك إسحاق).

١١٣ ـ ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾.

الضمير يعود لإبراهيم، والتكثير لذريته، وعلى إسحاق بجعل أكثر الأنبياء من نسله، والمحسن هو المؤمن، والظالم هو الكافر بيّن الكفر.

طرف من قصة موسى وهارون

١١٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

١١٥ ـ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

١١٦ ـ ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

بدأ بذكر المنة على العموم ثم أخذ يبين بعضاً منها على التفصيل، فمنها نجاتهما وقومهما ومن كان معهما من بني إسرائيل من الغرق، حين عبورهم البحر الأحمر وهي منة كبرى، كما أطلق الله على نجاة نوح من الغرق، الكرب العظيم، ومنها استعباد فرعون إياهم، فقد كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فأراد الله أن يمن على بني إسرائيل الذين استضعفوا في الأرض فنصرهم على القبط، فكانوا هم العالين عليهم، إذْ أغرق الله فرعون وجنوده في البحر.

١١٧ ـ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾.

١١٨ ـ ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

المستبين: البليغ البيان فيما أتى به من الحدود والأحكام وغيرها، وهو التوراة.

١١٩ ـ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾.

١٢٠ ـ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

أبقينا عليهما في الأمم التي جاءت بعدهما الثناء الحسن، وهو سلام على موسى وهارون.

١٢١ ـ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

١٢٢ ـ ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

طرف من قصة إلياس

١٢٣ ـ ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٢٤ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

القــــراءة

﴿وإنَّ إلياس﴾ قرأ ابن عامر بغير همز ﴿الياس﴾، أرسل إلى قوم بعلبك ونواحيها، فهو نبي من أنبياء إسرائيل.

١٢٥ ـ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

بعلاً، صنم لهم من ذهب، وبه سمي البلد أيضاً مضافاً إليه (بـك) أي تعبدون، وبعلاً بمعنى الرب بلغة حمير[1]، وأزد شنوءة[2]، ومنه بعل المرأة لزوجها ﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾[3].

١٢٦ ـ ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

القــــراءة

﴿الله ربكم﴾ قرأ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم، بفتح الهاء على البدل من جعل ﴿الله ربكم﴾. وقرأ الباقون: بالرفع على الابتداء والخبر ﴿اللهُ ربكُم﴾ لتمام الكلام الأول.

١٢٧ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾.

١٢٨ ـ ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

١٢٩ ـ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾.

١٣٠ ـ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾.

١٣١ ـ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

١٣٢ ـ ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

كفروا برسالة نبيهم، فكان جزاؤهم أنهم محضرون إلى النار، أما عباد الله المخلصون الذين أسلموا لله رب العالمين لهم جنات الخلد ينعمون فيها.

---

(١) شعب قديم في بلاد اليمن.

(٢) رهط أزد شنوءة نزلوا تهامة وتبدّوا، تفرّعوا من كبريات قبائل العرب «الأزد» التي تنتسب إلى كهلان بن قحطان.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

وأبقينا عليه الثناء الجميل، الذي هو سلام على آل ياسين، أي سلام على آل هذا النبي المذكور وهو يدخل فيهم، لا أنه هو المراد بالدعاء.

ثم ذكر في تعليل هذا الإكرام بقوله: إنا كذلك نجزي المحسنين، وقد كان آل ياسين من المحسنين.

القـــراءة

﴿آل ياسين﴾ قرأ نافع، وابن عامر ﴿آلِ ياسين﴾ بفتح الألف وكسر اللام مقطوعة، فجعلوها كلمتين.

قصة لوط

١٣٣ ـ ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٣٤ ـ ﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾.

١٣٥ ـ ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

١٣٦ ـ ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾.

١٣٧ ـ ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾.

١٣٨ ـ ﴿ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يخبر الله تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه تعالى من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً، في طريق الشام من مكة، وهي معروفة بقرى لوط، وقد فصلنا الكلام عليها في الأعراف، وخاطب الله المشركين بـ ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمَّر الله عليهم، فتتعظون بما حلَّ بهم، و ﴿إذ﴾ ها هنا متعلق بمحذوف، تقديره اذكر يا محمد إذ نجيناه.

قصة يونس

١٣٩ ـ ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١٤٠ ـ ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

١٤١ ـ ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾.

١٤٢ ـ ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾.

١٤٣ ـ ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾.

١٤٤ ـ ﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

١٤٥ ـ ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾.

١٤٦ ـ ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾.

١٤٧ ـ ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾.

١٤٨ ـ ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

أرسل الله نبيه يونس إلى أهل نينوى، فأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا، فكف عنهم العذاب، لكن يونس بعد أن غاضب قومه، أبق إلى الفلك، أي هرب إلى البحر وركب سفينة مملوءة بالمسافرين، وذلك ليأسه منهم، ولما جاوز الساحل هاجت الأمواج، وتوقع الراكبون سوء المصير لهم جميعاً، فاتفقوا على تخفيف الحمل بإلقاء من تقع عليه القرعة في البحر، فساهم الجميع ووقع السهم على يونس، فكان من المدحضين أي المغلوبين بالقرعة، فأدرك أن خروجه عن قومه ما كان ينبغي أن يكون، وأنه مليم أي: مذنب، فألقى بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت وهو مليم نفسه ما فرط منها﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فاستجاب الله دعاءه وأوحى إلى الحوت فألقاه على الساحل، وتلقته العناية الإلهية وأنبتت عليه شجرة من يقطين، قيل هو القرع، وكان قد ألقاه الحوت بالعراء، وهي الأرض التي لا يتوارى فيها بشجر ولا غيره حالة كونه سقيماً أي مريضاً، فلما خرج من بطن الحوت، أمر أن يرجع إلى قومه الذين أرسل إليهم، وكان عددهم مائة ألف بل إنهم يزيدون عن هذا العدد، وهذا راجع لدخول الناس وخروجهم لمصالحهم من هذه البلدة و(أو) بمعنى (بل) بلغة كندة[1].

نقاش المشركين في عقائدهم

ثم عاد الكلام إلى الرد على مشركي العرب فقال سبحانه:

١٤٩ ـ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾.

أي سل أهل مكة سؤال توبيخ وتقرير لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، وكان الله سبحانه أمر نبيه محمداً ﷺ في ختام السورة بتكذيبهم بطريق الاستفتاء عن شيء تنكره العقول، وتأباه الطباع.

---

(١) قبيلة شهيرة من عرب اليمن، بطن من جذام المنتسبة إلى كهلان بن سبأ، منهم كان الحارث ملك الحيرة وحجر والد امرىء القيس. (انظر تاريخ الأدب العربي).

١٥٠ ـ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾.

١٥١ ـ ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾.

١٥٢ ـ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

أي هل كانوا حاضرين خلق الملائكة حتى يحكموا عليهم هذا الحكم بأنهم إناث، وهذا تبكيت لهم، على وصف الملائكة الذين هم عباد الرحمن بأنهم إناث، فهم لا دليل عندهم إلا الحضور وقد نفاه الله سبحانه، ومن تماديهم بالإفك والكذب الباطل ليقولون ولد الله بقولهم الملائكة بنات الله.

١٥٣ ـ ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾.

١٥٤ ـ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾.

عجباً لكم كيف تقولون إن الله سبحانه اختار البنات على البنين وهو استفهام توبيخ، وكيف تحكمون بهذا الحكم الذي تشهد ببطلانه بداهة العقول.

١٥٥ ـ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

١٥٦ ـ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

١٥٧ ـ ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه، بل ألكم حجة بينة على ما تقولون، وهذا إضراب انتقالي من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر إلى مطالبتهم بالحجة على ما يدعون، إذْ الحكم المقبول لا بد له من سند عقلي، أو نقلي من كتاب سماوي بعد أن انتفى حضورهم ومشاهدتهم، والأمر هنا بقوله ﴿فأتوا﴾ للتعجيز، كقولك اصعد السماء.

١٥٨ ـ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾.

المراد بالجنة الشياطين، وبالنسب المصاهرة، وقد كان الخطاب معهم، وفي هذه الآية التفت عنهم إلى الغيبة للإشارة إلى انقطاعهم عن الجواب، وسقوطهم عن درجة الخطاب، وتالله لقد علمت الجنة: إن من يقول ذلك منهم أو من غيرهم، لمحضر إلى عذاب الله، وناره يوم القيامة.

١٥٩ ـ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

١٦٠ ـ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

سبحان الله وتنزيهاً له عما يصفون سبحانه وتعالى عما يشركون، وتقديساً له، وتنزيهاً عما يدعيه المبطلون المفترون.

وبعد أن نزّه الله تعالى نفسه عن ذلك الوصف الشائن، وأوعد المشركين فيه بالعذاب بالنار، واستثنى عباده الموحدين من حضور النار فقال:

١٦١ ـ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾.

١٦٢ ـ ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴾.

١٦٣ ـ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

إذا علمتم هذا فإنكم أيها المشركون ومن عبدتموهم من دون الله ﴿ما أنتم عليه﴾ أي على ما تعبدون بفاتنين، أي بمضلين أحداً، إلا من هو صال الجحيم، أي من سبق له في علم الله أنه يدخل النار، والأمر كله لله، وقد ترك للعبد حرية الاختيار ليجازى على اختياره.

١٦٤ ـ ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾.

ثم أخبر عن الملائكة بقولهم وما منا معشر الملائكة إلّا له مكان في السموات مخصوص يعبد الله فيه.

صلاة الملائكة

١٦٥ ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾.

١٦٦ ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾.

يحكي الله عنهم أنهم يصفون للعبادة كما يصف أهل الدنيا، ومن هنا كانت تسوية الصفوف في الصلاة من إقامتها، وأنهم هم المسبحون المنزهون لله عما وصفه المشركون.

١٦٧ ـ ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾.

١٦٨ ـ ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

١٦٩ ـ ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

١٧٠ ـ ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

كان كفار قريش يقولون قبل بعثة النبي ﷺ، لو أن عندنا ذكراً أي كتاباً من الأولين مثل كتب أهل الكتاب، لأخلصنا العبادة لله عز وجل، فلما آتاهم ما طلبوا، كفروا به، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وهذا تهديد لهم.

تقويم العزائم

١٧١ ـ ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٧٢ ـ ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾.

١٧٣ ـ ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾.

أي تقدم وعدنا للمرسلين بنصرهم، والكلمة قوله تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾[1]، وجند الله هم المؤمنون، غالبون بالحجة أيضاً والظفر، وقد تحقق لجند الله الغلبة كما أخبر القرآن.

ثم أمر نبيه ﷺ بالصفح والإغماض إلى أوان النصرة والغلبة قائلاً:

١٧٤ ـ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

١٧٥ ـ ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾.

أي أعرض عنهم إلى زمن معلوم ربما مدة الهدنة، حتى تتقوى عليهم وقال مجاهد: حتى نأمرك بالقتال، ثم بعد ذلك انظر إلى مصيرهم إذا نزل العذاب بهم كالقتل والأسر يوم بدر، وسوف بعد ذلك يبصرون ما أنكروا، وكانوا يستعجلون بالعذاب تكذيباً به فقيل:

١٧٦ ـ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

١٧٧ ـ ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

فإذا نزل العذاب الذي هو كالجيش الزاحف بساحتهم وحلّ بدارهم، والساحة فناء الدار، فبئس الصباح، صباح المنذرين بهذا العذاب، وخصَّ الصباح بالذكر، لأن العذاب كان يأتيهم فيه، والغارات والهجوم على الأعداء يكون فيه على غفلة، ثم كرر ما تقدم توكيداً لوعده بالعذاب، فقال:

١٧٨ ـ ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

١٧٩ ـ ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾.

ثم نزه نفسه عن قولهم بقوله:

١٨٠ ـ ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

١٨١ ـ ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

١٨٢ ـ ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

هذا أدب رباني، وختام إلٰهي لتلك السورة التي نفت عن الله عز وجل الصاحب والشريك والولد

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

والقرين، حتى يتأدب المسلمون بهذا، ولا يخلو به في ختام جلائل أعمالهم.

ورب العزة: قال مقاتل: يعني عزة من يتعزز من ملوك الدنيا، و ﴿عما يصفون﴾ من اتخاذ النساء والأولاد ﴿وسلام على المرسلين﴾ تسليمه عليهم إكراماً لهم وإخباراً بسلامتهم، والحمد لله رب العالمين رب الثقلين، الجن والإنس، خالصاً من دون ما سواه، لأنه نعمة لعباده، فالحمد لله خالص لا شريك له، كما لا شريك له في نعمه عندهم، بل كلها من قبله ومن عنده.

فهرس المجلد الثالث
من تفسير هداية البيان

الجزء السادس عشر

سورة مريم

سورة طه

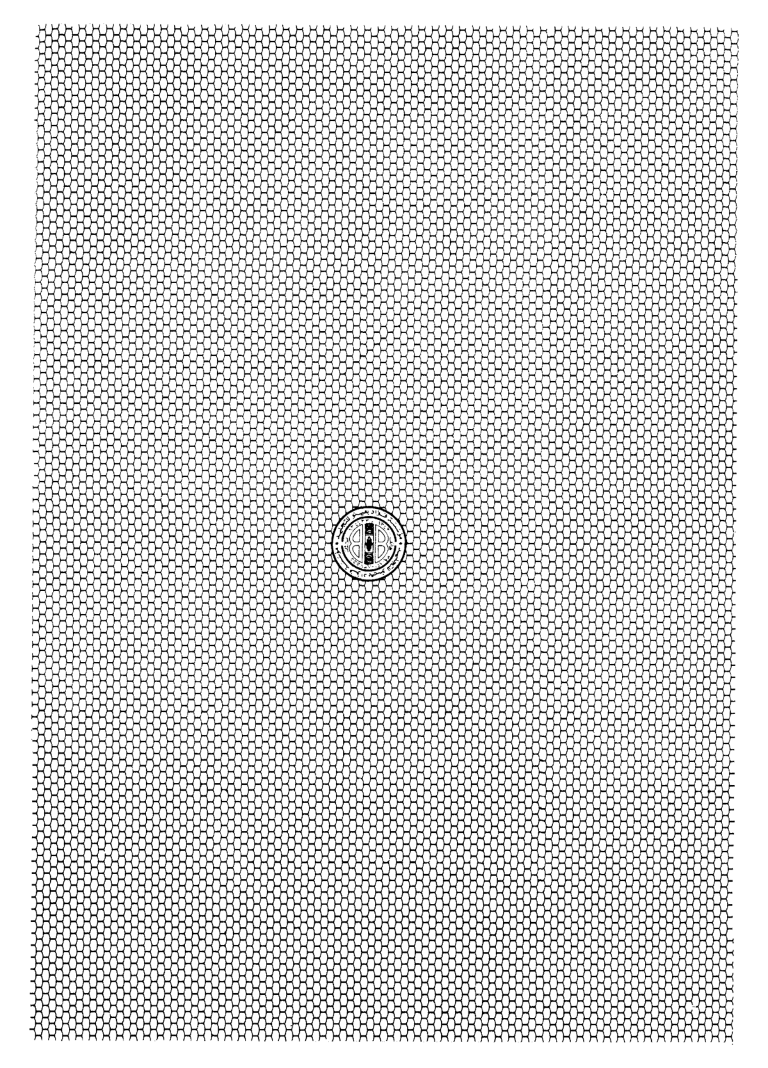
الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

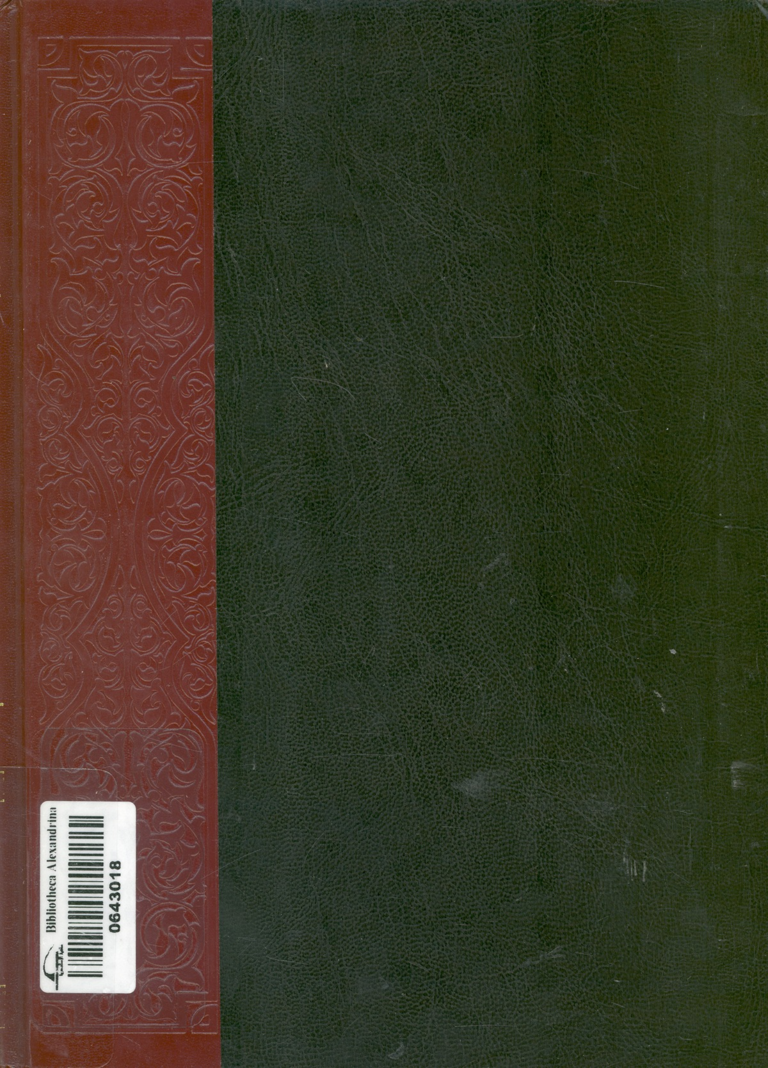
سورة الحج

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون






Bibliotheca Alexandrina
06643018